الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣١٣ - رجب ١٤٢٣ هـ - سبتمبر / أكتوبر ٢٠٠٢م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 313 SEP. / OCT. 2002

العلال
والعَلَم الثلاثي الألوان

معوقات تعريب التعليم
الجامعي والحلول المقترحة
للتغلب عليها

تطور الشعر الليبي المعاصر
في الميزان

تراث الخليقة والطوفان
الحروف الأولى

رحلة القلصادي الحجازية

صناعة المعلوماتية

خوان غويتسولو:
جذوره في العصور الوسطى

المخوبة
سوق يتشبّث بالماضي

الفيصل

الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل النشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

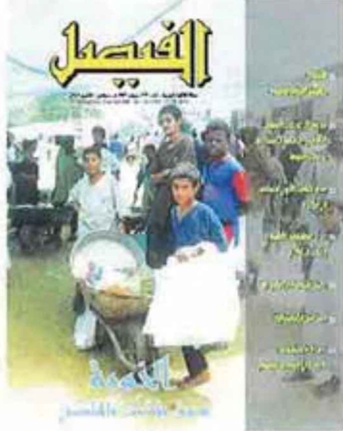
السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ٧٠ ديناراً - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ٨٠ ديناراً - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية - الشركة السعودية للتوزيع - هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢). مصر - مؤسسة توزيع الأهرام - شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ - فاكس ٣٣٩١٠٩٦ - ٢٠٢... سورية - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ - ١١ - ٠٠٩٦٣، تونس - الشركة التونسية للصحافة - ٣نهج المغرب - ص.ب ٧١٩. فاكس ٧١٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ - ٧١ - ٠٠٢١٦، قطر - دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ - فاكس ٤٦٦١٨٦٥ - ٠٠٩٧٤، الأردن - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢ - ٦ - ٠٠٩٦٢، البحرين - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٥٣١٢٨١ - ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة - مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ - فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ - ٤ - ٠٠٩٧١، الكويت - شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩ - ٠٠٩٦٥، المغرب - الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ - ٢١٢ - ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية - القائد للنشر والتوزيع ت: ٢٠١٩٠١/٢ - ٣ - ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧

مطابع هلا
٤٨٢١٣١٣

الشركة السعودية للتوزيع
Saudi Distribution Co.



الخوبة سوق يتشبّث بالماضي

تكثر الأسواق الدورية في منطقة جازان، ومن أشهرها سوق الخوبة الذي يقام أسبوعياً كل خميس، وكان يطلق عليه في الماضي سوق «خميس اليوشمي» نسبة إلى اسم المكان الذي يقع فيه. وقد اتسع نطاقه مع ازدهار النشاط الاقتصادي، وتجاوز تأثيره الجانب التجاري، إذ أسهم في تشكيل ثقافة أبناء المنطقة، وتفعيل التواصل الاجتماعي بينهم. فماذا في هذا السوق من أسرار؟

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ -
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ - ٠٢٥٨

باب الفقه

لاشك أن مجلة «الفيصل» من المجلات الثقافية الرائدة في وطننا العربي، وقد أصبحت من المتابعات لها منذ مدة ليست بالقصيرة، وهي سائرة - بعون الله - من حسن إلى أحسن لأنها تسعى إلى أن تكون متميزة قلبًا وقالبًا، فما إن تحذف بابًا حتى تحدث أبوابًا جديدة. ولي في هذا المقام اقتراح أرجو أن يحوز على قدر كبير من الاهتمام، فالمجلة تفتقد للصفحة الفقهية، وهل تستقيم الحياة بعيداً عن الفقه الذي هو دليلنا في الحياة والعلاقات والمعاملات، خاصة وأننا في مجتمع إسلامي ويتابع المجلة كثير من القراء من شرق العالم إلى غربه، لتكن هذه الصفحة ثابتة، وفي كل عدد يصدر يتم تناول مسألة معينة كالزكاة مثلاً: ما معناها؟ ما تجب فيه الزكاة؟ على من تجب؟ من هم مستحقوها؟ مواقيتها؟.. أو الصوم مامعناه؟ على من يجب؟ مواقيته؟.. والمسائل الفقهية كثيرة، وبهذه الطريقة يتمكن القارئ من معرفة دينه، والسير على هديه كما أدعو إلى تخفيض سعر المجلة؛ لأن الارتفاع في الأسعار يؤدي إلى نتائج عكسية. ومما يؤسف له أن تجد كتبًا ومجلات أجنبية غاية في الإتقان تباع في وطننا العربي بأثمان بخسة، بينما تباع كتب ومجلات عربية بأثمان مرتفعة مع عقم في المحتوى ورداءة في التصنيع، بل الأدهى والأمر من هذا أن تقوم دور نشر أو إذاعات أجنبية بتزويدك بما تطلب من منشورات، وتمتنع جهاتنا عن ذلك، فهل بهذا نخلق جيلا مثقفًا غيوراً على حب الخير وعلى دينه.

مبروكة القرقوري
بريد تاجرجمت - مدنين ٤١٠٠ - تونس

التحرير:
نشكر لك اقتراحك، وكأي اقتراح يقترحه الإخوة القراء، فإنه سيجد منا الاهتمام، ولكن نشير إلى أن هناك مجلات كثيرة متخصصة تهتم بالمسائل الفقهية، وتتعمق فيها، وتجدين في أعداد المجلة مقالات تتناول قضايا فقهية.

ومع تقديرنا لطلبك تخفيض سعر المجلة، فإنه من الصعب جدًا تحقيق ذلك بسبب ارتفاع تكاليف مدخلات الطباعة، إلى جانب انخفاض قيمة معظم العملات العربية، ولا يفوتك أن الإعلانات قليلة جدًا في المجلات الثقافية بشكل عام، وهي مصدر داعم لأي دورية، ومن ثم لا مجال لخفض سعر المجلة، على الأقل في الوقت الحالي.

حنين

أود أن أعلمكم في هذا المجال أن مجلتكم الغراء لا تصل إلى لبنان، فنضطر إلى شرائها من بلدنا الشقيق سورية. وأرجو منكم نشر الكلمات الآتية المعبرة، ولكم جزيل الاحترام.

في زمن المحنة والمأساة، ومع صراخ الأمهات، ونحيب الأرامل، ومع دمعة طفل فقد أعز ما يملك وهو طفولته البريئة وضحكته المشرقة، وبدأ يعبث بملفات إجرام البشر فوقف حائرًا مذهولاً من تخاذل أعمامه وأخواله وسكوتهم، ربما يجد من ينقذ حياته من الإخفاق والخضوع والاستسلام لليهود مغتصبي الأرض.

لقد جفت مآقي أمهات الشهداء، واسترسلت في الحنين إلى عهود مضت، يوم كانت الأسرة تجتمع حول الموقد، وحول مائدة الطعام ،وحول أفكار ورؤى للمستقبل، ولكن تحطمت الرؤى مع فقدان أركان العائلة، فأضحت الآلام تجمع ما تبقى من أشلاء للاستغاثة من ظلم مغتصبي الأحلام من العقول.

أمام هول الكارثة وعظمتها نقف حائرين متسائلين عن دور كل مثقف عربي في الدفاع عن إخوانه!!!

إن الكلمة والفكرة تبلغان أسمى الغايات عندما تصلان إلى سمع الجمعيات والمنتديات الثقافية العالمية، فنحن بحاجة إلى شرح ما نعانيه من اضطهاد وظلم كي يفهم الغرب وجهة نظرنا، فلماذا نعيش زمن الصمت والرغيف ونترك قضايانا الكبرى؟؟؟

ربما يكون الصراع بين الثقافات والحضارات من خلال المثقفين أجدى وأنفع من الصراع العسكري، لعلنا نحاول أن نضع أساسًا لبناء صرح ثقافي يهتم ويتعاون مع المؤسسات الإعلانية لإنقاذ ما تبقى لنا من مروءة عربية!

لقد أحسسنا أن الواجب العربي والإسلامي يقتضي منا التعاضد والتكاتف وفتح باب الحوار وتبادل الآراء بين المثقفين العرب لبلورة موقف موحد وإبلاغه كل جمعية ومؤسسة اجتماعية أو فكرية ولمعرفة خطط أعدائنا الفكرية ونشاطاتها في هذا المجال.

وجيه حجازي
ص.ب: ١٠٦٩ - طرابلس - لبنان .

التحرير:
كما نكرر دائمًا هناك بعض العقبات التي نواجهها في توزيع المجلة في عدد من الدول، ونحن نعمل على تجاوزها بالتعاون مع الجهات المعنية في تلك الدول.

ونشكر لك هذه الخواطر التي تعبر بها عن رؤيتك للواقع العربي، وحرصنا على أن تكون بالصورة نفسها التي صدرت منك.

سنهدريم وسانهدرين

لدى بحثي عن إجابة أسئلة مسابقة العدد (٣٠٩) حول مادة (السنهدريم) وجدت ما يأتي:

ـ في معجم المصطلحات والألقاب التاريخية للمؤلف مصطفى عبدالكريم الخطيب وقد أخذ هذه المعلومة من القاموس الإسلامي للأستاذ أحمد عطية الله ٥٢٣/٣.

ـ وجدت عوضًا عن كلمة (سنهدريم) كلمة (سنهديم): وتعريفها: اصطلاح ارتبط في التاريخ اليهودي بالمجلس الأعلى الذي شكله اليهود بعد عودتهم من السبي، ويتألف هذا المجلس من ٧٢ عضواً من الشيوخ والكهنة، وكانت له صلاحيات مهمة في فض المنازعات وفرض العقوبات وهو الذي حكم على المسيح عيسى بالموت ـ (صفحة ٢٦٠).

ووجدت في المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم منذ فجر التاريخ حتى العصر الحالي (تعريب وتصنيف وتقديم الأستاذ الدكتور سهيل زكار) الجزء الثاني صفحة (٤٧٨):

سانهدرين Sanhedrin من الكلمة اليونانية Synedrion بمعنى مجلس المحكمة العليا للشعب اليهودي: ذكرت للمرة الأولى في ١٩٨ ق.م وذكرت مرة أخرى من قبل يوسيفيوس Josephus في العهد الجديد، وفي الأدب الرباني مع أن هناك تبايناً بين أوصاف دورها وأعمالها في مختلف المصادر، وفي عهد الهسمونيين كانت هي المجالس الاستشارية للحكام (التاريخ التوراتي) History - Biblical، وبلغ نفوذها حده الأدنى في عهد هيرود Herod (٣٧ ـ ٤ ق.م)، وفي أثناء الإدارة الرومانية كانت تتحكم بالشؤون اليهودية الداخلية خاضعة أهم مما سواها، وهي سلطة الحاكم. والمجلس يضم ٧١ عضواً والحاخام الأعلى هو الرئيس، وكان الصدوقيون Sadducees يشكلون الأغلبية وكان الغربيون ذوي نفوذ مع أنهم أقلية، وقد التقى أعضاؤه في قاعة هيون ستون في الهيكل Hewh-Stone-Chamberof(القدس) Jerusalem، وفي صورته القديمة انتهى في٦٦-٧٠م.

أحببت أن أنقل إليكم ما قرأت وما وجدت من اختلاف في اللفظ

محمد نجيب باكير

باب النصر ـ تراب الغرباء ـ المختار ـ حلب ـ سورية .

التحرير

نشكر لك هذا الاهتمام بالتوثيق وبتقديم معلومات قيمة للإخوة القراء، ولعل من أهم أهداف المسابقة دفع القراء إلى البحث في المصادر وأمهات الكتب من أجل النفع والفائدة والمتعة.

ردود سريعة

استدراك واعتذار

قدمت "الفيصل" في عددها الماضي تغطية شاملة للندوتين اللتين عقدتا في وارسو والرياض عن العلاقات السعوديه البولنديه بمناسبه مرور ٧٠ عاماً على زيارة الملك فيصل - رحمه الله - وارسو في عام ١٩٣٢م، بيد أن هذا التاريخ ورد خطأ على الغلاف (١٩٢٤)، على الرغم من ورود التاريخ الصحيح في الصفحات التي تناولت المناسبة، لذا وجب التنويه والاعتذار للقراء الأعزاء.

الأخ إبراهيم كبّة ـ الرقة ـ سورية:

نشكر لك ثقتك بمجلتك، ونعتذر لك عن عدم قدرتنا على تحقيق طلبك الخاص بالحصول على بعض العناوين، لأننا لا نعرف هل أصحابها يوافقون على ذلك أم لا؟ إلى جانب ما يتطلب ذلك من جهد ووقت كبيرين نحتاج إليهما في إعداد المجلة.

الأخ زاهر زكريا ـ القاهرة ـ مصر:

يسرنا تلقي مشاركاتك، ولا بد أن تصاحب الاستطلاعات صور معبرة عالية الجودة، إلى جانب ضرورة الاهتمام بالتوثيق ما أمكن ذلك.

الأخ محمد فيصل شايقي ـ جدة ـ السعودية:

يحتاج صقل الموهبة الإبداعية في أي مجال إلى ضرورة معرفة دروب هذا المجال، بمزيد من الاطلاع، ثم محاولة التجريب، والاستعانة بأصحاب الخبرة والدربة لتقويم التجربة، من أجل مزيد من التجويد، وبتكرار التجارب وتقويمها يقوى العود وتتضح معالم الطريق، فنتمنى لك التوفيق إن شاء الله.

الخوبة
سوق يتشبث بالماضي

يحيى الأمير
الرياض - السعودية

جازان هي آخر الأقاليم السعودية جنوبًا، وهي إمارة حدودية؛ إذ تمثل حدودها الجنوبية، والجنوبية الشرقية، الحدود الدولية للمملكة العربية السعودية مع جمهورية اليمن الشقيق.
والمنطقة تمتد على مساحة من الأرض تبلغ ١٤٫٠٠٠كم٢ تقريبًا.

ولعل من أشهر ما عرفت به المنطقة جغرافيًا، وطوال تاريخها المديد، ذلك التنوع الشديد في التضاريس،، فمن سهول ساحلية منخفضة تكاد تشكل الجزء الغربي من جازان وتمتد من الشمال إلى الجنوب إلى سهول مرتفعة بعيدة عن الساحل، كما في مدينة أبي عريش، إذ ترتفع سهولها إلى ما يزيد على سبعين مترًا، بالإضافة إلى سلاسل جبلية يرتفع بعضها على هيئة كتلة جبلية ينفصل بعضها عن بعض مشكلة فيما بينها عددًا من الأودية والمسارات المائية، ويظهر ذلك في مناطق كثيرة خاصة تلك المنطقة التي تقع فيها كتل جبل فيفا، وجبال الحشر، وجبال بني مالك، وجبال بلغازي، وأودية نشأت انحدارًا من مرتفعات جبلية شاهقة العلو، كوادي (دهوان)، ووادي (خُلب)، ووادي (سِيال)، وغيرها.



إلى سوق الخوبة

وتبعًا لذلك، فإن هذا التنوع التضاريسي، واختلاف الجغرافية الأرضية أدّيا إلى تنوع مناخي، فقد عمل وجود السهول الساحلية المنخفضة، والكتل الجبلية العالية على اختلاف كميات الأمطار الحارة، ومع أن جازان تقع ضمن نطاق المنطقة المدارية الحارة من العالم إلا أن المناخ يختلف بين صيف لطيف، وشتاء بارد في المناطق



عطارو سوق الخوبة

الجبلية، كما في جبال فيفا مثلاً ومطر موسمي وصيف حار في الجهات الساحلية.

إذن.. فالمنطقة تمتد على رقعة من التضاريس والمناخات المختلفة والمتعددة. ولا ريب أن هذا التنوع في التضاريس والمناخ سيؤدي إلى توزيع سكاني غير متكافئ، فمع أن منطقة جازان تمثل المركز الأول من بين مناطق المملكة من حيث الكثافة السكانية إلا أنه، ومع هذه الكثافة، وبسبب التنوع في طبيعة المنطقة ومناخها، لم تؤد تلك الكثافة السكانية العالية إلى نشوء مدن كبيرة، فالغالبية العظمى من السكان يتفرقون في مستوطنات صغيرة.. ويوجد القسم الأكبر من السكان في سهل تهامة، وقسم أقل في المناطق الجبلية.

ومع أن ثمة تغيرات طرأت على نمط التوزيع السكاني في المنطقة، لعل من أهمها تلك التي ظهرت مع بداية العهد السعودي، ولعل من أبرز مظاهرها بروز بعض المدن الصغيرة ذات الطابع المتحضر خدميًا، غير أن تلك التغيرات لم تلامس - إلى الآن - القاعدة التوزيعية لسكان المنطقة مما حال دون حدوث انقلاب فعلي في نمطية ذلك التوزيع، بالإضافة إلى أن ثقافة القرية والتمسك بالأرض والمكان سيحولان دون أي محاولة من ذلك القبيل. والملاحظ أن تلك المدن بدأت تتخلى عن صغرها بسبب نزوح الكثير من أبناء القرى إليها، ولعل أبرز أسباب ذلك النزوح يتمثل في البحث عن أنماط معيشية وخدمية قد لا توجد في قراهم(١).

ظاهرة الأسواق الدورية

كل تلك الأوضاع، كما يرى د. حبيب، مثّلت مأزقًا اقتصاديًا، إذ يصعب معها إقامة أسواق دائمة، ومن ثم فإن عدم وجود هذه الأسواق يؤدي إلى صعوبة حصول السكان على حاجاتهم المعيشية، ومؤنهم الاستهلاكية، كما يؤدي إلى عرقلة تصريف أي فائض يمكن أن ينتجه

السكان الريفيون في المنطقة ولاسيما المنتجات الزراعية والحيوانية، ومن ثم فإن الحلّ الأمثل يكمن في وجود أسواق دورية تقدّم حلولاً لقلة الكثافة السكانية وأمور العرض والطلب(٢) فحينما يخصص يوم واحد للسوق من كل أسبوع سيؤدي ذلك إلى تركيز حركة القدوم والتوافد عن طريق حصر قدوم الباعة والمشترين في يوم واحد، وإلى مكان واحد.

ووفق هذه الظروف كان نشوء الأسواق الدورية ضرورة ملحّة تتسق ومتطلبات المنطقة وظروفها المعيشية والحياتية.

خلفية تاريخية

جاء في كتاب «العقد المفصل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب» للشيخ علي بن عبدالرحمن البهكلي في معرض حديثه عن رحلة قام بها الشريف سنة ١١٠٣هـ: «أنه ارتحل من مدينة أبي عريش إلى وادي خلب» حتى يقول: «وأقام بها واستحسن مع الإقامة وازدحام الناس أن يجعل ذلك الموضع سوقًا، فاستدعى من المدينتين من يُقيم أود السوق من العطّارين ونحوهم فارتحل إليه من هذه الأجناس جمع كثير رغبة ورهبة، ثم جعل لذلك السوق موعداً يجتمع الناس فيه في كل أسبوع فورد إليه الواردون، وأتاه من كل فج القاصدون، وصار ذلك السوق أحسن الأسواق وأجمعها لما يطرب إليه المشتاق»(٣).

ويرجح العقيلي أن السوق المذكور هو سوق الأحد الحاضر، يريد الواقع بمدينة أحد المسارحة، ومن هنا يرى د. محمد حبيب أنه ليس من المستبعد أن الأسواق الدورية كانت معروفة في جازان قبل سنة ١١٠٣هـ بحكم أن الأمر بإقامة سوق دوري في مكان غير مأهول بالسكان لا يمكن أن يصدر في حالة أن هذا النوع من الأسواق لم يكن معروفًا قبل ذلك التاريخ في المنطقة.

ومع كثرة الأسواق الدورية في منطقة جازان، كأسواق تهامة: الدرب - بيش - صبيا - أبو عريش - الأحد



استخدام أوعية مواد البناء في وزن البضائع



رواج كبير للبن والهيل والبهارات في الخوبة والموازين التقليدية سيدة الموقف

- صامطة - المشوّق الشقيري، أو الأسواق الساحلية: جازان - الشقيق - القحمة -، وأسواق نطاق التلال التي يقع ضمنها سوق الخوبة مدار البحث بالإضافة إلى أسواق: الحقو - العيدابي - الحميرة - العارضة - الخشل - أو أسواق صبية كالداير، وعيبان، وهروب، ونيد، والميثا، ورخية، وحجن، ومقزع، والعيدابي، لعل سوقاً من كل هذه المنظومة الطويلة من الأسواق لم تكتب له الشهرة والبقاء والاستمرار على الرغم من كل التحولات، كما كتب ذلك لسوق الخوبة المقام كل خميس.

بدايات الخوبة

وثمة شهادة تاريخية عن السوق أدلى بها لنا الأستاذ يحيى مقنع موضحاً أن هذا السوق منذ أن عرفه وهو يقام أسبوعيا كل خميس، وكان يطلق عليه اسم «خميس اليوشمي» نسبة إلى اسم المكان الذي يقع فيه، والواقع إلى الشرق من موقع السوق الحالي بمسافة ٢كم٢ تقريبا، ويستطرد الأستاذ المقنع قائلاً: لقد حضرت إلى السوق وهو في باطن الوادي سنة ١٣٨٥هـ وأنا طالب في الصف الرابع الابتدائي.

استمر السوق في باطن الوادي إلى سنة ١٣٩٥هـ إذ نقل في هذا العام إلى الطرف الشرقي من البلدة كاحتياط أمني من خطر السيول ولعل حوادث ما وقعت أدت إلى ذلك الانتقال الذي أشار إليه أمير «الحرّث» أنذاك راشد ابن صالح العصيمي، وكانت مساحة السوق يومها لا تتجاوز الظلال القريبة من الجبل الصغير المسمى «مدبع» واستمر في توسعه غرباً حتى شمل قريتين صغيرتين هما: العابطية، والجبيبة الشرقية، واتسع عرضه جنوبا بمقدار نصف طوله خلال السنوات العشر للخطتين الخمسيتين الأوليين ما بين سنتي ١٣٩٥ و١٤٠٥هـ.

ولعل تلك الفترة كانت الفترة الذهبية من عمر السوق بيعاً وشراءً، وذلك لزيادة الطلب على المنتجات البترولية والمواد الغذائية والسيارات والمعدات الثقيلة وقطع الغيار



دكان الشيخ علي حسن عطبة ركود بعد رواج

وغيرها من الكماليات، ولقد كان السوق في أوج نشاطه فيما يتعلق باستقبال المحصولات الزراعية القادمة من الجبال اليمنية، كالبن الخولاني، والقشر العلاني، والفواكه، والنباتات العطرية بأنواعها.

ولقد أدى نشاط السوق في تلك الفترة الممتدة إلى قرابة سنة ١٤٠٩هـ إلى نشاط الحركة التجارية للأسواق اليمنية القريبة والمجاورة لسوق الخوبة مثل سوق «الملاحيط» الذي يقع على بعد ٢٠ كم تقريباً شرقاً، وسوق «الظاهر» الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من سوق «الملاحيط»، ويقام يوم السبت، وسوق «المنزالة» جنوب سوق «الملاحيط»، ويقام يوم الأحد، وقد شكل سوق الخوبة الشريان الذي يضخ مختلف البضائع والحاجيات إلى تلك الأسواق.

لم يكن السوق في تلك الفترة وما سبقها مجرد موعد زمني مكاني للبيع والشراء بل كان موعداً - كذلك - لالتقاء أبناء القبائل المجاورة يعقدون فيه الكثير من المظاهر الاجتماعية كالإصلاح بين الخصوم وفض بعض النزاعات خاصة لدى القبائل التي يترسخ لديها مفهوم العرف والوحدة القبلية، ومثل السوق كذلك موعداً لالتقاء شيوخ القبائل وعرفائها وكثيراً ما كان يدور في تلك اللقاءات بحث عدد من الأمور المشتركة التي يعني بها كل جانب، وكان السوق موعداً لتنفيذ الأحكام الشرعية على من صدرت بحقهم من جلد وقصاص ونحوهما. وقد كان يستفاد من السوق أيضاً لتحديد معرفة أوقات مناسبات الزواج والطّهارة وغيرها.

هذا السوق لا يمثل واقعة تجارية فحسب بل لقد شكّل جزءاً من ثقافة أبناء تلك المنطقة وأسهم في تفعيل التواصل والتقارب الاجتماعي.

لمحافظة الحرْث العتيقة التي يقع فيها سوق الخوبة الخميسي، ولظروفها وثقافتها أثر واضح في استمرارية هذا السوق وثباته.



البضاعة يتم عرضها على طاولات خشبية

محافظة الحرّث

وقد سخّرت «للفيصل» معلومات عن المحافظة الحاضنة للسوق يعود فضل الحصول عليها لاجتهاد الأستاذ يحيى مقنع.

فمحافظة الحرّث إحدى المحافظات الثلاث عشرة في منطقة جازان وتقع في الركن الجنوبي الشرقي منها، وهي من فئة «ب»، ويتبعها مركز واحد فئة «أ» هو مركز المحجورة. ويحد الحرّث من الشمال محافظة العارضة، ومن الجنوب والشرق الجمهورية اليمنية، ومن الغرب محافظة أحد المسارحة، ويقع فلكيًا - وتحديداً موقع السوق - على خط ١٥ - ٤٣ْ شرقًا، ودائرة عرض ٤٦ - ٩٦ شمالاً.

والمحافظة تقع على أرض شبه صخرية بارتفاع ٢٠٠م تقريبًا عن سطح البحر ويقدر عدد سكانها بنحو ٤٠ ألف نسمة في مساحة تزيد على ألف كم٢ تقريبًا وتتخلل هذه المساحة ستة أودية: ثلاثة منها متوسطة الطول وهي: «خُمران، وذَهْبان، وسيّال». واثنان تفوقها طولاً وهما: «دَهْوان ، والدّحن»، وأكبر هذه الأودية جميعاً هو وادي «خُلب»، إذ تجتمع فيه الأودية الخمسة السابقة الذكر، ثم يتّجه غرباً ليتخلل أراضي أحد المسارحة منطلقًا من جبال السروات اليمنية ليصبّ في البحر الأحمر بمتوسط عرض تراوح بين ٥٠ و ٦٠ متراً تقريباً.

وقد سميت محافظة الحرّث بهذا الاسم نسبة إلى القبيلة التي تسكنها حتى الآن، إذ يشكل أبناؤها غالبية بين أبناء مركز المحافظة.

ومن بنود المعاهدة التاريخية والمعروفة بمعاهدة الطائف التي تمت بين الملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - وإمام اليمن آنذاك الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ما يتعلق بمحافظة الحرّث، إذ تنص على أنه وبدءاً من بلدة الخوبة وما جاورها من قرى جنوباً على بعد ٢٥ كم، وشرقًا على بعد ١٥ كم فمواطنو هذه الجهات يعدّون

من رعايا الدولة السعودية، وما وقع جنوباً أو شرقاً من هذين البعدين من قرى وسكان فيعدون من رعايا المتوكلية اليمنية.

وفي المنطقة عشرات الأسر والقبائل التي لا تقلّ عدداً وشهرة عن قبيلة الحرّث، ومن أبرز هذه القبائل: المجارشة، وبنو شراحيل، والهزاهيز، وبنو سلامة، والكعوب، والمعانقة، والدرابية، وبنو عقيل وشهرتهم بالزيالعة، والقطبيون وشهرتهم بالأمير، وبيوتات قليلة من آل النعمي، وآل فتح الدين وبعض قبائل المسارحة كالخبراية، والشرفاء، والطواهرة، والحناتيل، والفقهاء، وغيرهم.

الخوبة

هي البلدة التي تشتمل على السوق والتي استمدت شهرتها من شهرة السوق، وحينما تستخبر أهالي البلدة القدامى عن حالها قديماً وحديثاً لن تجد سوى حديث عن نقلة تطورية شهدتها البلدة كما شهدها الكثير من الأقاليم والمدن، مع أن التطور الذي شمل بلدة الخوبة تطور ضئيل لم يلامس إلى الآن الاحتياجات الحياتية المتعددة، فبعد أن كانت الخوبة قرية صغيرة ـ والحديث لأحد الأهالي ـ تكاد تقتصر على بيوتات متفرقة لم يكن ليصبح لها أي شأن أو ميزة إلا حين وجد السوق الذي أدّى بدوره إلى شهرتها، وزيادة الحركة فيها، وكثرة مرتاديها. كذلك فإن للموقع الحدودي الذي تحتله هذه البلدة أثراً بارزاً في الاهتمام بها؛ وذلك من خلال إنشاء مؤسسات حكومية أمنية وخدمية مما كان لها دور بارز في إنعاش البلدة واستقطاب الكثير من أبناء القرى المجاورة للسكن فيها.

الخوبة اليوم بلدة على حافة الاكتمال ترتبط بمدينة جازان قلب المنطقة ـ بطريق إسفلت يبلغ طوله ٩٥ كيلومتراً يمرّ ببلدة «المضايا» ثم محافظة «أحد المسارحة» وفيها يلتقي بالطريق الرئيس النافذ إلى الجمهورية اليمنية والذي يمر بمحافظ «صامطة»،



فل ونباتات عطرية



بيع اللحوم وغياب الوعي الصحي

ويتفرع من الدغارير شرقاً ليصل إلى الخوبة.

والبلدة تشهد نماءً خدمياً يتمثل في مؤسسات حيوية كالكهرباء التي احتفلت الخوبة بدخولها قريباً.

ويغذي البلدة وبعض القرى المجاورة لها خزّان مياه يمتد إليه خط المياه من قرية «أبو حجر الأعلى» وثلاثة خزّانات أخرى في كل من «الجابري» و«المعطن» و«الخشل» مع افتقار شديد تشهده القرى المجاورة لها في هذه الخدمة.

وقبل فترة يسيرة وصلت إلى بلدة الخوبة خطوط الهاتف مع أن الحاجة إليها قائمة منذ أمد بعيد وذلك لوجود مؤسسات ومراكز حكومية يتحتم ارتباطها ببقية مراكز المنطقة ومؤسساتها. وقد أمكن التغلب على ذلك بفتح خطوط داخل بعض المراكز الحكومية تحت المظلة الهاتفية لمقسمات «صامطة» و«أحد المسارحة»، على أن كل القرى المحيطة بالخوبة لا تزال تعيش ترقباً متزايداً في انتظار وصول هذه الخدمة.

أما الخدمات الصحية، ففي البلدة مركز رعاية أولية فئة (أ) ومراكز أخرى في بعض قرى المحافظة «الجابري» و«الخشل» و«المردة» و«الفاوية».

ويزيد عدد المدارس في المحافظة على ١٥٠ مدرسة في مختلف المراحل، وتضم الخوبة مركز محافظة ومحكمة شرعية، وكتابة عدل ومركز شرطة، وقسماً للسجون، ومركز مباحث، ومركزاً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومكتب بريد، وقطاعاً لحرس الحدود، وقيادة للمجاهدين.

ويقدر عدد سكان الخوبة بنحو ٢٥٠٠ نسمة وهو عدد غير مستقر بسبب حركة توافدية ضخمة تشهدها البلدة خاصة من رعايا اليمن الشقيق وبعض سكان القرى المجاورة.

الدخول في السوق

ساعات الصباح الأولى والمؤشر الضوئي في سيارتنا المستأجرة من المطار يشير إلى الخامسة وخمس وأربعين



لبيع السمك تجاره وزبائنه على الرغم من بعد السوق عن البحر

صباحاً. كانت الانطلاقة من «صامطة» بعد أن أخبرونا أن هناك من ينتظرنا في مركز محافظة الحرّث صباحاً. على الطريق المتفرّع من الدغارير شرقاً باتجاه الخوبة يلفت انتباهك منظر السيارات المحتشدة على الطريق والمتجهة إلى السوق والكثير من تلك السيارات تعود للإخوة اليمنيين محملة ببضائع مختلفة يتنقلون بها من مختلف الأسواق يوماً بعد يوم.

بعد تجاوزنا لنقطة التفتيش الواقعة قبل مثلث العين الحارّة بنحو كيلومتر، تلك النقطة التي كانت خالية إلا من مطبات صناعية مدبّبة تزيد استيقاظك وأنت تستقبل هذا الصباح الجازاني الحارق، وبعد تجاوزنا منطقة العين الحارة كانت الأعين مفتوحة على القيادة في طريق ضيق يتكون من مسارين لا يفصل بينهما إلا الخط الأصفر وعيون القطط، ووسط سيارات لا يعرف أكثرها إضاءات الكوابح مما استلزم استيقاظاً مضاعفاً.

وصلنا إلى لوحة كتب عليها: الخوبة ٨كم. فنزلنا أمامها وانتظرنا أملاً في أن تهدأ الحركة لحظة لنتمكن من التقاط صورة للوحة.. لم نشأ التقاط الصورة في زحمة من السيارات خشية أن ينزل من يفتتح صباحه بك مستفهماً عن سبب تصويرك وإلى أين ستذهب بالصورة.؟!

وما إن شارفنا على دخول الخوبة حتى بدأ الاختناق المروري يتحكم في حركتنا.. أخذنا جانب الطريق الأيمن من أقصاه وتسللنا بين السيارات حتى دخلنا إلى البلدة، ومع المدخل انعطفنا يميناً قاصدين مركز المحافظة إذ إن ثمة من ينتظرنا لتسهيل القيام بعملنا هذا.

قابلنا عند مدخل مبنى المحافظة شاب يعلو وجهه أرق ليلي لم أرد معه أن أكثر الأسئلة فبادرنا بالسؤال: أنتم الإعلام.. ولعله هكذا أخبر.. أجبناه: نعم ثم أدخلنا إلى مقصورة متواضعة انتظرنا فيها ريثما وصل «الخوي» وهذه تسمية صدّرت إلى المنطقة قديماً، ومع أنها تسمية غادرت كل السجلات الرسمية غالباً وظلّت على شفاه

الناس، ما إن وصل الخوي حتى سألناه عن المصور وفوجئنا بأنهم قد أعدّوا لنا مصوراً تلفزيونياً بدلاً من مصور فوتوغرافي. فانطلق معنا إلى أحد إستديوهات الخوبة أو لعله الإستديو الوحيد مما جعل مهمتنا صعبة في إقناع المصور بأن يقفل محله ويرافقنا خاصة أن هذا يوم الخميس يوم السوق وكثرة المرتادين.

انتهت مفاوضاتنا معه بعد الاتفاق على السعر و«الإكرامية» في حال إنجاز العمل على الوجه المطلوب، وقد أراد «الخوي» الذي يمثل سلطة عليا بالنسبة إلى أصحاب الدكاكين و«البسطات» أن يتدخل ليفرض عليه سعراً معيناً وبإمكانه فعل ذلك إلا أنني تدخلت وتركت تحديد السعر لأخينا المصور الذي فاز بغلّة اليوم وزيادة.

كان السيد أحمد زيد ـ أحد الموظفين القدامى فيما كان يعرف بـ .. إمارة الحرّث (المحافظة حالياً) ـ في انتظارنا داخل السوق في مكان ما اتفق عليه مع الخوي، توجهنا كل في سيارته نتبع سيارة المحافظة ودخلنا إلى قلب السوق.

إن أول ما يلفت النظر من ثقافة ذلك السوق ظاهرة اشتراك الجنسين في مسألة البيع والشراء، فتجد الذكور بمختلف أعمارهم بدءاً من الأطفال إلى الشباب إلى الرجال. أما النساء المشاركات في عمليات البيع أو الشراء فهن ممن تجاوزن الخمسين أو شارفنها فما فوق بشهادة تجاعيد الوجوه .

وتراوح أنشطة هؤلاء النسوة بين بيع السمن والعسل وبعض المساحيق التزيينية التقليدية، وأخريات يظهرن في أماكن بيع الأواني المنزلية؛ فخارية كانت أو حجرية.



المحناط: مكان بيع المحاصيل الزراعية

أما النساء المشتريات فيكاد يقلّ وجودهن داخل السوق إلا تلك العوائل التي تقدم متنزهة مستكشفة وأكثر ما يكون قدومها من خارج المنطقة.

وهذه الصورة الحالية عن اشتراك العنصر النسائي في السوق ليست الصورة القديمة فقد كانت الأنثى عنصراً بارزاً في السوق بائعة أو مشترية دون حدّ عمْري لوجودها.



للقار موقع خاص في السوق

توقفنا بداية عند العطّارين أو باعة البن والقشر والهيل والزنجبيل والبهارات المختلفة، وهي كلها من المنتجات اليمنية، وهؤلاء الباعة يتوزعون في أرجاء السوق بشكل عشوائي مع أن هناك أماكن اشتهرت لباعة الجملة وأخرى لباعة المفرّق والذين ينتشرون تحت مظلاّت بلاستيكية يشرعون في إقامتها ونصبها مع ساعات الفجر الأولى، ولعل أشهر بضاعة هؤلاء العطارين هي: البن «الخولاني» الذي يتمتع بشهرة واسعة بين أبناء المنطقة خصوصاً، والمناطق المجاورة عموماً، بالإضافة إلى بعض أصناف العطارة والبهارات، كالقرفة التي تباع أكواماً وحُزماً، والكمون وغيرهما. ولكنها تعرض داخل أوانٍ معدنية عتيقة، ولعل مما يلاحظ عند هؤلاء الباعة انعدام أي مظهر من مظاهر الجذب التسويقي، إذ لا يزالون يستخدمون الموازين التقليدية ذات الكفتين. وتستخدم الأوعية التي هي في الأصل لمواد البناء من معاجين ودهانات لغرف الكميات المراد بيعها أو وزنها، والبضاعة مطروحة على الأرض على فرش بلاستيكية وأمام دكاكين خربة صدئة الأبواب وذات أرضية ترابية غير نظيفة ومهملة.

على أن بعض الباعة لا يؤمن بنظرية التخصص فيما يبيع فيكتفي بسلعة واحدة بل تجده يجمع - تحت مظلته أصنافاً مختلفة من البضائع لا يجمع بينها جامع.

الأطفال ونشاط محموم

يلفت نظر الداخل إلى السوق اشتراك الأطفال في عمليات البيع والشراء ونقل البضائع خاصة من أبناء الجالية اليمنية وبعض القرى القريبة من الخوبة، وأكثر ما ينشط فيه الأطفال هو حمل بضاعة الزبائن من مكان شرائها إلى السيارة مقابل ريالات معدودة. وفي الصباح ينشط هؤلاء الأطفال في حمل بضائع الباعة وتنزيلها من السيارات إلى المواقع التي يطرحونها فيها، ويعاود الأطفال النشاط نفسه مع قرب انتهاء موعد السوق حينما يهم الباعة بحمل بضائعهم إذ يقوم الأطفال مرة



أحد مستودعات البضائع

أخرى بنقل هذه البضائع إلى السيارات التي جاءت بها، ويشاركون كذلك في بيع بعض الأكياس البلاستيكية التي يصنعونها بأنفسهم أو في منازلهم من خلال قسمة أكياس الدقيق أو القمح الفارغة قسمين وعمل ممسك من جنس الكيس.

الكثير من الباعة في هذا السوق همّ ملاّك محلات ودكاكين قديمة ترجع إلى السنوات الذهبية من عمر السوق أو يستخدمونها الآن مستودعات لبضائع يخرجونها صبيحة السوق لعرضها إما على الأرض وإما على طاولات خشبية نخرة. لقد مثلت هذه المحلات لأصحابها قديماً مصدر رزق متميزاً وسخياً من خلال عمليات البيع النشيطة والازدحام عندها، بل إن بعض هذه المحلات كانت مقراً لاجتماع بعض التجار وعقد بعض الصفقات إلا أنها الآن تكاد تؤدي دور المستودعات فقط.

ويستغل بعض الباعة يوم الخميس لكونه يوم الإجازة المدرسية ليحضر أحد أبنائه أو جميعهم ويقوم بالإشراف عليهم وتوليتهم أمور البيع والمحاسبة وغيرها.

وينتشر البيع والشراء يوم الخميس في كل أرجاء البلدة إذ تتحول الخوبة بأكملها إلى سوق كبير، فلا توجد ساحات بعينها تكون حركة البيع والشراء محصورة فيها، مع أن بعض الأماكن اختصت ببضاعة معينة فأصبحت علماً عليها.

الكادي والفل

ولعل أشهر البضائع التقليدية التي عرف ويعرف بها سوق الخوبة النباتات العطرية التي كانت تستخدم لزينة النساء من خلال قصها وربطها بشكل مربع على مؤخرة الرأس وتثبت بواسطة بعض المساحيق العطرية أو بربطها بجدائل الشعر وعطفها على تلك النباتات، ولا تزال مثل هذه المظاهر التجميلية القديمة موجودة، ولكن على نطاق ضيق جداً يكاد ينحصر في النساء المتقدمات في العمر. بينما انمحت كل هذه المظاهر تماماً من أوساط

الفتيات خاصة بنات المدن والحواضر، إذ يتعاملن مع هذه النباتات على أنها تراث تجميلي فقط. وإن كان الكثير من مرتادي السوق يحرص على شراء شيء من تلك النباتات للاستمتاع بروائحها العطرية وتزيين الغرف من خلال وضعها داخل المزهريات استعاضة من الورد الذي يكاد ينعدم في المنطقة.

وأشهر هذه النباتات العطرية: الكادي التي تجنى على شكل أقرب ما يكون للذرة، إذ تنزع عنه أغلفته الخضراء الطويلة ذات الأطراف الشوكية حتى يتوصل إلى داخلها ذي اللون الأبيض الذي يحوي لبًا بذريًا هو مصدر

وشكل الكادي أبرز عناصر زينة الرأس النسائية السالفة الذكر فبعد أن تثبت تلك النباتات بشكل مستطيل على مؤخرة الرأس يوضع الكادي بشكل عمودي كواجهة لذلك المربع ويجعل باطنه للرأس وخارجه هو المنظور والمشاهد ويتحكم الكادي في طول المستطيل كله.

ويرافق هذه النباتات الفلّ كواحد من أشهر المنتجات النباتية العطرية في الكثير من أنحاء العالم، ويباع الفلّ في السوق على شكل حبّات متناثرة بالكأس أو الكأسين، والكأس هو إحدى علب الخضراوات أو الزيوت الفارغة



المصنوعات الطينية والأواني الفخارية والحجرية وطرائق خاصة لصناعتها

الرائحة العطرية، ومع أن هذه النبتة تزرع في المنطقة بشكل بيتي، إلا أن زراعتها بكميات تجارية لا تتم إلا في مناطق داخل أراضي الجمهورية اليمنية خاصة في الأقاليم الجبلية، ولعل أكثر الذين تحدثوا إلينا من باعة هذه النباتات، وأكثرهم من الجالية اليمنية، يؤكدون أنهم ورثوا زراعتها وبيعها عن آبائهم.

أو نحوها. ولكل سعر معين، أو يباع على هيئة «عصبة» أو كما تنطق محليًا «عصابة» وهي التي يتم فيها نظم الفلّ في خيط سميك أو سلك رقيق لعصبها حول الرأس أو تعليقها في الصدر، وبخاصة للنساء.

والتزيّن بالفل والتجمل به أمر غير مرتبط بزمن أو عمر محدد، فلا تزال النساء من مختلف الأعمار

والطبقات يضعن الفلّ إما على الرأس وإما على الصدر في مختلف المناسبات التي ينشط فيها بيع الفلّ نشاطاً كبيراً.

وغالباً ما يحمل الفلّ إلى الأسواق بواسطة خزّانات مستطيلة أو مربعة وتفرش أرضيتها بالثلج، ويغطى بقطع من الفوط السميكة أو الأكياس البلاستيكية، ثم يعبأ الفل صوناً له من الحرارة والتلف.

والموقع الذي يباع فيه الفل داخل السوق هو الموقع نفسه الذي تباع فيه النباتات العطرية غالباً مع وجود باعة متفرقين في أماكن أخرى.

قرب الوادي إذ تعينهم الأشجار الثابتة في أطرافه على تعليق ذبائحهم ثم يصعدون بها إلى أماكن البيع، وهم متفرقون في أماكن مختلفة من السوق.. ما إن بدأنا في الاقتراب منهم حتى أوحى البائع لأحد معاونيه ولعله من أبنائه بأن يقوم بتغطية الذبيحة المعلقة بكيس أسود من النايلون ظناً منه أن هؤلاء القادمين قد تكون لهم علاقة بالبلدية أو الصحة أو غيرهما من الأجهزة الوقائية التي تمارس عملها في مثل هذه الأماكن التي ينعدم فيها أي مظهر صحي أو وقائي انعداماً تاماً، ولعل الصور توضح ذلك جلياً بل حتى تقطيع اللحم يتم عن طريق أدوات



الباعة يفترشون الأرض لعرض بضائعهم

لحوم وأسماك

توجهنا إلى اللاحمين (باعة اللحوم) أو الجزّارين الذين يقتصر بيعهم على لحوم «الخراف» أو «التيوس»: ذلك لأنهما الصنفان المطلوبان في المنطقة. ويأخذ الجزّارون هذه الذبائح في الصباح الباكر ويقومون بذبحها وسلخها بعيداً عن موقع السوق وخاصة في مكان

صدئة نصف حادة يتم سنّها على نوع صلب من الأحجار المدببة.

وغير قريب من هذا الموقع يقع مكان بيع السمك أو كما يسمى محلياً «الحوت»، وقد أشار إلينا مرافقنا السيد أحمد زيد بالانتقال إليه، وهو موقع يقع خارج نطاق الاكتظاظ البشري للسوق، إذ خصص له مكان يحوي

مظلّة حديدية واسعة تكاد تخلو تمامًا من أي نشاط تجاري طيلة أيام الأسبوع وتنشط يوم الخميس - يوم السوق المعتاد.

وعلى الرغم من ابتعاد المنطقة التي يقع فيها السوق عن البحر إلا أن باعة السمك يحرصون على الطازج والجديد، فيتوجهون - كما روى أحدهم - قبيل صلاة الفجر إلى بلدة أحد المسارحة حيث تصل الثلاجات المتنقلة التي تحمل السمك من الصيادين وتتجه إلى مختلف أرجاء المنطقة.

وللسمك نوعان في عرف أهل المنطقة: النوع الأول يسمى «أخضر» ولعل الكنعد أو كل ما كثر لحمه وقلّ عظمه، يسمى بالأخضر لليونة لحمه وعدم قدرته على البقاء طويلاً.

الثاني «مالح» وهو أصغر حجمًا من سابقه ولا يباع مقطعًا، وإنما يباع كاملاً، أو كما يسمونه «طير» ويتم تجفيف هذا النوع وحشوه بالملح كأبرز تقنيات حمايته من التلف والتعفن.

ويتم البيع إما على هيئة «الطير» أي السمكة كاملة دون تقطيع، وإما بالكيلو وهو بيع غير مطرد، إذ تجد خمسة من الباعة أو ستة يزنون بميزان واحد.

الحب في المحناط

المحناط: هذا الاسم الموضوع على صيغة «مفعال» يطلق على مكان بيع المحصولات الزراعية الأكثر انتشارًا في المنطقة، وهذا الموقع «المحناط» يكاد يكون موجودًا في كل الأسواق الدورية في المنطقة وبخاصة تلك التي تحتفظ بكل أشكالها التقليدية، إلا أن المحصول الأكثر والأشهر إن لم يكن الأوحد في كل هذه الأسواق هو «الحب» فبعد أن تتم عملية حصاده بقطع القصبة من أسفل تجز عذوقه ويحمل إلى أرض في «المجران» تغرس فيها العذوق وتضرب بـ «مخباط» ذي رأس مستطيل حتى تتناثر حبوبه وتنفصل عن العذق ثم يعبأ الحب في أكياس مختلفة وبأحجام مختلفة إما للتخزين والاستهلاك وإما للبيع.



للمسحقة أشكال وأحجام

والمساحة المخصصة لبيع الحب في سوق الخميس مساحة ثابتة لم تتغير أو يُنقل منها إلى موقع آخر. ويتم البيع بالصاع والصاعين وهي مقادير معلومة لدى بائعي الحب بنوعيه: الأحمر والأبيض، وبأسعار تتفاوت بين أول المحصول «الجادّة» والمحصول الثاني من القصبة نفسها «الخلف»، ومنه ما يباع بالكيس إذ تثمن عبوة كل كيس بثمن معلوم حسب حجمه، بل حسب مواسم الزراعة ومواقيتها.

ومهنة بيع الحب في «المحناط» قلما يتدخل فيها السماسرة أو أولئك الذين يشترون بالجملة، ثم يعيدون



تبرعت هذه السيدة لشرح كيفية استخدام المسحقة

بيعه مجزأ وإنما هي مهنة المزارعين؛ فأغلب الذين ينزلون أكياسهم، ويقفون بجوارها لبيعها هم المزارعون القائمون عليه منذ البذر. وهذا الحب هو الذي يصنع منه «الخمير» المعادل الجازاني للخبز قديماً.. أما الآن فيكاد يتضاءل ظهوره إلا في المناطق الريفية، وبعض المناسبات التي يحرص أصحابها على إقامة ولائم ذات طابع تقليدي.

أشياء من الماضي

ثمة موقع منزوٍ في أطراف السوق وبعيد عن الاكتظاظ وقفت فيه سيارة قديمة تحمل عبوات مختلفة الأحجام ليسيل السواد من فوهاتها، وما إن تنبهنا لوقوفهم وشروعهم في تنزيل بضاعتهم حتى توجهنا إليهم.. إنهم باعة «القار» و«الشوب» ولا أعرف لهما اسماً فصيحاً غير هذا.

والقار هو المادة السوداء الكثيفة التي تطلى بها الإبل حال إصابتها بجرب أو غيره، والقار والشوب يستخرجان بطريقة معينة من جذوع شجر الأثل لا يجيدها إلا «الشوّابون» باستخدام بوكٍ صغيرة مغطاة وتستخدم النار عنصراً أساسياً في استخراج هذه المادة.

ويستخدم الشوب أحياناً غسولاً للرأس المصاب بأي داء من أدواء الفروة أو غيرها.. وقد أكدت لنا امرأة سبعينية تجلس لبيع بعض الصوّان فاعلية هذا السائل وجودته في تنظيف شعر الرأس وإعطائه مظهراً جميلاً خاصة عند النساء، على أنني أجزم أن جيلاً أو جيلين من الفتيات لا يكدن يعرفنه، فكيف باستخدامه، وتلك ميزة يتفرّد بها السوق، إذ يحوي الكثير من الأشياء التي غادرت حياة الناس، وانتهى استخدامهم لها.

ولعل من أكثر ما يجذب المشترين والسياح إلى هذا السوق اشتماله على أصناف كثيرة من المصنوعات الطينية والأواني الفخارية والحجرية التي تميّز الكثير من الأكلات الشعبية في المنطقة.

ومن أشهر هذه المصنوعات: التنانير جمع «تنور» والذي يصنع من الطين، ثم يجفف ويحرق بالنار حتى يشتد ويغدو صلباً يحتمل الجمر والنار. وأشهر المأكولات التي تتكفل هذه التنانير بإنضاجها العيش سواء من الدقيق أو الحب، كذلك يتم فيه «حنذ» اللحم وشيّ بعض الخضراوات، وطريقة التنور أن يثبت وسط حفرة غير عميقة، ويوضع الطين أو الإسمنت على حوافه العلوية، ويشعل فيه الحطب الذي يترك حتى يتحول إلى جمر ثم تلصق العجينة «دقيقاً وحباً» بجوانبه، إلا أن الحياة

الحديثة فرضت تضاؤل استخدام هذا النوع من التنانير واستبدال تنانير ذات جسم حديدي من الخارج وجدار صلصالي من الداخل بها، والمريح في هذا النوع الجديد أنه لا يحتاج إلى غرس في الأرض ويمكن الانتقال به من مكان إلى آخر.

المغش أداة وطعاماً

أما المنحوتات والأواني الحجرية التي تستخدم أواني ومعدّات منزلية فمن أشهرها «المغش» وهو وعاء مستدير ينحت من الحجر وتختلف أحجامه عمقاً واستدارة ويستخدم هذا المنحوت الحجري لصنع واحدة من أشهر المأكولات في المنطقة، وفي الجمهورية اليمنية، وهي أكلة أخذت اسم الإناء فسميت باسمه «المغش» وطريقتها أن يوضع اللحم أو السمك داخل الإناء ويقطع عليه ما يقطع من الخضراوات، مع كميات متفاوتة من البهارات، ثم يوضع داخل التنور أو على النار ويترك حتى ينضج ليقدم بمذاق مختلف تماماً عن ذلك الذي تقدمه الأواني المعدنية أو الحديثة.

والنوع الثاني من هذه المصنوعات الحجرية «المطحنة» أو «الطاحنة» أو «المسحقة» كما تسمى في بعض الأقاليم، وتتكون من قطعتين الأولى: مستطيلة منبسطة الوسط بشكل انسيابي غير متدرج والثانية على شكل قضيبي أنبوبي طولي توضع المادة المراد طحنها سواء أكانت حباً أم كانت سواه على القطعة المستطيلة وتحديداً في منتصفها، ثم تسحق بواسطة القطعة الثانية حتى يصل إلى المستوى المطلوب ليّناً أو مقشراً أو نحوه، وأكثر النساء قد استغنين منذ أمد غير قصير عن مثل هذه الأدوات على أنه يتم الاحتفاظ بها من قبلهن داخل مطابخهن احتفاء بما تمثله من نمط معيشي قديم.

الطبول وأنواعها

في الجهة نفسها وتحديداً في الجزء الشرقي منها صفّت بشكل عشوائي مجموعة كبيرة من الطبول التي قد ينعدم وجودها في كثير من أقطار الدنيا بتلك الهيئة وتلك الخامات الأولية التي تستخدم في صناعتها. فقد لا تتوافر إلا في أجزاء معينة من مناطق الجمهورية اليمنية التي تمثل مورداً للكثير من السلع التي تمتلئ بها الأسواق الدورية في المنطقة.



نساء يبعن الطبول المصنوعة من أديم الضان والماعز

وأبرز ما تتفرد به هذه الطبول أنها تصنع من أديم الضأن والماعز، والبقر بكثرة، وقد كان تجهم البائع الواقف بجوارها، وتحفظه من الحديث معنا حائلاً دون أن نعرف منه طريقة صنعها وأبرز زبائنها. وأغلب الظن أن صنّاع هذه الطبول يقومون بسلخ أديم الحيوانات، ثم نزع الشعر منه وتجفيفه في الشمس حتى تزول ليونته، ومن ثم شدّه على زير صغير حتى يصبح شفافاً وسميكاً ويعرض على النار قبل الضرب عليه ليكون صوته أقوى.

والمشهور في المنطقة من هذه الأدوات ثلاث: الزير: ويوضع على الأرض وينقر بعصاتين ناحلتين قصيرتين، ثم «الزلفة» التي تصاحب الزير في أثناء الاستخدام، و«الزلفة» ذات أصابع خشبية يغرسها «الشارب» في عقدة إذاره المتاخمة لبطنه، وثمة رفّ ثالث يحمل على اليد، ويضرب



الزنابيل واحتفاء بتراثيتها

بشكل متساوق مع ضرب الآلتين السابقتين لتكتمل بذلك جوقة الغناء أو الرقص التي تصاحب دائماً احتفالات المنطقة كالختان والزفاف. وإن كان الاحتفال التقليدي بتلك المناسبات قد بدأ في الاختفاء عدا بعض المناسبات العامة كالأعياد ونحوها.

تراث يتداول

المشغولات اليدوية، كالحصر، والسلاسل، والزنابيل، تحتل أماكن متفرقة من السوق، وهي من الأدوات التي هجرت تقريباً إلا في بعض الأرياف، إلا أن ما ظل منها هو الاحتفاء بتراثيتها.. فقد كانت قديماً تشغل حيزاً مهماً في البيت الجازاني إذ تحفظ فيها الحبوب، ويقدم عليها الطعام، وتنقل بها بعض الحاجات.

قريباً من تلك الساحة وبين حائطي حجرتين يمثلان نصف مربع رتبت امرأة عجوز بضاعة متعددة الأصناف والاستخدامات يجمع بينها جامع واحد أنها أدوات قديمة لا مكان لاستخدامها إلا كقيمة تراثية اقتنائية، رصت هذه العجوز الطاعنة في السن مجموعة من الأقداح الخشبية ذات المقبض التي تنجر من أشجار مختلفة ثم تطلى بمادة قارية سوداء ذات رائحة تلازم القدح طويلاً، بجوار مجموعة من المكابس القشية المنفوشة الرأس والمكومة الطرف والمربوطة بسيرين أحمري اللون، مع مجموعة من الأواني والمشربيات الفخارية الصلبة مع أوانٍ حجرية وطينية أخرى متعددة الاستخدامات، وقد حالت لهجتها الجبلية الصرفة بين أن نحادثها وتحدثنا.

كان لهيب الصيف الجازاني وشمس الخوبة الحارقة كفيلين بمنحنا لحظة من الراحة والبحث عن ظل نسترد به بياض وجوهنا التي تاقت إلى السمرة طويلاً وما إن اقترحت هذا على المصور حتى بدأ يخلع الكاميرا التي علقها في رقبته ويضمها إلى الأخرى التي في يده موجهاً بصره جهة طفل يقود عربة صغيرة ذات عجلة واحدة، وقد فرش باطن العربة بغطاء بلاستيكي أزرق وقطع



مكانس قشية وأوان ومشربيات فخارية

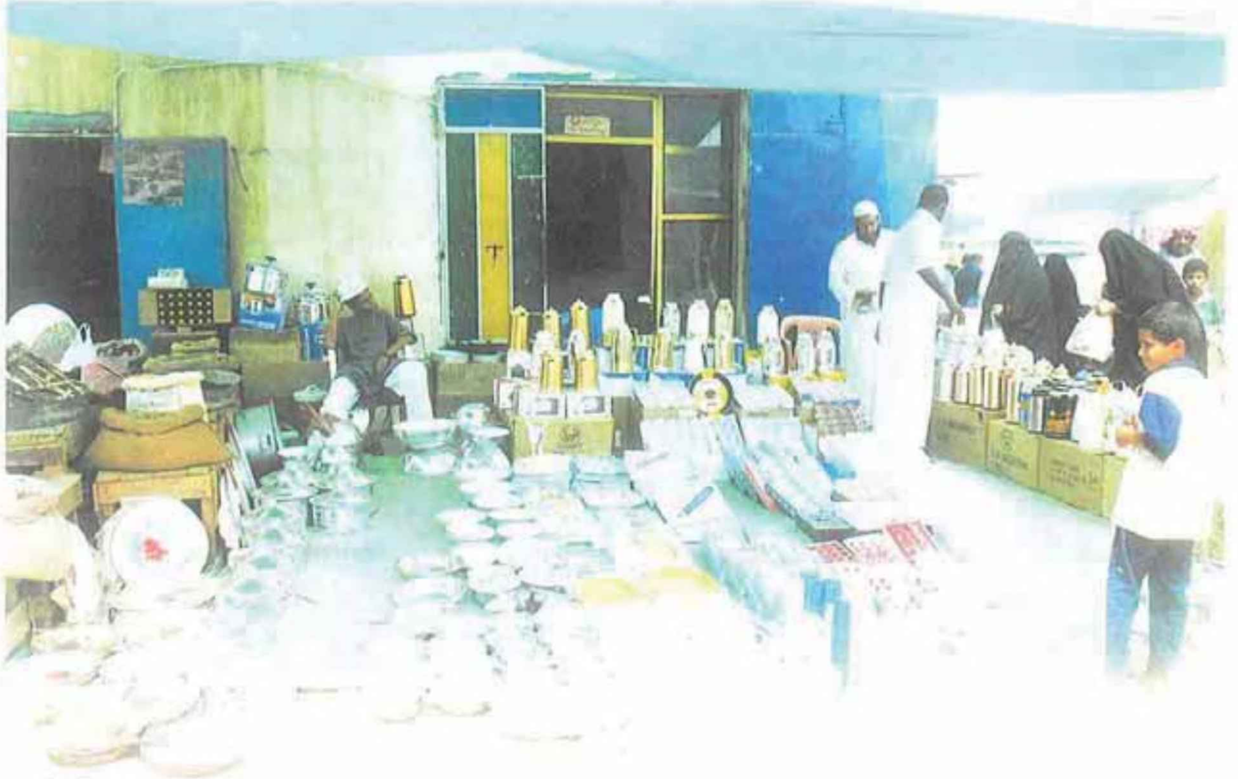
كرتونية بنية اللون، ونثر كسراً من الثلج وضع فوقها مجموعة من قوارير المياه الصحية مع حبّات معدودة من علب المشروبات الغازية، استوقف المصوّر هذا الطفل، وبادرته بالسؤال عن اسمه فردّ عليّ بلهجة يمنية جميلة يسألني: كم حبّة أريد، كانت حبّات العرق التي تتقاطر من جبينه وتتلقاها عربته كفيلة بأن تعتقه من فضول أسئلتي التي لا يرى لها سبباً، ابتعنا منه أربع قوارير من أبرد ما لديه واستظللنا بسقيفة متهالكة تخترق أشعة الشمس أطرافاً كثيرة منها.

عاودنا تجوالنا آخذين الجهة الشرقية من السوق من نقطة بداية الاكتظاظ، وعلى امتداد ممر ترابي ضيق يصعب المشي فيه بحريّة، وعلى طرفيه يقتسم البائعون والبائعات مساحات ضيقة من الأرض يرصون بضائعهم إما على بسط وإما على طاولات خشبية، بل على أي جسم مرتفع عن الأرض كالصناديق والعلب الكبيرة الفارغة.

فواكه رابحة وأخرى كاسدة

في هذه الجهة أصناف مختلفة من الفواكه والخضراوات والبقوليات ومع أن مثل هذه البضاعة لا تختص بمكان أو إقليم دون غيره إلا أن ما يميزها في سوق الخوبة الخميسي اشتمالها على محصولات زرعت بطرائق تقليدية ويدوية، وما يجذب المشتري إلى هذه البضاعة أن الكثير منها لا يتوافر في أماكن أخرى: كالموز الجبلي ذي الحبات القصيرة الخضراء، والليمون الجبلي بحبّاته الصغيرة الخضراء، و«الفركس»، وهو فاكهة من فصيلة الخوخ، وكل هذه المحصولات إنما تأتي بكميات تجارية من أقاليم مختلفة من اليمن.

وباعة الفواكه موزّعون بشكل عشوائي تنتشر بينهم وتحت أرجلهم مخلفات كرتونية وفواكه عفنة من بقايا أيام السوق الماضية. إذ إن السوق لا يعرف أي أنظمة تنظيفية أو حماية بيئية أو غيرها عدا نظافة صورية تقتصر على مدخل البلدة وأمام بوابات بعض المؤسسات الحكومية.



ادوات منزلية متنوعة

أما الفواكه المعروفة والمستوردة من بعض أقاليم المملكة أو الخارج فإن الإقبال عليها يشهد كساداً ملحوظاً خاصة أنها تتوافر بشكل كبير في جميع الأسواق والثلاجات المركزية.

يتوافر في السوق كذلك أشياء حديثة وحداثتها ظاهرة بالنسبة إلى الطابع التراثي الذي يقوم عليه السوق مع أن موازنة هذه الأشياء الحديثة خارج نطاق السوق تجعلها ضمن المألوفة والعادية، بل القديمة أحياناً، ولعل من أشهر هذه البضائع الحديثة/القديمة، الأواني المنزلية، كالصحون بمختلف أحجامها خاصة ذات الطراز القديم، والرسوم والزخارف البدائية، بالإضافة إلى حافظات القهوة والشاي والقدور المعدنية بأحجامها المختلفة وأكواب الشاي والقهوة والماء وحافظات الماء اليدوية. وبعضهم يضيف إلى هذه الأصناف أحجاماً مختلفة من الشنط الحديدية القديمة التي تقفل بنظام أقرب ما يكون للمزلاج المعروف في الأبواب، ثم يركب فيه قفل أو أكثر.

خردوات تحت مبسط واحد

غير بعيد من هؤلاء مجموعة ممن يمكن تسميتهم في العرف التسويقي بباعة الخردوات، وقد كنا معهم منذ أن شرعوا في إنزال بضاعتهم على هيئة صناديق كرتونية وخشبية، وقد رصّت الصناديق بعضها بجوار بعض دون أن تفرّغ مما فيها، فعرض كل بضاعة في صندوقها فجاءت بضاعة متعددة الأصناف والأنواع، ففيها المطارق والسكاكين والألعاب والأحذية والجنابي «الخناجر اليمنية» والفؤوس، وأقلام الرصاص، والسواطير، ومقابض بلاستيكية، وبيوت بلاستيكية لمختلف أحجام البنادق والمسدسات ومشابك للشعر وغيرها من الأصناف المتنوعة، وهذا التنوع في البضاعة يدل على وعي تجاري بسيط، إذ يحاول هذا الرجل أن يجمع كل ما وقع تحت يده حتى لو لم يوجد أي رابط يربط بين أصناف بضاعته، ولعله مغرم بالعبارة الإعلانية الشهيرة: تحت سقف واحد، فحولها حسب جهده وإمكاناته في «مبسط» واحد.

في الجهة الجنوبية الشرقية للسوق إذ يخفّ الزحام وتخفّ الضوضاء قليلاً، رصّت حبّات من الطوب بشكل غير متناسق ولا مرتب لتشكل «حجرة» صغيرة مملوءة بالفجوات أصبحت دكاناً في العرف لا في الواقع مرّت على رأس بابها الأمامي الكبير قطع مربعة كبيرة من البلاستيك الأزرق على هيئة مظلّة وأمام الباب سرير أو اثنان من الحديد المستطيل صفت عليهما ملابس نسائية، وعلقت ملابس أخرى على مدخل هذه الحجرة الدكانية الصغيرة، وكان أشدّ ما لفت انتباهنا أن أعلى قطعة من تلك الملابس النسائية المعروضة لا يتجاوز سعرها ٥٠ ريالاً هذا في المواسم والأعياد.. ولا يزال الباعة يحتفظون بالأسماء القديمة لتلك الملابس والأقمشة، وحينما أردنا أن نقوم بتصوير هذا الموقع من السوق خشينا ذلك وترددنا كثيراً لكثرة العيون التي ترقبنا وترقب كاميرات تصويرنا خاصة أولئك الذين كانوا يصطحبون معهم نساء يتفاوتن في العمر والهيئة، فانتحينا زاوية لم يعد فيها أثر لعباءة سوداء إلا قليلاً.. وهناك تمكنا بسرعة من التقاط صورة واحدة فقط.. إذ ما لبث المكان أن عاود امتلاءه بالمتسوقين الذين يصطحبون معهم نساءهم، وتقوم هؤلاء النسوة بالتسوق عن طريق أزواجهن فهن لا يخاطبن البائع أبداً إلا إذا كنّ متقدمات في السن. أما من كن في سن الشباب فهن يقفن منتحيات عن موقع البيع ويقوم مرافقها الرجل بسحب عينة يطلعها عليها وتهزّ رأسها، بالموافقة أو بالرفض، وهكذا حتى تعثر على ما يوافق رغبتها تاركة الحديث والحساب والنقاش لمرافقها الرجل.

حبال وطفي

كانت جولتنا غير مرتبة كما أردنا لها. فتوقفنا لنسأل مرافقنا السيد أحمد زيد: هل تبقى في السوق شيء لم نشاهده؟ كانت أنفسنا تتوسل أن يقول: لا.. هرباً من تعب جولة جديدة وقيظ يكاد يخترق صبرنا.. لم يفكر طويلاً، فأشار إلينا بأن: «الحبال» و«الطفي» وغيرها لم



خردوات في صناديق كرتونية وخشبية


صورة تم التقاطها لجانب السوق المخصص لبيع الملابس النسائية بعد عناء

نشاهدها بعد.. قالها وهو متجه إليها فسلّمنا له وتبعناه.. وها نحن أولاء في مفارش الحبال والطفي ومشتقاتها. هذه البضاعة التي تثير تساؤلاً، هل ثمة من لا يزال ينتفع بها كثيراً أو يقبل على شرائها بكثافة وماذا يصنع الآن؟ لعل الاستخدام الأوحد لتلك الحبال أنها عنصر أساسي في صناعة «القعد» جمع قعادة: وهي السرير المستطيل - غالباً - بقوائمه الأربع الخشبية، وتتسم هذه «القُعد» بثباتها مادامت جديدة ثم إذا بليت حبالها وتراخت تبدأ بالاهتزاز والروغان عند الجلوس عليها أو جرّها، غير أن استخدامها أسرّة قد بدأ في الاندثار خاصة في المدن والحواضر، ولا يزال منتشراً في القرى والهجر، فهي لا تزال تمثّل أبرز أثاث للبيت.

هذا المكان في السوق تغيره لا يخلو من عشوائية مفرطة إذ لا يمكن أن يخصص أي مكان بسلعة دون غيرها.

كل الباعة وأكثر المشترين الذين يعتمدون على هذا السوق يمتلكهم خوفٌ وترقبٌ للقادم . فلقد أقام معظمهم أسرته وحياته على ما يقسمه الله له من رزق أسبوعي من هذا السوق.

ولقد كانت حالتهم على ما يرام بل إن الكثير من التجار الكبار في المنطقة خرجوا من دكاكين ومفارش صغيرة كانت في هذا السوق.

كان السوق في فتراته الذهبية يبدأ من عصر يوم الأربعاء ويسير إلى مغرب الخميس، أما الآن فبدايته تمتد من زهاء السادسة إلى الثامنة صباحاً، ويبدأ في التراجع بعد الثانية ظهراً.. ولك أن تتخيّل ذلك الفرق الكبير بين ما يحصّله بائع كان يمضي أكثر من ١٨ ساعة في عمليات البيع وما يحصّله الآن وهو لا يمضي أكثر من ثماني ساعات.

لقد حصد السوق شهرةً واسعة جداً.. وكان مغنماً أسبوعياً للرزق لا يكاد يخرج منه مفلس بعد انتهائه - وكما سبق - فإن عدة أسماء من أصحاب المحلات



بضائع من كل لون يتم عرضها بلا أي نظام

الكبرى والتجارة الواسعة بدؤوا حياتهم التجارية من هذا السوق خاصة حين كان يعتمد على بيع المحروقات والمواد البترولية للقادمين من اليمن قبل أزمة الخليج.

تراجع وازدهار

لقد شكّلت أزمة الخليج نقطة الاختناق الأولى في حياة السوق، لتأثيرها في حركات التنقل بين أبناء الحدود.. ولاسيما أن السوق كان يتميز بما يحويه من المنتجات اليمنية، وعلى رأسها الفواكه والخضراوات والأغنام وحبوب القهوة والنباتات العطرية وغيرها الكثير.. كل هذه الأشياء أوشك السوق أن يفقدها، بالإضافة إلى ما فقده من نشاط في بيع البتروليات.

إلا أن وقفة سعودية حكيمة تدخلت فيها إمارة المنطقة وبعض المحافظات سمحت بدخول البضائع من جديد منذ ما يزيد على تسع سنوات، وكانت هذه الخطوة حقنة حياة أعادت إلى سوق الخوبة.. بل إلى أكثر الأسواق الحياة من جديد.

لقد عادت الحياة إلى السوق بعد أن أوشك أن يودّع فترته الذهبية، وأن يدخل رحلة الاندثار، فنشط نشاطاً ملحوظاً بعد أن صدر ذلك القرار الحكيم الذي جمع كل أبناء المنطقة والذي قضى بالسماح للمنتجات والبضائع اليمنية بمعاودة الدخول إلى السوق.. مع أن هذا النشاط لم يشمل بيع المحروقات الذي كان يمثل عصباً مهماً في اقتصاد السوق. إلا أن الكارثة الثانية التي حلّت بالسوق والقاصمة التي أدّت إلى ضعفه وجرّه إلى النهاية ما ابتليت به المنطقة سنة ١٤٢١هـ من داء «حمى الوادي المتصدع» والذي أول ما ظهر في الأغنام في محافظة العارضة وبعض المحافظات من القطاع الجبلي والتي كانت منها محافظة الحرّث التي تضم سوق الخوبة.. وعلى الرغم من بعض الضحايا الذين أوقعهم المرض ومئات الأعداد من الماشية التي نفقت بسببه إلا أنه وفي فترة وجيزة تمّ بفضل الله ثم بجهود الحكومة ممثلة بمؤسساتها المعنية مكافحة المرض، والقضاء عليه.

واتخذ إجراء وقائي في تلك الفترة طبّق بموجبه الحظر التام على بيع الماشية بصفة عامة، في سوق الخوبة، وفي غيره من الأسواق، وبخاصة تلك الواقعة في القطاع الجبلي.

معاناة جديدة

ولقد كان إعلان هذا الحظر - على الرغم من أهميته - بمنزلة إعلان القضاء على المقوّم الأساسي للسوق وذلك كالآتي:

إن نسبة كبيرة جداً من سكان قرى المحافظة البالغة ١٧٩ قرية تصنّف تربيتهم للماشية وزراعتهم بأنهما المقوّم المعيشي الأول، واعتمادهم على المواشي يتم عن طريق قيامهم كل أسبوع باصطحاب رأس أو أكثر من الغنم - غالباً - والبقر - أحياناً - لبيعها في «المجلاب» الساحة التي تجلب إليها المواشي، وبعد أن يبيعها يتجه بثمنها إلى السوق لشراء ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب وملبس.

وقد مثل هذا الحظر ولادة معاناة جديدة تتمثل في عدم توافر القيمة الشرائية لتأمين رغيف الخبز الذي إن وجد بمشقة فسيصعب توفير بقية الضروريات في زمن اكتظت فيه الحياة بالمسؤوليات ومتطلبات الإنفاق التي لا تنتهي.

إن الضرر لا شك في فرض الحظر كإجراء وقائي إنما في استمراره في سوق الخوبة فقط، وإلى يومنا هذا بعد مضي كل هذه الفترة على انتهاء الوباء، ومع أن الحظر قد رفع في بقية الأسواق كأحد المسارحة وصامطة وغيرهما، إلا أنه لايزال قائماً على سوق الخوبة.

حظر بيع الماشية هو الذي جعلنا نشاهد التذمر والتبرم على ملامح كل من نتحدث إليه حول هذه القضية فقد شلّ هذا الحظر قرابة نصف نشاط السوق، وضاعف الحاجة والعوز عند أكثر مرتاديه، ولا تقف المعاناة عند هذا الحد بل زادها سوءاً تدني قيمة مواشيهم في الأسواق الأخرى القريبة من سوق الخوبة، والواقعة في القطاع السهلي بسبب كثرة المواشي المجلوبة إلى تلك الأسواق بطرائق غير مشروعة من قرى الحدود اليمنية، ووضعها في أحواش مجاورة لتلك الأسواق للخروج بها إلى السوق صبيحة كل يوم.



الأطفال ونشاط دائم في أركان السوق

حصار

كان الشيخ علي حسن عطية (٦٨ سنة) من أكثر المتحدثين إلينا ألماً وحنقاً، إذ قبل أن أكمل سؤالي له عن السوق بادرني قائلاً: - حاصرونا.. حاصرونا.

- كيف؟ ومن هم.

- ياولدي.. المسؤولون عن «حمى المصدّع» - يريد حمى الوادي المتصدع - لقد حاصرونا منذ أن منعوا علينا بيع الأغنام بحجة أنها قد تكون حاملة للمرض، فتعطل بذلك السوق، فنحن البائعين أكثر زبائننا هم ممن يبيعون رأساً أو

رأسين ثم يشترون بثمها ما يحتاجون إليه فينفعون أنفسهم وينفعوننا معهم.

الآن السوق في تراجع مستمر والكثير من الأهالي الذين ورثوا عن آبائهم الاعتماد على هذا السوق مصدر دخل وموعدا أسبوعيا للتموين يعيشون عند خط الفقر ومازال الانتظار والأمل في أن يرفع الحظر عن بيع المواشي.

هذا الحديث مع بعض الأهالي هو الذي جعلنا نقرر أن نختم جولتنا بالانتقال إلى سوق بيع المواشي «المجلاب» الذي لا يألف الناس النظر إليه في هذا اليوم، فقد اعتادوا أن يروه مكتظا بالناس والسيارات وبحركة نشطة في بيع المواشي وشرائها.

وصلنا إلى «المجلاب»: هذا المكان الذي لم تكن لتجد فيه موطئ قدم فضلاً عن موقف قريب منه لسيارة أو شاحنة، هذا المكان الذي كان يمثل رئة السوق وقلبه النابض حركة واقتصاداً ها هو ذا خاوٍ كخواء بيوت الكثير من السكان الذين كانوا يعتمدونه مصدراً فاعلاً في رفع مستوى معيشتهم.

لقد مرت أشهرٌ طويلة على إقفال المجلاب وحظر البيع فيه، وبدأت تنمو على أطرافه بعض الأشجار ومع استمرار إقفاله يستمر ذلك الألم والحزن الشديدان بسبب العوز الذي يحاصر عشراتٍ منهم.

لقد حرصنا على التقاط عدة صور لهذا الموقع، ومن جميع جهاته لتظهر مساحاته الخالية الخاوية التي يمثل خلوها أكبر تهديد للسوق ولبقائه واستمراره.

كل الذين التقيناهم ذلك اليوم وبعده من رواد السوق، وممن لا تربطهم علاقة مباشرة به، كلهم يجمعون على أن السوق ضعف ضعفاً ملحوظاً يقولونها بحسرة وألم شديدين ليس بسبب غياب منتج أو اثنين مما يحفل بهما السوق، وإنما بسبب اتجاه السوق إلى النهاية، هذا المكان الذي شكّل مرتكزاً مهماً في حياتهم وذكرياتهم وأحاديثهم وتاريخ آبائهم.. سوق «الخوبة الخميسي».

أشتات من السوق

- لعل من المشاهد التي قد لا تراها في أماكن قليلة في هذا العالم، ومن بينها هذا السوق، منظر الحمير التي ما زالت تستخدم وسيلة للركوب والتنقل وحمل ما خفّ من البضائع، ولعل أغلب مستخدميها من النساء المتقدمات في السن اللواتي يقطنّ قرى قريبة من الخوبة، أو تقع بيوتهن في القرى المتاخمة للشريط الحدودي اليمني.

- البيع في السوق يسير بشكل عشوائي تام وغير منتظم، فالباعة كيفما كانت بضائعهم لا يضمها مكان واحد، أو جهة واحدة.. وأحياناً لا يضمها صنفٌ واحد.. فالبائع القادم ببضاعته في سيارة يُوقف سيارته في أي ركن في السوق ويشرع في إنزال بضاعته ليقضي نهاره واقفاً أمامها.

- الكثير من السيارات المنتشرة في السوق ذوات الحمولة الكبيرة هي سيارات من اليمن خصوصاً أن بضائعهم هي من مميزات السوق، وعلى رأسها حبوب القهوة والنباتات العطرية.

- أكثر الأشياء التي تملؤك امتعاضاً وتأففاً وأنت تتجول في السوق، الانعدام التام لأي مظهر من مظاهر النظافة، فبعض الشوارع والأزقة لا يمكن السير فيها بسبب تكدّس أرتال من النفايات والقمامة، والحديث عن بلدية أو نظافة تقوم بها المؤسسات المعنية في الخوبة أمر «أسطوري» إذ إن البلدة وعلى الرغم من وجود عدد من المؤسسات الأمنية والخدمية فيها لا تزال تفتقر بشكل واضح إلى أي مؤسسة تهتم بالنظافة فضلاً عن المظاهر الحضارية الأخرى، كالتنسيق والتشجير.

- السوق كأنه يعيش خارج نطاق المؤسسات، فلا تزال تنتشر فيه أفواج المتخلفين الذين يدخلون عبر الحدود ويعملون بطرائق غير شرعية.

- يحتاج السوق إلى عناية كبرى في نظافته ونظامه وتنسيقه ومظلاته ومواقعه بشرط ألا تعتدي هذه العناية على بساطته، وألا يفكر في تحويله إلى سوق عصري.

المراجع

١. د. محمد بن عبدالكريم حبيب: الأسواق الدورية في منطقة جازان: الجمعية الجغرافية السعودية، جامعة الملك سعود ـ الرياض: ط١، ١٤١٩هـ ١٩.
٢. المرجع السابق: ٣٢.
٣. العقد المفصّل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب للعلامة الشيخ علي بن عبدالرحمن البهكلي، تحقيق الشيخ محمد بن أحمد العقيلي، دون ط، دون: ت.

معوقات تعريب التعليم الجامعي والحلول المقترحة للتغلب عليها

عبدالله بن إبراهيم محمد المهيدب
الرياض - السعودية

إن تعريب التعليم الجامعي يعني قيام الجامعات والكليات الجامعية والمعاهد العلمية بالتدريس باللغة العربية بدلاً من اللغات الأجنبية، واعتماد اللغة العربية لغة رسمية للتدريس الجامعي والبحث العلمي، وذلك من خلال صياغة المناهج والمقررات الدراسية في إطار علمي باللغة العربية والقيام بالتدريس والتدريب بهذه اللغة.

والمتتبع لتطور التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية يجد أن اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس في معظم الكليات العلمية كالطب والهندسة، ومع أن نظام التعليم العالي ينص صراحة على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للتعليم الجامعي، وأن التدريس بلغة أجنبية هو استثناء.

ويتناول هذا المقال الأسباب الرئيسة التي أدت إلى التدريس باللغة الإنجليزية؛ وذلك من خلال استعراض أهم معوقات تعريب التعليم الجامعي في الوقت الحاضر والتي يمكن تصنيفها إلى قسمين رئيسين: أولهما المعوقات النفسية والتي من أهمها انبهار أبناء اللغة العربية باللغات الأجنبية في مجال العلوم، وكذلك تخوفهم من انقطاع التواصل مع التقدم العلمي في جميع مجالاته عند تعريب العلوم. والقسم الآخر هو المعوقات المادية التي تشمل عدة معوقات منها عدم وجود هيئة متخصصة لتعريب العلوم، وندرة الكتب والمراجع باللغة العربية، واختلاف المصطلحات العلمية وغيرها. كما يطرح هذا المقال عدداً من الحلول المقترحة للتغلب على هذه المعوقات.

أولاً: المعوقات النفسية

يتمثل أهمها فيما يأتي:

المعوق الأول: عدم وجود قرار رسمي من الجهات المختصة لتعريب التعليم الجامعي:

إن لغة التدريس في الكليات العلمية كالطب والهندسة في معظم الدول العربية هي اللغة الإنجليزية وذلك نتيجة عدم اقتناع - أو معارضة - المسؤولين في هذه الكليات تدريس المقررات الجامعية باللغة العربية.

الحل المقترح:

العمل على إقناع هؤلاء المسؤولين بضرورة تعريب التعليم

الجامعي وإبراز أهمية هذا الموضوع ومناقشته وذلك من خلال إقامة الندوات والمحاضرات وعقد المؤتمرات لذلك، وكذا محاولة جعل التعريب قضية إستراتيجية ومهمة علمية. إن صدور قرار بهذا الشأن سيدفع الجامعات إلى التزام استخدام اللغة العربية في تدريس المقررات، ومن ثم فإن فرص العمل ستكون متساوية ومتماثلة لخريجي هذه الجامعات.

كما أن هذا القرار سوف يساعد على وضع استراتيجية ورسم خطط ملائمة لعملية التعريب؛ وذلك خلال فترة زمنية محددة.

متوافرة في كتب المرحلة الثانوية - مع ذكر المصطلحات الإنجليزية وذلك في المراحل الأولى من الدراسة الجامعية. وبعد ذلك يتم الانتقال تدريجياً سنة بعد أخرى إلى المراحل العليا مع الأخذ في الحسبان أهمية تدريس طلاب المرحلة الجامعية مقررات في اللغة الإنجليزية إذ إن تعريب التعليم الجامعي لا يعني إهمال دراسة اللغة الإنجليزية ومعرفتها.

المعوق الثالث: التخوف من انقطاع الصلة بالتقدم العلمي بعد عملية التعريب: يرى معارضو عملية تعريب العلوم أن التعريب قد يكون سبباً في عدم التواصل مع التقدم العلمي في جميع مجالاته؛ وذلك أن اللغة العربية - حسب اعتقادهم - غير قادرة على مواكبة النهضة العلمية في هذا العصر.



الحل المقترح:

إقناع هؤلاء المتخوفين بأن اللغة العربية لغة حية غنية بالمفردات والاشتقاقات مما يمكنها من استيعاب جميع الألفاظ المعربة من لغات أخرى، وأن هذا التخوف ليس له ما يسوغه لأن ترجمة الكتب والأبحاث العلمية ستؤدي إلى التواصل مع المستجدات العلمية. وخير مثال على ذلك الوضع في دولة اليابان إذ تتم ترجمة الأبحاث العلمية إلى اللغة اليابانية بعد فترة وجيزة من صدورها ونشرها وكذا في الصين وألمانيا وغيرهما من الدول التي تدرس العلوم بلغاتها المحلية ولم تنعزل هذه الدول عن التقدم العلمي الذي يجري في العالم خصوصاً أن أسس العلوم الأساسية والرياضيات وقواعدها ثابتة لا تتغير.

المعوق الثاني: الانبهار باللغات الأجنبية في مجال تدريس العلوم:

إن معظم أعضاء هيئة التدريس في الكليات العلمية قد أكملوا دراستهم العليا بغير لغتهم الأم - غالباً باللغة الإنجليزية - ومن ثم فهم يحبذون التدريس بهذه اللغات ولاسيما المتخرجون منهم حديثاً، إذ إن التدريس بهذه اللغات قد يكون أسهل لهم من التدريس باللغة العربية.

الحل المقترح:

أن يبدأ في التدريس باللغة العربية للمواد التي تتوافر لها الكتب والمادة العلمية باللغة العربية مثل مواد العلوم والرياضيات والعلوم الأساسية - معظم المصطلحات العلمية

ثانياً: المعوقات المادية

من أهمها ما يأتي:

المعوق الأول: عدم وجود مركز أو هيئة وطنية متخصصة تهتم بتعريب التعليم الجامعي:

إن المتتبع لواقع تعريب التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية يجد أن هناك جهوداً قد بُذلت ولا تزال تُبذل للنهوض بعملية التعريب. فقد أنشأت كلية الهندسة بجامعة الملك عبد العزيز برنامجاً لتعريب العلوم الهندسية في سنة ١٤٠٠هـ، ولكنه توقف في سنة ١٤٠٨هـ لعدة أسباب لا يتسع المجال لذكرها. كما أنشأت مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية مشروع البنك الآلي السعودي للمصطلحات (باسم)، والذي ما زال مستمراً، ولكن الاستفادة منه ما زالت ضئيلة ومحدودة. كما أن لمركز الترجمة بجامعة الملك سعود جهوداً حثيثة في ترجمة بعض الكتب والمراجع العلمية المهمة.

الحل المقترح:

إن تعريب التعليم الجامعي هدف علمي كبير ليس بمقدور جهة أو جامعة معينة القيام بأعبائه وتحمل مسؤولياته وحدها، بل يتطلب الأمر تجنيد أفضل الطاقات وتوفير جميع الإمكانات لتنفيذه. لذا فإن الحاجة أصبحت ماسة إلى إنشاء مركز وطني متخصص يتولى القيام بهذه المهمة. وسيكون لهذا المركز أثر كبير في النهوض بعملية التعريب إذ سيقوم بوضع الخطط العامة والدقيقة لعملية التعريب، وتحديد الفترات الزمنية والوسائل اللازمة لتنفيذ هذه الخطط وفق الأولويات، والعمل على تأهيل المتخصصين وإعدادهم وتهيئتهم من خلال برامج علمية مدروسة. كما سيقوم بوضع الآلية اللازمة لتسهيل طباعة الكتب والمراجع والمعجمات العلمية المعرّبة ونشرها وتوزيعها، وكذا إقامة الندوات المتعلقة بعملية التعريب بشكل منتظم بهدف تبادل الآراء وتنسيق الجهود بين المتخصصين في هذا المضمار. ولا شك أن إنشاء مركز الملك فهد العالمي للترجمة الذي تم الإعلان عنه مؤخراً سوف يكون له الدور الأكبر في دفع عملية تعريب العلوم إلى الأمام.

المعوق الثاني: ندرة الكتب والمراجع العربية للمقررات الدراسية

يعد توافر الكتب والمراجع العلمية المتخصصة أحد العناصر المهمة التي يعتمد عليها التعليم الجامعي.

فقد أثبتت دراسة قام بها كاتب هذا المقال أن من أهم أسباب عدم رغبة أعضاء هيئة التدريس في كلية الهندسة بجامعة الملك سعود في تدريس العلوم الهندسية باللغة العربية يعود إلى عدم توافر الكتب والمراجع العربية للمقررات الهندسية، وهذا يلاحظ في أن معظم الكتب العلمية العربية الموجودة لا ترقى إلى المستوى المطلوب للمقررات الجامعية، كما أن طباعة معظم هذه الكتب وإخراجها ليسا في المستوى المأمول، إضافة إلى أن هناك اختلافاً في مصطلحات المفردات العلمية بين عدد من هذه الكتب كما سيرد لاحقاً.

الحل المقترح:

إن توفير عدد من الكتب والمراجع باللغة العربية لمعظم المقررات الدراسية يتطلب الأخذ في الحسبان ما يأتي:

من المعوقات المادية للتعريب عدم وجود هيئة متخصصة لتعريب العلوم، وندرة الكتب والمراجع باللغة العربية، واختلاف المصطلحات العلمية وغيرها

- تشجيع الترجمة وتفعيل دورها ووضع الخطط اللازمة للنهوض بها. وتغلب العفوية على حركة الترجمة في الوقت الحاضر إذ يتم اختيار الكتب المترجمة حسب التفضيل الشخصي للمترجم، كما أن الترجمة غير مكتملة فنياً من حيث التزامها بمعايير دقيقة من ناحية اللغة واستخدام المصطلحات العلمية.

- اشتراط أن يكون أحد الأعمال المقدمة من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات وغيرها لغرض الترقية من درجة أستاذ مساعد إلى درجة أستاذ مشارك ترجمة أو تأليف كتاب باللغة العربية من كتب المقررات الدراسية في تخصص المتقدم للترقية.

- اشتراط أن يكون أحد الأعمال المقدمة من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات وغيرها لغرض الترقية من درجة أستاذ مشارك إلى درجة أستاذ تأليف كتاب باللغة العربية من كتب المقررات الدراسية في تخصص المتقدم للترقية.

المعوق الثالث: اختلاف مصطلحات المفردات العلمية:

إن إلقاء نظرة على المصطلحات العلمية الموجودة في معظم الكتب المؤلفة أو المترجمة إلى اللغة العربية يبين أن هناك تبايناً في هذه المصطلحات، إذ يُوجد اختلاف في ترجمة

هذه المصطلحات بين كتاب وآخر. ومن أسباب هذا الاختلاف ما يأتي:

- الاعتماد على الاجتهاد الشخصي في ترجمة المصطلحات وتعريبها.

- عدم إلمام المترجم المتخصص في اللغة العربية بالتخصص الدقيق لموضوع الكتاب المترجم إلماماً تاماً.

- عدم إلمام المترجم المتخصص في موضوع الكتاب المترجم بأساسيات اللغة العربية إلماماً تاماً.

ومن أمثلة اختلاف المصطلحات: نجد أن كلمة gravel وهي أحد أنواع التربة يوجد لها ثلاثة مصطلحات باللغة العربية من ثلاثة مراجع عربية هي: حصباء، وزلط، وحصى.

الحل المقترح:

إن من المهم وجود تعاون مشترك بين المتخصصين في العلوم والمتخصصين في اللغة العربية للقضاء أو التقليل من هذه الاختلافات، كما يجب التنسيق بين مجامع اللغة العربية لوضع أسس عامة ودقيقة لاختيار المصطلحات العلمية. إن توحيد المصطلحات العلمية سوف يؤدي إلى سرعة الفهم ونقل المعلومات، كما سيوفر الوقت والجهد للباحثين، ويزيل الالتباس بين المفهومات المختلفة. ولذا فإن من المقترح أن تتم في المرحلة الأولى من التعريب كتابة المصطلح باللغة العربية ومقابله باللغة الإنجليزية بين قوسين. فيكتب مصطلح gravel كالآتي: حصى gravel مثلاً إلى أن يتم توحيد هذه المصطلحات في وقت لاحق.

المعوق الرابع: عدم وجود الحوافز المعنوية والمادية للعاملين في مجال تعريب العلوم:

لا يوجد دعم مادي ومعنوي يماثل ما يبذله المهتمون بعملية تعريب العلوم سواء أكانوا مترجمين أم مؤلفين للكتب والمراجع العلمية. ولقد كان هذا المعوق من أهم الأسباب الرئيسة في توقف برنامج تعريب العلوم الهندسية في كلية الهندسة بجامعة الملك عبد العزيز. فالمكافأة الممنوحة للأعمال المترجمة لا تعوض ما ينفقه المترجم من وقت وما يبذله من جهد، فعلى سبيل المثال فإن المكافأة المالية المخصصة لترجمة كتاب علمي في جامعة الملك سعود لا تزيد على اثني عشر ألف ريال إذا كان المترجم شخصاً واحداً وترتفع إلى نحو أربعة عشر ألف ريال إذا كان عدد المترجمين اثنين أو أكثر. ولا شك أن هذه المكافأة تُعدّ قليلة جداً إذا ما قوبلت بالجهد المبذول في الترجمة والوقت الذي تستغرقه ترجمة كتاب واحد، والذي لا يقل عن السنة الواحدة، وفي كثير من الأحيان يزيد على ذلك. وقد أخبرني بعض الزملاء ممن قاموا بترجمة بعض الكتب عن طريق مركز الترجمة بجامعة الملك سعود بأنهم لن يكرروا التجربة مرة أخرى.

الحل المقترح:

العمل على توفير الحوافز المادية والمعنوية للعاملين في مجال التعريب؛ وذلك من أجل حثهم على القيام بهذا العمل المهم والذي فيه إثراء للغتنا العربية، وكذلك رفع مكانتها. لقد كان الخليفة المأمون يعطي مترجم الكتاب وزنه (الكتاب) ذهباً مكافأة له على عمله؛ وبذلك ازدهرت العلوم في عهده. لذا فإن على الجامعات زيادة ميزانيات مراكز الترجمة فيها ومن ثم زيادة المكافآت للمترجمين. كما أن تشجيع شركات القطاع الخاص ومؤسساته على تقديم الدعم المادي كالمساهمة في تكاليف طبع الكتب المؤلفة والمترجمة إلى اللغة العربية وتوزيعها سوف يساعد على النهوض بعملية التعريب.

من أهم المعوقات النفسية انبهار أبناء اللغة العربية باللغات الأجنبية في مجال العلوم، وكذلك تخوفهم من انقطاع التواصل مع التقدم العلمي في جميع مجالاته عند تعريب العلوم

خاتمة

إن المطالبة بتعريب التعليم الجامعي لا تعني بالضرورة التطبيق الفوري للتعريب، وإنما يجب وضع خطة زمنية لتطبيقه (مثلاً خمس سنوات أو عشر) بعد التغلب على العقبات والمعوقات التي تعترض عملية التعريب والتي من ضمنها الحلول المقترحة في هذا المقال. وأرجو أن أكون قد وفقت في استعراض أهم المعوقات والحلول المقترحة للتغلب على ما يعترض عملية تعريب التعليم الجامعي من عقبات وأسأل المولى عز وجل أن يمثل هذا المقال خطوة في سبيل جعل اللغة العربية لغة العلوم المستخدمة في جميع الدول العربية في المستقبل القريب.

تطور الشعر الليبي المعاصر في الميزان

مفتاح محمد عبدالجليل محمد
القاهرة - مصر

عند إمعان النظر في شعر الرواد من شعراء الجيل المعاصر في ليبيا يتضح مدى التأثير بالتغيرات الطارئة على الساحة الشعرية المشرقية ومحاولة عدد من الشعراء الموهوبين محاكاة الطرائق الناشئة في مجال التجديد، وبخاصة في المرحلة الأخيرة حين جهر أدونيس «أحمد سعيد» بدعوته الحداثية في المشرق، وأجابه محمد بنيس بدعوة أخرى في المغرب.

وقد تحدد أسلوب التجديد في الشعر الليبي المعاصر بعد انفتاح الثقافة الليبية على الفكر المتحرر، والمدنية الراقية فعني أغلب المهتمين والمتذوقة بمطالعة الآداب العربية والعالمية على السواء، ولم يقتصر اهتمامهم على فئة بعينها أو اتجاه مخصوص بمفرده، كما هو الحال عند المتقدمين من شعراء البلاد الليبية الذين تمسكوا بالاتجاه التقليدي، ورفضوا كل تجديد أو تطور يناهض التقاليد القديمة أو يعدل عنها، ولكن بادرة الانعتاق من قيود القديم وتبعيته انبعثت في كيان الشعر الليبي منذ أمد بعيد. فالشاعر أحمد رفيق المهدوي نادى في بعض أشعاره ومقالاته النقدية بضرورة الخلاص من ضوابط العروض الخليلي وهيمنته، وشروطه المجحفة، غير


علي صدقي عبد القادر

أن نداء المهدوي ودعوته إلى التحرر لم يبلغا الغاية في تلك الحقبة بسبب الظروف الحيوية المانعة من التغيير والتطور، ولذلك بقيت أوضاع الشعر على طبيعتها التقليدية حتى النصف الثاني من القرن العشرين حين نهض الجيل الجديد بمهمة الثورة على القديم الموروث، وبدأ مرحلة أخرى من مراحل التأسيس للشعرية الليبية المعاصرة(١).

أولاً: طبيعة التجديد في الشعر الليبي المعاصر وخصائصه

من قيم الشعر، وميزاته الواضحة تلك الخصوصية الفنية التي تحدد أسلوبه ومنهجه، وتفرض حضوره بين فنون الأدب الأخرى، وشعر

المرحلة المعاصرة في القطر الليبي جعل اختراقه لحدود الضوابط المألوفة أحد ملامحه الرئيسة بعد أن انفرد بسمة التنوع الفنّي والموضوعي، فلم يخضع لنمط نوعي محدد بل عدد أساليبه، وطرائقه، وكثرت ألوانه بعد أن انتفع بما حوله من تيارات واتجاهات، واستجاب لنداءات ودعوات مناهضة لجموده. وتقليديته، بيد أن إنصات الشعراء ثم النقاد في ليبيا للخطاب الشعري المشرقي، وأبعاد المعارف الوافدة هي الرافد القوي الذي جعل شعرية ليبية مغايرة تظهر على الساحة متجاوزة حدود المألوف، إثر محاولتها الجريئة التحرر والانعتاق من التبعية والتمثل لأدوار الآخرين، وأعني بالتحديد بلوغ الشعر الليبي المعاصر مرتبة أخرى تلت مرتبة المحاكاة وتمثل الحركة المشرقية، فشرع المبدعون في التحول عن الأنماط المعروفة، وبدأ بعضهم في تكوين النص الليبي المعاصر المتميز في بنيته الفنية، وموضوعيته، وخصائصه الأدبية، ولكن بعض التقليديين وقفوا عند مؤشر العروض الخليلي، ولم يغادروه، فتمسكوا بنمطية البيت القديم وإيقاعيته الوزنية مكتفين بإشارات يسيرة للتجديد لا يمكن عدّها أو الانتباه إليها، وموت أبرز هؤلاء المقلدين الشاعر الدكتور عبدالمولى البغدادي صاحب ديوان «على جناح نورس»، والشاعر الدكتور خليفة التليسي صاحب ديوان «قدر المواهب»، والشاعر عبدالسلام سنان، ونوري المودي، ومحمد أنديشة، والهرّامة، ومحمد صوفية، وآخرون.

أمّا فيما يختص بطبيعة الشعر الجديد فإن نتاج شعراء الجيل الأخير كشف تجسيدًا فعليًا للتحلل من جميع الحدود والقيود من ناحية، ومن ناحية أخرى أوضح خصوصية الخطاب الشعري الليبي وانفراده بقيم مغايرة في مناحي العاطفة والتصوير، والإيحائية، بل تجاوز إلى أكثر من ذلك في جانب اللغة، ومقومات الفن فاصطبغ بصبغة رمزية جديدة طغت على تراكيبه وإبدالاته الفنية، وجعلته لونًا مخالفًا لألوان الشعر المشرقي المجاور(٢).

نتاج شعراء الجيل الأخير كشف تجسيدًا فعليًا للتحلل من جميع الحدود والقيود من ناحية، ومن ناحية أخرى أوضح خصوصية الخطاب الشعري الليبي، وانفراده بقيم مغايرة في مناحي العاطفة والتصوير



محمد بنيس

وفي هذا الإطار اتسع الشعر الجديد في ليبيا ليشمل جملة من الألوان والمتون النصية المختلفة التي فارقت بينه وبين الأشعار الأخرى، وجعلت له خصائص كثيرة منها:

- تنوع معمارية النص، وإيقاعية المتن:

من أظهر الخصائص التي تميز بها الشعر الليبي المعاصر في مرحلته الأخيرة تغير البناء الشعري من ناحية الشكل والمضمون، وهي خصيصة ملحوظة كشفت عنها ممارسات الشعراء الجدد بحيث جاءت النصوص الجديدة في طابع شكلي مخالف لطبيعة الشعر الليبي المعروف، بينما اتخذ المضمون أنماطًا متنوعة اختلفت عما سواها، ومن ثم ثبت تحرر الشعرية الليبية مما عدّه النقاد جمودًا وتكرارًا للموروث البائد، فهذا الشاعر حسن السوسي يتحدث شعرًا عن محبوبته. فيقول:(٣)

من أعنيها لا تشبهها امرأة أخرى
يضحك في عينيها فرح الدنيا
وعلى شفتيها يندى الورد.. وترتسم البشرى
تلك امرأة أخرى.
تلك امرأة فوق العاده
هي - أحيانًا - ألمح فيها «مي زياده»
وأرى فيها - حينًا آخر - شيئًا من «ولّادة»
لكن.. تبقى نمطًا

تبقى.. وسطا
بين «الحلو» وبين «الساده»
فليست «مي» ولا «ولاّده»

وفي هذه القصيدة ينحو الشاعر منحى آخر في بناء الشعر فيستخدم التفعيلة «فعلن» ويكررها في أسطره الشعرية ملبيا طلب الشعر الحرّ، ومحاولا اعتماد تفعيلة يسيرة لا يعسر استعمالها بل تتجاوب حروفها مع إرادته الفنية، وهو مجيد في صوغه أحيانا، ولكنه في أحيان أخرى يتكلف الجملة فينحرف عن نهجه، ولكنه يظل بين معاصريه أفضل من يحسن التصرف في وجوه الكلام؛ فاختياره لمطلع مثير، وتمييزه بسمة استفهامية مخصوصة جعل لون صياغته جديدا، مختلفا منذ البداية.

أما الشاعر مفتاح العماري في قصيدته التي جعل عنوانها «جنازة باذخة» فكان حداثيا إلى أبعد حدّ لأنه فتح مجال الشعرية لخطاب متطور يختلف عن المألوف ومنها قوله:(٤)

حكاية من هذه السادرة في نهبها
القوافي دوائر ياقوت
وهي الجسد
فكيف أزيح الغبار
وأرفو اليقين شقيق الكذب
وصخبك يحجز الشمس
أيها المتنبي
كأنك الأبد
وما تبقى زبد

من الواضح أن شعرية النص عند العماري تميزها إيقاعية داخلية تتنازع البنية الخاصة التي اختط الشاعر سبيلها بوسائط فنية وصوغ تعبيري التحمت فيه نغمية الكلمة مع شعورية إشارية فتآلفت منهما سطوره، وظهرت بصماته بإحكام، ومن ثم كانت موسيقية النص وليدة الجمل المنتقاة والأحاسيس المشحونة في الكلمات ذات الحمولة المعنوية والنغمية والشعورية المميزة.

وقد تحرك العماري في ساحة شعرية جديدة امتنع فيها ضبط الحدود، ولذلك خلق لصياغته حيوية منظورة، فأسقط من حسابه قيد التفعيلة، بينما جعل

إنصات الشعراء ثم النقاد في ليبيا للخطاب الشعري المشرقي، وأبعاد المعارف الوافدة هي الرافد القوي الذي جعل شعرية ليبية مغايرة تظهر على الساحة متجاوزة حدود المألوف


محمد الفيتوري

نهاية المقطع الشعري الأول وكأنه قافية حين قال:(٥)

كأنك الأبد
وما تبقى زبد

وهذا النمط من التأليف الشكلي المصطبغ بصبغة الانعتاق من كل قيد يشترط للخطاب والنص في آن واحد ضرورة التوافق المطلق مع شعور الذات المبدعة حتى تتكون موسيقية المتن وتتآلف المكونات البنائية للنص لإبداع شعرية جديدة.

وقد استطاع أغلب الرواد الجدد الوصول إلى مرحلة التحرر من قيود الماضي الخليلي وعروضه وأوزانه، واخترقوا المسافة الحمراء التي ضبطها التقليديون بفواصل معينة، وكان على رأس هؤلاء المتحررين: علي صدقي عبدالقادر، ومفتاح العماري، وعائشة المغربي، وإدريس بن الطيب وبطاو، ومن حذا حذوهم من المغامرين الجدد في مجال الشعر المعاصر(٦).

ـ استلهام التجارب القومية والعالمية:

تأثر جيل الرواد الجدد بما حوله من تغيير ملحوظ، فنداء الحداثة المشرقية كان له صداه الفاعل في ميدان الشعر الليبي المعاصر خصوصا أن محمد بنيس تجاوب معه في المغرب الأقصى بقدر أكبر من

المتوقع حتى إنه دعا بصراحة إلى هدم السائد وبناء الجديد المقطوع عنه، وفي بيان الكتابة مجاهرة ملحوظة بالابتعاد عن المطروح من شعر جديد على الساحة المغربية.

أمّا بيانات الحداثة المشرقية والمغربية في الشعر الليبي فذاك أمرٌ مصرحٌ به في النصوص المنتجة، وحسب آراء النقاد الليبيين المعاصرين. فإن الشعر الليبي شرع في إثراء مجاله بتحييد جميع الأنماط البائدة والصور المستهلكة، وبدأ سعيه الحثيث باتجاه التجديد لتحقيق حضوره العصري المنشود(٧).

علي أن شحن الشعرية الليبية بقيم العصر مهّد السبيل نحو بلوغ غاية الحداثيين الذين شرعوا في نمذجة ممارساتهم الجديدة على حساب المطروح غير أنهم نجحوا إلى حد كبير في استلهام ما سبقهم من تكوين وابتداع في عالم الخطاب الشعري والتجربة الشعرية أيضاً.

ومن أمثل الشعراء الذين شرعوا في وضع أقدامهم على الطريق الشاعر محيي الدين المحجوب، ومن بين قصائده التي تبدت جوانبها «ما باله يئن» وهي من قصائد ديوانه الثالث «الواثقة بعصافيرها» - وفيها يقول:(٨).

ما باله
من وطأة
يئن التراب
طيوري تحلق عاليًا
تأمنكم
على التراب
هنا أم هناك
ذرات
وتحتها ثرى

وفي هذا المقطع أبدى الشاعر احتفالاً كبيرًا بحمولة الكلمات من ناحية المعنى والنغم والتآلف الحرفي، واستقر خطابه الشعري إلى تكثيف المسافات البينية منتفعًا بقدرته اللغوية الفائقة وذوقه الرائع متأثرًا في بعض جمله بصديقه أمل دنقل الذي طبع شاعريته بطابع التآخي المنمط في كثير من الأشعار التي أنتجها في الفترة الأخيرة.

أما الشاعر جيلاني طريبشان فقد ميز شعرية نصوصه بميزة التجاوز الدائم لأقاليم النصية الليبية، فظهرت أغلب أشعاره فريدة الطابع والتركيب بحيث خلق للشعر مناخه المخصوص، واستوحى من باطن لغته صياغة محبوكة مكنته من تأليف الإيقاع المنضبط بجمل متقايسة لا يشذ فيها التناسب الفني بين الحروف وتقاسيم السطر الشعري، ومن ذلك قوله في قصيدة إحباط:(٩)

تخرج من دائرة النسيان
تجلس في صحبة من تهوى
تنصت فلا تقوى على الكلام
تنصت مشدوداً لعواء
تسألك المحبوبة:
لماذا كل هذا الصمت
... ونحن في بداية الطريق.

أما الشاعرة فوزية شلابي فإنها تمثلت في شعرها ملامح الثقافة المعاصرة، واستلهمت قيم البنيوية الجديدة فامتلأ المتن الشعري في أغلب أشعارها بقبسات متباينة من الفكر العالمي وإشارات مزدوجة من الحداثة والانطلاق باتجاه المدى الآخر في الشعر العربي المتطور، وها هي ذي تخترق الواقع فتقول:(١٠)

على عجل كان
ومستعصيًا
تسلل خلف المرايا المكسورة
وسأل عن الصغار
وازدهار السكر في شرفة القصب
لم يخجل
لم يخضع لحسابات
وكان صافيًا كجداول القرى
ومن حيث جاؤوا بالموعد الجديد

وهي في هذا المقطع تحاول إبداع المتن الجديد باستعمال الوسائط المكنة من إيقاعية الكلمات

المتآلفة مع حمولة الشعور والمتورطة في نغمية متقايسة من نمط مختلف عن غيرها لأنها نتاج ملحوظ للغة مخصوصة وثقافة معاصرة. أما علي الفزاني، وإدريس بن الطيب، وعمر الحاجي، ومحيي الدين المحجوب فهؤلاء جميعاً انتفعوا بقيم مشرقية، غير أنهم تباينوا في أساليب الانتفاع والاستلهام ثم انصرفوا عن ذلك الأمر بعد أن تشبعت ملكاتهم وصارت الذاكرة عند كل واحد منهم تتسع للإبداع والثراء.

- استقلالية الطابع، ووحدانية التجربة الشعرية:

من خصائص الشعراء الجدد الاستقلالية التامة، والانفراد المطلق في المجال، وعدم الاتكاء إلى تجارب الآخرين أو الإبحار في عوالمهم، ومحاولة كسب الهوية الخاصة بتوظيف المقدرة اللغوية والذخيرة الثقافية، والوعي الأدبي دون التقيد بشروط سابقة وهو ما نلحظه بوضوح في شعر الشاعر الدكتور محمد مصطفى بلحاج، ومن ذلك قوله:(١١)

منذ زمان قد تنبأت حذام
بكل ما تفعله في أرضنا الأفاعي
لكنكم اخترتم الإصرار، والتجاهل
والارتماء بين أحضان اللئام
وكررت تحذيرها حذام

وفي هذا المقطع أبدى الشاعر اهتماماً ملحوظاً بتراث أجداده مستلهماً أسراره وخباياه، وفي جانب آخر انتفع بتفعيلة واحدة هي «فاعلاتن» فقررها في القصيدة واسطة نغمية فبلور إيقاعه من خلال تناغمها، وتآلف عباراته معها، وزاد عليها حسن اختياره للألفاظ الموحية الجزلة التي ملأت مساحته النصية، وفضاءه الشعري.

وقد استقل الشاعر محمد بلحاج بنمطه الجديد فانضم إلى طائفة من المعاصرين الذين اختاروا التميز والاستقلالية في أشعارهم ومنهم محمد الفيتوري، وعلي الفزاني، ومحيي الدين المحجوب، والقمودي، والطويبي، والعماري، وغيرهم من شعراء الطليعة الجدد الذين شقوا السبيل المعاصر بعد أن خبروا الشعرية ومارسوها عبر مراحل سابقة باقتدار.

ثانياً - تقنيات الشعرية الليبية، واتجاهاتها الطارئة

استطاع الشعراء الرواد تجاوز المراحل السابقة، وحرصوا جميعاً على تمثل الأساليب والوسائط الجديدة الفاعلة بعد أن نبغوا في الشعر ودرسوه فترة طويلة، وكان استعدادهم لخوض المرحلة المعاصرة استعداداً متميزاً، ومسكوناً بهموم الحداثة والتغيير، بيد أنهم أمعنوا النظر في التقلبات الطارئة على الساحة العربية والعالمية، ومن ثم بلغ نتاجهم الشعري مرتبة أخرى من الإبداع والرؤية النوعية الفائقة(١٢) ويمكن أن ننظر إلى منجز الشعرية الليبية الجديدة من خلال العوامل والمقومات الآتية:


خليفة التليسي

- إتساع المساحة الإبداعية، وتحول أغلب الشعراء عن التقاليد القديمة إلى ألوان المتن الجديد بتأثير الحركة الناشئة بينهم بعد تبحر الثقافات، وانتشار المعارف والفنون على المستويات المختلفة، وهناك أنماط متعددة تؤكد مدى نجاح الكثير من الشعراء المعاصرين في التحرك باتجاه الألوان المبتكرة، وأولهم شاعر الشباب علي صدقي عبدالقادر الذي استهل بداياته بالقصيدة العمودية ثم انتقل إلى قصيدة الشعر الحر «شعر التفعيلة» ثم شرع في الخلاص من القيود كافة حتى بلغ مرحلة قصيدة النثر وصار من الحداثيين المبدعين على مستوى الشعر العربي المعاصر، وهذه الرحلة المتوترة داخل مسارب الشعرية الليبية شجعت غيره من الشعراء على اختراق المساحة الإبداعية المعاصرة بعد التحول التدريجي عن القديم سعياً وراء التجديد والمغايرة(١٣).

- الانفتاح على التجارب كافة، ومحاولة التجديد في الخطاب والمتن بتقنية نوعية فارقة دون النظر إلى السائد والبائد على السواء:

من أوضح الظواهر الملحوظة على قصائد الشعراء المعاصرين ظاهرة الاقتدار الفكري الثقافي فانطلاق الجملة، وحمولتها المعنوية ينتهيان غالباً إلى إيحاءات عصرية تتجاوب مع واقع التطور الحضاري، وتنبئ عن فهم كافٍ لمجريات الحياة الإنسانية وظروفها المختلفة، أمّا الخطاب الشعري فثمة تواصل صريح بينه وبين حيوية النص، وانجذابه نحو دلالية الشعر المعاصر، وبنياته الطارئة يثبت تلك الميزة الفاعلة في جدته وتآلفه مع لوحة التعبير والصياغة الفنية.

وعند إمعان النظر في آثار الرواد من الجيل الجديد أو ما يمكن أن نطلق عليه جيل الرواد، ومنهم مفتاح العماري، وعاشور الطويبي، وعبدالمنعم محجوب، وحواء القمودي، وعائشة المغربي، وغيرهم يتضح أن التزود من ثقافة العصر، وما يجوس في الساحة من تيارات أدبية وفكرية أضحى واقعاً ملموساً في تجارب الشعراء المذكورين ومن حذا حذوهم، بيد أن تنوع الطرائق والألوان في المجال الشعري كشف إلى حد كبير سموّ الإبداع، وتواصله مع التجارب الشعرية كافة في الشرق والغرب على حد سواء(١٤).

- تعدد الأشكال وتلون النص الجديد بألوان الحداثة والتغيير والتوافق مع أوضاع البيئة والعصر بينما اتضحت فروق البنى الإيقاعية فيما بين الشعراء والموهوبين، وأدى ذلك إلى زيادة الفضاء الشعري من ناحية التشكيل الفنّي والتعدد النوعي، وكثرة الأعمال المنتجة في الفترة الأخيرة مما يبرهن على وجود حركة إبداعية نشيطة تتحرك في فلك الممارسة العصرية ذات الطابع المتطور الذي ينحى منحى التعايش مع حضرية القوالب وسعة حوضها لإسهام النخبة من رواد الجيل المعاصر بعد اختراقهم حدود الإبداع ومساحاته المألوفة.

وفي تجربة الشاعر محيي الدين المحجوب تجاوب فعلي مع سمة الانفراد، ونوعية الشكل بينما يتميز عبدالحميد بطّاو بلونه الإيحائي المتوتر وسط الساحة، أمّا لطفي عبداللطيف فإيقاعيته المترتبة عن فعالية ألفاظه توحي بانتحاء جاد لخطاب شعري يتسامى في طريقته وأسلوبه عن الآخرين، وكذلك الحال بالنسبة إلى شعراء موهوبين بدؤوا مسيرة التجديد والمواكبة أمثال: عبدالفتاح البشتي، والطاهر جبودة، والسنوسي حبيب، وسميرة البوزيدي، والشلطامي، وعبدالسلام العجيلي، وغيرهم من جيل الشبّان الذين دخلوا الساحة الشعرية في هذا العصر. فخطوا خطوات واضحة نحو تغيير الخطاب الشعري الليبي وتوجيهه نحو الإبداع والمعاصرة بفاعلية ملحوظة، وبرهنوا على اجتهادهم في تحقيق الهدف بمشاركاتهم النوعية في مجال الشعر الجديد على المستوى المحلي والقومي فكانوا طليعة المرحلة العصرية في الشعر الليبي.

الهوامش والمراجع

١. ينظر - رحلة الكلمات. د. خليفة محمد التليسي، منشورات وزارة الأعلام والثقافة، طرابلس - ليبيا، ط ١، ١٩٧٤م، ص ٣٧ - ٤٦.
٢. ينظر - «الكلمة أطول عمراً» د. زياد علي، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس - ليبيا، ط١، ١٩٨٧م، ص٨٩ - ١٠٢.
٣. ديوان تقاسيم على أوتار مغربية للشاعر حسن السوسي، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس - ليبيا، ط١، ١٩٨٩م، ص٢٠٣.
٤. ينظر - مجلة الفصول الأربعة الأدبية، العدد٩٨/السنة الرابعة والعشرون، يناير٢٠٠٢م، قصيدة جنازة باذخة، الشاعر مفتاح العماري، ص١٣٦.
٥. المصدر نفسه، ص١٣٦.
٦. ينظر - فعل القراءة والتأويل، مفتاح العماري، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس/ليبيا، ط١، ١٩٩٦م، ص١٧ - ١٩.
٧. ينظر - مجلد الفصول الأربعة الأدبية، عدد ٨٧، السنة الحادية والعشرون، أبريل ١٩٩٩م، ص٢١.
٨. ينظر - ديوان الواثقة بعصافيرها للشاعر محيي الدين محجوب، منشورات المكتبة العالمية، طرابلس - ليبيا، ط١، ١٩٩٧م، ص٣٥.
٩. ينظر - ديوان ابتهال إلى سيدة للشاعر جيلاني محمد طريبشان، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٣.
١٠. ينظر - ديوان بالبنفسج أنت متهم، فوزية شلابي، منشورات الدار الجماهيرية، طرابلس - ليبيا، ط١، ١٩٨٥م، ص٢١.
١١. تنظر - مجلة الفصول الأربعة الأدبية، عدد ٩٧ - السنة الثالثة والعشرون، أكتوبر٢٠٠١م، قصيدة حذام وعنقاء السلام، للدكتور محمد مصطفى بلحاج، ص١٧٥.
١٢. ينظر - فعل القراءة والتأويل، مفتاح العماري، ص٣٥ - ٣٧، مصدر سابق.
١٣. ينظر - المصدر نفسه، من ص ٤١ - ٤٩.
١٤. ينظر - قصائد وتجارب، الطاهر بن عريفة، منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع،، ط١، ١٩٩١م، ص٩.

الهلال والعَلَم الثلاثي الألوان

ترجمة: صلاح يحياوي
ماديسون - أمريكا



قبل يومين من يوم الباستيل في عام ١٩٩٨م عندما فاز الفريق الوطني الفرنسي بكأس العالم مجبراً البرازيل - بالنتيجة ثلاثة إلى صفر - على التخلي عن موقعها المعتاد سار مليون من الناس في موكب احتفالي مرتجل في الـ «شانزليزيه Champs Elysees في باريس».

وجرى على كل لسان خلال أيام أنها المظاهرة الأكثر أهمية منذ تحرير باريس من الألمان عام ١٩٤٤م.. كانت احتفالا بالمجتمع الفرنسي، وبدور الهجرة في ذلك المجتمع أكثر مما كانت بالرياضة الفرنسية. تدفق الناس في الشوارع من جميع أركان العاصمة والقطر حتى غدا واضحاً أي مجتمع متعدد الأعراق هذا الذي غدت فرنسا تضمه. إن نحو ١٣٪ من السكان هم من المهاجرين، علماً بأن النسبة المئوية للمهاجرين في باريس هي أعلى من ذلك بكثير. كان

ترجمة: صلاح يحياوي

عشرات الآلاف من السود، وعشرات الآلاف من الآسيويين، ومئات الآلاف من العرب في الشوارع إلى جانب البيض الأصليين الذين يطلقون على أنفسهم اسم «فرنسيو الأصل» Francais De Souche. كانوا يحتفلون على نحو خاص باللاعب المتألق زين الدين زيدان المولود في مرسيليا من أبوين جزائريين، والذي كان قد سجّل هدفين في انتصار فرنسا.

قصة نصر

كان زيدان قد أوقف عن اللعب فيما سبق مدة ثلاثة أسابيع بسبب إحدى الضربات الأكثر قذارة في ذاكرة كأس العالم. غير أنه الآن برهان حي على أن فرنسا كانت عظيمة لأنها كانت مُرحّبة. وقد كتب روائي فرنسي في الأشهر الثلاثة التالية: «زيدان: قصة نصر». وكافأ الرئيس الفرنسي جاك شيراك زيدان وزملاءه في الفريق بوسام جوقة الشرف. كما تفاخر أحد الفرنسيين بعد ذلك قائلاً: «ألمانيا ملأى بالأتراك ـ ولا يوجد تركي واحد في فريق كرة القدم الألمانية». لاحظ الناس موقفًا مختلفًا من المهاجرين عمومًا والعرب خاصة، وأطلقوا على ذلك اسم «فعل زيدان». شابَه في ذلك الأسلوب الذي غدا فيه بعض أنصار كولين باول Colin Pawell(١) لخوض رئاسة عام ١٩٩٦م يشعرون به بشأن العرق أو السلالة ـ متبديًا لهم فجأة كحل لأمر كانوا قد فكروا فيه مسبقًا كعلاج ـ مُتَحدِّين المشكلة، وشاعرين بالارتياح نحو أنفسهم نتيجة لذلك.

لم يكن هناك وجود مسلم على هذا النحو

يرغب أغلب المسلمين في فرنسا في إرسال أولادهم إلى مدارس دينية ـ غير أن حق الاختيار هذا هو الآن للكاثوليك والبروتستانت واليهود، ولكنه ليس للمسلمين



جاك شيراك



كولين باول

المهاجرين العرب(٢) والبيض الذين يشككون في قابلية استيعابهم على نحو منذر بالخطر. وفي عام ١٩٩٠م شهدت ضاحية ليون Lyon فول كسان فلن Vaulx en Velin أيام سلب ونهب وإضرام نيران. وعلى الرغم من عفوية ذلك إلا أنها فُهِمَتْ كاعتراض على تهميش الشباب العرب أكثر من فهمها كاهتياج. انفجر العنف عام ١٩٩٩م في مدن فرنسا الصغيرة ـ على نحو أكثر مشهدية في فوفر Vauvert القرية الواقعة بين مونبليه Mont pellier ونيم Nimes حيث قامت عصابات الشبيبة Bandes des jeunes (الجفر(٣) الصحفي الفرنسي للشبان من غير البيض) بتخريب الممتلكات في مركز القرية خلال عدة أيام. لقد شهدت استاسبورغ Stasbourg تطور تقليد عشية السنة الجديدة يشبه تطور ليلة شيطان الهالاوين Halloween Devil's Night في ديترويت Detroit، فقد أضرمت فيها نيران، وخُربت أبنية، وفي عشية السنة الجديدة أحرقت عشرات السيارات.

وتعاني مدن صغيرة أخرى فورات متقطعة من تخريب متعمد يطلق عليه مرتكبوه اسم مصارعات ثيران Rudeos. وعلى سبيل المثال تُعد نانسي Nancy ورين Rennes التي يخفرها عسس الليل ضربًا فرنسيًا يشبه ملائكة نيويورك الحارسة New York's Quardian Angels. وتظهر من حين إلى آخر مشكلة فرنسا العنصرية على غرار الوضع في أمريكا في الستينات من القرن الماضي.

تمييز طبقي لا عرقي

الجوهري جدًا في أي قطر أوربي غربي منذ إسبانيا القرن الخامس عشر. وقد بدت الهجرة من الأقطار الإسلامية خلال سنين مُخلة بالاستقرار عندما ازداد التوتر بين أولاد

غير أن الموازنة كانت مضللة، إنها على نحو عام مشكلة أصغر من المشكلة العنصرية الأمريكية، ذلك أن الشباب العرب أقل تباينًا على نحو ظاهر. إن التمييز ضدهم ينحو


مسجد باريس

إلى أن يكون وفقاً للطبقة أكثر منه وفقاً للعنصر أو العرق.. وعندما يُستوعبون في مجتمع (أو يصبحون على حُظوة وافرة من مال) فهُم فرنسيون وكفى. ولكن المشكلة من ناحية واحدة هي مشكلة أكثر جدية؛ لأنها تشتمل على اختلافات دين. يتمثل الإسلام في دولة إسلامية لحفظ حقوقه. وفي غضون ذلك لدى فرنسا أحد أكثر ضروب الفصل القانونية الصارمة بين الكنيسة والدولة في العالم. وهذا ينشئ نزاعاً دائماً بين دولة تعتمد على حقوق الإنسان، ودين يفسر على نحو تام بالإيمان بأن جميع مصادر القوة السياسية الشرعية تنبع من القرآن.

لقد جلب جزارو الحلال الممتازون الذين يذبحون وفق الطريقة الإسلامية لحماً من الفئة الأولى إلى أكثر الأحياء فقراً. لقد كان للثقافة الفرنسية حظ غير مرتقب. كما أن هناك أموراً أخرى - من أمثال طقوس الختان النسوي التي يمارسها بعض المهاجرين المسلمين الإفريقيين المؤذية جداً للحساسيات الفرنسية، مما جعلها محرومة من حماية القانون، ولا يزال آخرون يمارسونها ويُتغاضى عنهم. إنهم يورطون القطر في متاعب أو مشكلات. كما بدا سؤال طُرح على بساط البحث سنة بعد أخرى منذ أواخر الثمانينيات من القرن الماضي وهو: هل يتوجب على الفتيات المسلمات لبس الوشاح التقليدي في المدرسة. وقد يبدو ذلك غير منطقي ألبتة ما لم يعدّ المرء دور المدارس الفرنسية كـ «مصانع مواطنية»، وليس مواطنية فقط، بل فرنَسة أيضاً. لقد أقام رئيس الوزراء الفرنسي ليونل جوسبان Leonel Jospin شهرته بادئ الأمر كوزير للتربية على تحليل الذات(٤) المصحوب بالكرب حول سؤال وشاح الرأس. غير أن موجة الهجرة الأخيرة تُهدد بتغيير ما تعنيه كلمة فرنَسة.

الدين الثاني

لقد ترك الإسلامُ البروتستانت واليهود بعيداً في الخلف، وهو الآن دين فرنسا الثاني. ففي فرنسا (القطر ذو التقليد العريق في تساوي المواطنين أمام الدولة، يحمل أمثال هذه التمييزات - رسميًا على الأقل - العديمة المعنى) لا تُحفظ إحصاءات وطنية رسمية عن الدين والعنصر. غير أن أجود تقديرات وزارة الداخلية تدل على أن عدد سكان فرنسا المسلمين يبلغ أربعة ملايين، مليونان منهم هم مواطنون فرنسيون. وقد قدر المؤرخ آلان بزانسون Alain Be sancon نتيجةً لضآلة معدلات أولئك الذين يؤمّون الكنيسة في فرنسا (أقل من ٥٪) أن لدى فرنسا الآن من المسلمين عدد أكبر من عدد الكاثوليك الممارسين. وقد وجدت صحيفة لوموند Le Monde عام ١٩٩٤م أن ٢٧٪ من المسلمين كانوا مؤمنين وممارسين، وهذا يعني أن الإسلام قد يغدو في يوم ما الدين السائد في فرنسا إذا ما قيس بعدد من يمارسونه. غير أن وزن الإسلام في فرنسا هو تمامًا أكبر من ذلك، خصوصاً في الجيل القادم. فلأمر ما يحتشد المهاجرون وأعقابهم في عدد قليل من مدن ومناطق مهمة (باريس، ومرسيليا، ورون - ألب Rhone - Alpes، وليل - روبيه - توركوان (Lille - Roubais - Tourcoing)، ولأمر آخر، ومع أن سكان فرنسا غير المسلمين قد تكاثروا بالمعدل الأوربي الغربي تقريباً البالغ ٣ر١ ولادة فإن المهاجرين من الأقطار الإسلامية قد تكاثروا بنسبة تراوح بين ٣ و ٤ ولادات في بعض الوقت.

لقد كان معدل الولادة بين النساء الجزائريات ٤ر٤٪ عام ١٩٨٠م، و٥ر٣٪ عام ١٩٩٠م، وكان بين المغربيات ٨ر٥٪، و ٥ر٣٪ في هذه السنين، وبين التونسيات ١ر٥٪، و ٢ر٤٪. تُظهر هذه الأعداد انخفاضاً في نسبة المواليد نَحْوَ المعدل الوسطي الوطني، ولكنه انخفاض بطيء. وفي الوقت نفسه فإن التفاوت في معدلات الولادة واحتشاد السكان المسلمين في بعض الحواضر الفرنسية يعنيان أن ثلث الجيل الجديد من المواطنين - أولئك الذين ولدوا من السبعينيات إلى التسعينيات من القرن الماضي - هو ثلثٌ مسلم.

تبدو فرنسا الآن في بعض أماكنها كقطر مسلم. وأحد هذه الأماكن هو لابريكاد Labricade المجموعة من أبراج شقق شبه حكومية لأصحاب الدخل المحدود في بواكير السبعينيات من القرن الماضي، والتي تقع في أقصى الطرف الشمالي لمرسيليا. وهذا هو جزء من مُجمّع Bricade - Castellane - Pland'atoo حيث يعيش ٨٣٠٠ من أفقر الناس في فرنسا، وحيث ترعرع زين الدين زيدان.

إن ربع عدد سكان مرسيليا البالغ ٨٠٠٠٠٠ هم من المسلمين. إن لابريكاد مزيج من وافدي شمال إفريقية، ومن بؤساء المستعمرات الفرنسية السابقة. وأوراق اليانصيب هي السلعة الأكثر شعبية في متجر المتنوعات الضرورية والتافهة الذي يزود المُجمّع، وحديثًا، في يوم خريفي، في حرارة الفناء المركزي اللاذعة كانت فتاة مراهقة ترتدي كنزة سوداء ضيقة مع صديقتين حاملتين مررن بمحاذاة سيدة تلبس جلباباً، ويرى الناظر صحون التوابع مرتفعة على أطراف الأبراج كأزرار خيطت على قميص. إن هناك ٧٠٠ شقة في لابريكاد، وهناك على الأقل ٢٠٠ صحن هوائي متجهة نحو السماء لالتقاط إشارات من إفريقية: ذلك أن لدى فرنسا شبكة من أقل شبكات الكابل تطوراً في أوربا الغربية، ولا يمكن التقاط البث التلفازي الجزائري هناك إلا عن طريق التابع. وتظهر خلف الأبراج الجرف الصخرية التي تذكر بأريزونا (في أمريكا). وفي عدة ليال صيفية حارة في السنوات القريبة الماضية كان القاطنون في لابريكاد قد قدموا حفلة متنوعات مشهدية خاصة بهم على طريقة الروديو، ساحة مصارعة ثيران إستاسبورغ، سارقين سيارات من المدينة الواقعة في أسفل السفح، موقدين فيها النار، وقاذفين فيها من الجُرُف.

يقول ديديه بونّه Didier Bonnet الرجل الأنيق، ذو الشعر الطويل الذي يدير مصلحة الساحل الشمالي، المنظمة الاجتماعية التي أسست عام ١٩٨٨م لتعمل في مشروعات

> لدى الجيش الفرنسي رجال دين كاثوليك وبروتستانت ويهود، أما المسلمون فليس لديهم إمام. إن عدم التساوي يجعل من الصعب على المسلمين الاندماج

الإسكان في طرف مرسيليا الشمالي: «إن مستقبل المدينة هو شمال مرسيليا». وعلى الرغم من أن لدى «بونه» زبائن أيضاً في قلب المدينة غير أن لابريكاد هي تقريباً مقر جميع أعماله، وتحظى بجل عنايته: «يبلغ معدل البطالة في مرسيليا ٢٠٪، ويبلغ في بعض الجوار ٥٠٪، وهنا هو أحد هذه الأحياء».

لقد تم بناء مركز التسوق المركزي هناك على بعد ربع ميل من لابريكاد، وقد أنشئ بمساعدة الحكومة، شريطة أن يستخدم أصحابُ الحوانيت نصفَ موظفيهم من سكان المشروع المجاور. غير أن القاطنين أخذوا بالانحراف عائدين إلى البطالة. ومع ذلك فقد تم إنجاز بعض العمل. صاح نور الدين تاغلمينت Taguelmint الذي يقطنُ في لابريكاد، ويعمل لدى «بونّه» قائلاً: «صحافي !»، وذلك ليطمئن مجموعة من أربعة شمال أفريقيين بدا الحذر في وجوههم، وقد شغلناهم عن ما هم فيه من أعمال وسط ما بدا كصفقة غبية عندما هبطنا هضبة تقع خلف مشروعات السكن. وعلى بعد مئة ياردة أشار تاغلمينت إلى سيارة سباق بورش ٩١١ Borche 911 جديدة الطراز يمتلكها مقيم في المشروع.



زين الدين زيدان

تروي جوليت مينس Juliette Minces المختصة في علم الاجتماع، والتي درست النساء المسلمات بأن «عنصرة» متقدمة لهذه الكانتلات (المجمعات) السكنية آخذة مجراها، لقد غدت متواكبة مع مجموعات عرقية خاصة - سنغاليون هنا، وجزائريون هناك - على الشاكلة التي غدا فيها الإسكان الأمريكي العام متواكباً مع سود ولاتينيين أمريكيين جنوبيين في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. إن جل القاطنين في مشروعات مرسيليا هم مسلمون جاء أغلبهم من المغرب في شمال إفريقية. يقدر تاغلمينت نسبة الأجانب بين سكان البريكاد بـ ٦٠٪، و٥ر٢٪ من الباقي هم من الشبيبة العربية، و ١٠٪ من السود الفرنسيين. ولم يبق في المشروع سوى عشرين أسرة من البيض، وجميع هؤلاء كما يقول تاغلمينت يشعرون بأنهم وقعوا في شرك، ويشعرون بالمرارة، وسئل عن عدد من ينتمي منهم إلى الجبهة الوطنية اليمينية المتشددة فأجاب: «جميعهم»، جميعهم؟ فكر لحظة، وراجع رأيه:. كلا أقل من ١٥.

يقر كلود برتران Claude Bertrand رئيس ديوان محافظ مرسيليا بأن المحافظين الذين جاؤوا على التوالي كانوا اشتراكيين، وقد حصلوا على درجة من سلام اجتماعي بعشير عرقي. قال لي: «لم يحصلوا على الكثير كما بدا». غير أنه يُسلِّم بحدوث ذلك. وهو يفترض أن

تمييزاً عنصرياً كهذا سيتلاشى في المجرى الطبيعي، أولاً بتأثير التلفاز (يؤكد ملاحظون آخرون اعتماداً على وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية لاستيعاب قادمين جدد أن فرنسا تخاطر بحلها هذا للمشكلة بالقضاء على ثقافتها الخاصة في سبيل السكان الأصليين والقادمين الجدد سواء بسواء).

لا يقلق برتران على الجبهة الوطنية لأن مؤيديها هم على نحو أساسي الكاتلة نفسها - البيض الصغار، البروليتاريا البيضاء من عمال تحميل السفن وإفراغها - التي صوتت للشيوعيين طوال الحرب الباردة. وهو صادق في هذا «إنه يعتقد أن أجود أسلوب لانتشار المجموعة هو زيادة الاستخدام والتوظيف».

كما يشير ميشيل برالدي Michel Peraldi المتخصص في علم اجتماع مرسيليا أن محاولة إعاقة الحركة المضادة للهجرة بزيادة التوظيف هي محاولة مناقضة لنفسها. إن الهجرة إلى مرسيليا هي حالياً منخفضة نسبياً. تهرع أفواج المهاجرين إلى أماكن في طور النمو، ونمو اليوم هو في مكان آخر، إنه في التقانة العالية - «الرأسمالية المدركة» كما يصفها برالدي إن نمواً كهذا موجود في المنطقة - في إكس - ان - بروفانس - Aix - En - Provence مثلاً التي تحولت خلال عقدين من قرية سياحية خادرة إلى حاضرة صغيرة تضم ١٣٥٠٠٠ نسمة، غير أن مرسيليا هي مدينة يهجرها الأغنياء، وهكذا فإن أغلب نموها هو في المناطق البعيدة عن المركز؛ وهذا أمر شاذ غير سوي.

الحل هو «الحكومة»

إن معظم المدن الفرنسية مدن غنية ومنظمة ومن جناح اليمين، أما الضواحي فهي التي غدت فقيرة، غاصة بالسكان. إن مرسيليا هي المدينة الكبيرة الوحيدة في فرنسا التي تتبع نموذج الولايات المتحدة: المركز أفقر من المحيط. وهكذا تعمل مرسيليا كما نيويورك. (أبدى برتران هذه الموازنة بزهو). ولكن نيويورك التي يعنيها هي نيويورك السبعينيات من القرن الماضي. يرى فيها سياسيو الجيل الأقدم فقراً وجريمة وسوء تسوية وتحيزاً، ويعتقدون في محاولتهم للتوصل إلى حل، أن الحل هو «حكومة».

إن أعلى مسؤول في مرسيليا هو الحكومة الوطنية التي تضم ١٤٠٠٠ من العاملين، والمسؤول رقم ٢ هو البلدية التي تضم ١٢٠٠٠ من العاملين.

إن ناصرة بنمارنيا Benmarnia وزوجها نور الدين هاغوغ Haguog المولودين في فرنسا من نسل جزائري هما في أواخر الثلاثينيات من العمر، ويتطلعان إلى حل لمشكلات العشير المسلم، يتطلعان إلى حل لا يعتمد فقط على بذل المال في الإسكان المنخفض الإيجار إلى أناس من أمثالهما. إن اتحادهما «اتحاد الأسر المسلمة» الواقع قرب كاتدرائية مرسيليا على سفح «الكانبيير Canebiere» على بعد ميل واحد من حوض السفن يركز في الصدقة، والقيم الثقافية، والتعاون اللارسمي، وليس في مذهب الفعالية السياسي. لقد زرتهم حديثاً في مكتب متداع في الطابق الأرضي حيث ترى على رفوف من صفيح ملوى ومغطى بكنزات مهترئة كتب مدرسية فرنسية عن الجزائر. كما ترى لافتة كتب عليها «اعمل شيئاً ما للمحتاج - إن شاء الله».

> سيكون الإسلام أعظم تأثيراً في الجيل القادم. لقد أنجب المهاجرون من أقطار إسلامية ثلاثة أضعاف ما أنجبه الفرنسيون

بنمارنيا وهاغوغ زوجان ورعان يعملان على تثقيف أولادهما ليتعلموا اللغة العربية ويكتبوا بها إضافة إلى اللغة الفرنسية. تعلمت بنمارنيا في مدرسة كاثوليكية، غير أنها قالت لي: إنها ترغب في إرسال ولديها إلى مدرسة إسلامية فرنسية إن يتح لها ذلك. ليست هي الوحيدة التي ترغب في ذلك، إذ تبين من استفتاء هاريس Harris لعام ١٩٩٥م أن ٧٦٪ من مسلمي فرنسا يفضلون إرسال أولادهم إلى مدارس دينية تحت إشراف الدولة، وهذا الاختيار متاح في الوقت الحاضر للكاثوليك والبروتستانت واليهود، ولكن غير متاح للمسلمين.

إن بنمارنيا وهاغوغ - على شاكلة جميع المسلمين المؤمنين - قلقان بالفعل على إخضاع الإسلام لقانون القطر لعام ١٩٠٥م فيما يتعلق بالفصل بين الكنيسة والدولة. لقد أقرت هذا القانون حكومة علمانية نتيجة لقضية دريفوس Dreyfus عندما قامت حركة ارتجاعية ضد دور الكنيسة الكاثوليكية في إثارة اللاسامية التي اتضحت نتيجة لخيانة

ألفردْ دريفوس الضابط اليهودي في الجيش. وقد حظر القانون تمويل المؤسسات الدينية.

كان القانون يُؤَوِّل على نحو صارم بما بدا عمليًا تصريحاً بكون عدم الاعتقاد دينًا للدولة؛ كان من المحظور على من يدينون بالكاثوليكية خلال جل القرن على نحو غير رسمي العمل في المجالس الحكومية الفرنسية. وبقي القانون يلقى الثناء عموماً من قبل اليسار، والقدح من اليمين إلى درجة غدا فيها من دواعي السخرية أن يكون دينُ أقليةٍ مُمارسة محاولةً الآن لقلب أو على الأقل لتغيير قانون قصد به حماية

للحصول على أيٍ من ذلك. ليس لدى الإسلام كهنوت لرجال الدين على شاكلة الكنيسة الكاثوليكية. كما أن مسلمي فرنسا الذين جاؤوا من أقطار وتقاليد دينية مختلفة لا يستطيعون تشكيل مؤسسات عشيرية على نحو سهل، ولنقل كما هو الحال مع أغلب السكان اليهود من أصل فرنسي. وقد استخلص مختص علم الاجتماع فرانك فرغوزي Fregosy من مركز إستاسبورغ الوطني للبحث العلمي Cnrs الموازنة على نحو تام: لدى الـ ٤٥ مليون كاثوليكي فرنسي في فرنسا ٤٠٠٠٠ كاتدرائية وكنيسة



المنتخب الفرنسي يؤكد أن فرنسا مجتمع متعدد الأعراق

فرنسا من العودة إلى التيوقراطية (الحكومة الدينية) الكاثوليكية.

كان القانون في ذلك الوقت قد أقرّ، وكان لدى المؤسسات الكاثوليكية والبروتستانتية واليهودية في ذلك الحين ثروةٌ من أبنية ومرافق وممتلكات، وهم يحتفظون بها إلى اليوم. والأكثر من ذلك أن عدداً من هذه الأبنية الدينية مرتبط بـ «جمعيات ثقافية» لاتزال الدولة تمولها على نحو سخي. أما المسلمون فليس لديهم أمثال هذه الممتلكات، وتقاليدهم الدينية تجعل من الأصعب عليهم استخدام الميدان السياسي

ومصلّى. ولدى الـ ٩٠٠٠٠٠ بروتستانتي ٩٥٧ مقر أخوية دينية للعبادة، ولدى الـ ٥٠٠٠٠٠ يهودي ٨٢ كنيسًا ومصلي كبيرًا. أما الـ ٤ ملايين مسلم فلديهم ثمانية مساجد رسمية (يقدر عددها بعضهم بـ ١٦٠٠ مسجد غير أن عدداً من هذه هي أجود وصفًا بغرف عبادة غير رسمية في أقبية أو غُرف عمل احتياطية)، وهناك قسس كاثوليك وبروتستانت، وحاخامات يهود في الجيش الفرنسي، ولكن لا يوجد ما يقابلهم من رجال دين مسلمين.

يعتقد هاغوغ أن الموقع غير المكافئ للإسلام يجعل من

الأصعب على المسلمين الاندماج بأسلوبين، أولاً أنه يؤصل الدين في ممارسة، لأن «المساجد» الخاصة يقوم عليها أئمة ينقصهم التدريب يُنصّبون أنفسهم بأنفسهم، ونتيجة للتفاعل بين الدين والسياسة في الإسلام فإن هذا بدوره يؤصل سياسة المسلمين. ثانياً: أن المساجد الرسمية الحالية تمولها حكومات إسلامية أجنبية، غالباً ما تكون معادية للمصالح الفرنسية. فمسجد باريس الكبير يُموّل على نحو رئيس من حكومة الجزائر، وتمول المملكة العربية السعودية مساجد أخرى، وهذا قد يقود الفرنسي الأصيل إلى الشك - المسوّغ أحياناً - في أن مواطنيهم الزملاء المسلمين يشكلون نوعاً من طابور خامس. وليس هناك تسويغ مُلح بالضرورة لشكوكهم.

يقول هاغوغ متحدثاً عن الانهيار المذل الذي لايزال ماثلاً في كثير من الأذهان بعد الحرب الجزائرية: «إننا رمز للإخفاق الفرنسي».

إن بنمارنيا منكبة على جعل الوجود المسلم في فرنسا وجوداً عادياً نظامياً وغير رمزي. وأخيراً ليست رسالة الزوجين لدواع انفصالية بقدر ما هي لقيم الأسرة. وهذا يدعو المرء إلى التساؤل: هل هما يدركان وجود مقومات مشتركة بين وليام بنت Benett، ومحافظين أمريكيين آخرين، يقول هاغوغ ضاحكاً: «لسنا الأغلبية الأخلاقية». غير أنه عندما سئل هل المشكلة الأساسية هي فرنسا التي غدت علمانية مع شيء قليل من العناية لحماية مصالح الأسر.. هز رأسه بالإيجاب قائلاً: «ذاك هو».

إن أكثر ما يثير اهتمام الأمريكي بهاغوغ هو صبره المتناهي في الحديث عن موضوعات تثير غضباً شديداً في الولايات المتحدة. إنه يحب مرسيليا، غير أنه يعتقد أن مقداراً ما من العنصرية قد يكون جزءاً من سداها ولحمتها.

وهو يقول: «تتشكل هوية المرسيلي في الغالب بالاندفاع بقوة ونشاط نحو آخر من يصل». وهو يقر بأن سائقي التاكسي يخافون على نحو ملحوظ من كل ما هو غريب أو أجنبي. غير أنه يضيف: إن من الممكن التفاوض معهم، حتى إن اتحادهم في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي التمس تخفيف متطلبات سمات الدخول للجزائريين، مبدياً القلق من أن اتخاذ الحكومة إجراءات صارمة على الهجرة يقلص عائدات السياحة يقول هاغوغ العنيد في معارضته لسياسات الخوف من الغرباء أو الأجانب التي قد تلغي على نحو دائم أي مجال لمفاوضات كهذه: «إن انتصار الجبهة الوطنية محلياً، أو على نطاق الوطن سيكون جرحاً مميتاً لمرسيليا».

> إن المشكلة الكبرى هي إيجاد أسلوب للدولة تُحترم به الديانات والثقافات المختلفة من دون أن تتحول الدولة نفسها إلى آلة لخفض الاستيعاب

دفاع عن التعددية الثقافية

ربما حدث في الجبهة الوطنية الفاشستية الانزياح الأكثر إدهاشاً في مواقف من العرب. فخلال الانتخابات الأوربية لعام ١٩٩٨م توجه صامونيل مارشال Samuel Marechal مدير الحزب لوسائل الاتصال وزوج ابنة مؤسس الحزب وزعيمه جان ماري لوبن Jean Marie Le pen إلى ما دعاه وجه فرنسا المتعدد الأبعاد قائلاً: قد تستمر الجبهة الوطنية في الكفاح ضد «الهجرة» السرية، ودعم ترحيل القادمين الجدد الذين كانوا مجرمين، غير أنها تساند الآن مد اليد إلى الإسلام، إنها ستستمر في معارضة التمويل الأجنبي للمساجد، ولكنها ستساند تغيير قانون ١٩٠٥م كي تضمن تمويل هذه المساجد من الحكومة الفرنسية. وبالفعل فإن الجبهة الوطنية تدعم «على نحو مطلق» بناء مساجد المسلمين، مادامت هذه المساجد غير تابعة لسلطة ما، وليس لها مآذن ورموز أخرى معروضة بأساليب قد تُثير ديانات أخرى. وعندما قطع برونو مغره Bruno Me'grrt مساعد الجبهة الوطنية علاقته مع «لوبن» بسبب هذه القضية وقضايا أخرى انشطرت الحركة إلى حركتين.

بهذا الأسلوب على الأقل فسر لي متحدث باسم الجبهة يدعى توماس لاغان Thomas Lagan من وراء مكتبه في لوباكبو Le Paquebot (القارب) المركز الرئيس للحزب الذي له شكل قارب يلوح على نهر السين في سان كلود Saint - Cloud في غرب باريس تماماً. إن لاغان نفسه مهاجر وافد كان قد وُلد عام ١٩٦٨م في جمهورية إفريقية

الوسطى التي كانت مستعمرة فرنسية فيما سبق. وقد تباسط معي مفضياً إليّ بأكثر مما كان قد أفضى به مارشال على رؤوس الأشهاد، محاولاً البرهنة على أن أقليات فرنسا تندفع أفواجاً إلى الجبهة الوطنية. قال: «إن من الخطأ القول: إن لفرنسا ثقافة واحدة فريدة. إن الجبهة الوطنية بالفعل هي الحركة التي تدافع على أحسن وجه عن مذهب تعددية الثقافة في فرنسا. دعني أشرح. هناك في قطرك بخاصة ضرب من إمبريالية ثقافية تخريبية، تقييس عالمي للسلوك والاستهلاك وعادات التفكير والفلسفة الاقتصادية التي جعلت الشعوب الأوربية تفقد هويتها.

إننا بالدفاع عن هويتها الوطنية نحمي الصفة المميزة ضد التقييس.

إن المسلمين يفقدون هويتهم عبر الإجراء نفسه، إننا نأمل أن يحافظ المسلمون على جذورهم، وألا يحاولوا الاندماج على حساب هذه الجذور».

أقر لوغان أن للعولمة حسناتها. فهو: يلبس قميصاً أنيقاً ذا خطوط ملونة على خلفية دكناء وحيدة اللون، ويدخن مارلبورو لايتس، ويدون كتاباته على حاسوب محمول Lap-top من طراز جديد لماكنتوش G-3 Macintosh، وقد تخلى في الواقع عن الجبهة بعد أسابيع تماماً من محادثتنا ليبدأ شركته الخاصة .Dot Com. قال: «لسنا ضد العولمة. إننا ضد مذهب العولمة الذي يهدم الأسرة والوطن».

من المؤكد أن الجبهة الوطنية قد تغيرت منذ بواكير الثمانينيات من القرن الماضي عندما حاولت مزج نظام ريغان ـ تاتشر الرأسمالي مع معارضة صاخبة لمستويات الهجرة العالية السائدة عندئذ. يبدو أن حرب الخليج عام ١٩٩١م قد كانت نقطة الانعطاف، حتى إن مصدر خطبة «لوبن» اليوم التي طبقت الحركة بموجبها موقفاً مضاداً للرأسمالية على نحو قاس بدأت تشجب بعنف «الإمبريالية» الأمريكية، الاقتصادية والثقافية كلتيهما.

يبدو أن الجبهة الوطنية الجديدة ترى العرب حلفاء طبيعيين في صراع ضد مذهب العولمة الذي نُظر إليه على نحو تقليدي كأمريكي ويهودي. قال لاغان (بالأحرى على نحو غير قابل للتصديق): «إن الجبهة ليست ضد إسرائيل، إنها ضد دورها في التعاون مع أمريكا كشرطي في الشرق الأوسط؛ والأكثر من ذلك أنه يحس بأن «العشير اليهودي يتطور: إنه الآن أقل انقياداً على نحو عميق من قبل يهود الجناح اليساري» بدا في تأكيداته أن «الجبهة الوطنية لا تختلف مع الشعب الأمريكي» شبيهاً تقريباً بنموذج قديم لمعاداة الأمركة.


من داخل متحف اللوفر

من المشكوك فيه أن نكون بحاجة إلى أن نخاف من سياسة خارجية لجبهة وطنية من فرنسا في أي وقت قريب. غير أن هناك مع ذلك إشارات مقلقة. ففي شباط / فبراير قبل الماضي زار ليونل جوسبان Lionel Jospin القدس حيث وصف أعمال رجال حزب الله بأنها: «هجمات إرهابية». ولم يكن النقد الصادر عن الأقطار العربية استثنائياً كاستثنائية التخلي عنه من قبل اليسار الفرنسي الذي كان قد ألحّ على جوسبان أن يكون أشد قسوة في انتزاع السيطرة على السياسة الخارجية لفرنسا من الرئيس شيراك Chirac، وقد لا يترك الثقل المتنامي لصوت العرب الانتخابي في فرنسا للسياسيين الفرنسيين إلا القليل من التفاوت المسموح به في السياسة الخارجية، فإن كان الأمر كذلك فذاك يساعد على تفسير السبب الذي جعل شيراك رئيس الدولة الغربي الوحيد الذي يحضر جنازة القائد السوري حافظ الأسد.

فعل جوردان

من الصعب القول: إلى أي مدى يعود مذهب عالمي (متحرر من الأحقاد القومية أو المحلية) إلى الهجرة، وإلى أي مدى يعود ببساطة إلى العولمة. فإن كان هناك فعل زيدان فإن هناك أيضاً فعل مايكل جوردان Michal Jordan.

يقول المراسل السياسي بلاندين غروسجان Blandine Groslean للصحيفة الوطنية اليومية ليبراسيون Libera-tion: «اليوم لا يعني الاستيعاب لبس البيريه (القلنسوة المستديرة المسطحة اللينة) بل لبس خوذة أمريكية Casa-vette وفق ما توصل الفرنسي إلى تسمية قبعات كرة السلة هذه الرخيصة والموجودة في كل مكان في جميع الأوقات. كانت فرنسا دائماً غاصّة بالأجانب، ولكنهم في الماضي كانوا أجانب يحاولون أن يصبحوا فرنسيين، وأن يلتحقوا بثقافة العالم الأوربي. كانت المصلحة في الأراضي الأجنبية شأن النخبة من المثقفين والمجلوبين. واليوم تغدو باريس أكثر شبهاً بنيويورك - ضرباً من مكان بمقدور المرء فيه دائماً الحصول على طعام جيد من ثقافات متعددة. كان جلياً في فرنسا بحلول الثمانينيات من القرن الماضي أن يبز الكسكسي الإفريقي الشمالي الأرز والبطاطا كليهما من حيث كونه المرافق القطري المفضّل للحم ليغدو على نحو قابل للأخذ والرد طعام فرنسا الوطني. فحوانيت الكسكسي(٥) تنتظم في شوارع بأكملها في جميع أنحاء باريس.

حتى إن وزير التربية الفرنسي جاك لانغ Jack Lang ابتهج للقضية، وهو الذي شجب في بواكير الثمانينيات من القرن الماضي عندما كان وزير ثقافة لميتران Mitterand استيراد ثقافة أمريكية وكلمات إنجليزية. فما إن جلس لانغ إلى مكتبه في ساحة فوج Place des Voges في منطقة ماريه Marais في باريس حتى قال لي: إنه يأسف لأنه دعا فرنسا عندئذ استثناءً ثقافياً، فقد قال: «ليس على العولمة أن تعني جعل الشيء متسقاً». وأضاف علاوة على ذلك أنه مبتهج بكثير من الثقافة الأمريكية: «إنني أحب رقصة الراب Rap تماماً كحبي لرقصة الهيب - هوب Hip - Hop، ورقصة البريك Breack». يفهم لانغ الخطر: «إن ذلك التسامح الثقافي لن يعني مزيداً من ثقافة فرنسية شاملة بل (ثقافة - أمريكية مُهرَّبة)»، ولكنه يرى أن الضرورات الملحة لمضادات العنصرية بالنسبة إليه تبدو أنها قد طغت على الضرورات الملحة للوطنية. وقد قال: «إن النقطة الفاصلة ليست حماية ما يدعى نقاء الثقافة الفرنسية. إن ذلك سخيف مضحك. إن نقاء كهذا غير موجود. قد يكون شوفينية (غلواً في الوطنية)، عنصرية، أنا لا أتحمل ذلك».

تعمل فرنسا وفق تقاليد دستورية تجعلها تتحرك على نحو أكثر حذراً من الولايات المتحدة في تدبر إصلاح تباينات العنصرية. إن وزير الداخلية هو المسؤول عن ضمان الانسجام بين المواطنين. كان لدى وزير داخلية في التسعينيات من القرن الماضي سياسة إسلام. لقد ذهب جان بيير شفنمان Jean Pierre Chevenement وزير الداخلية منذ عام ١٩٩٧م حتى استقالته إلى أبعد من ذلك، إنه رجل فكر نظامي بأسلوب يرضي الفرنسي. لقد انفصل شفنمان عن ميتران عندما استدار ميتران إلى اليمين في علم الاقتصاد في بواكير الثمانينيات من القرن الماضي. إن مبادرته على الإسلام التي وُقِّعت بدعم من الاتحادات الإسلامية الأربعة كانت متأصلة بثبات في فكرة الفرنسي الحقيقية عن المواطنية. غير أنها فكرة أكثر واقعية في فرنسا منها في الولايات المتحدة.

> لدى فرنسا اليوم من المسلمين عدد يفوق عدد الكاثوليك الممارسين، وقد غدا الكسكسي - جدلاً - الغذاء الوطني للقطر

إنها تدعم جمعيات ذات حقوق انتخابية ومشاركة مدنية، وتمثل استيعاباً ثقافياً ومساواة تحت القانون.

فصّل شفنمان في مبادرته بحيث تجيب على الأقل عن بعض الأسئلة التي كان يطرحها كل إنسان. وقد دعا هو وكلود ألغر Alegre وزير التربية السابق إلى إنشاء معهد دراسات إسلامية. ذلك أن هذه المؤسسة ستساعد على إنشاء منظمة استرداده(٦) سياسية بين سكان فرنسا المسلمين الأدنى حظاً والمتباينين والمشاكسين إلى جانب الاتحاد البروتستانتي القديم العهد في القطر. ألح شفنمان بقوة وعزم على توسيع حقوق الانتخاب لغير المواطنين الذين مضى على إقامتهم في فرنسا عشر سنوات قائلاً: إن ذلك نتيجة ضرورية لاتفاق ماستريشت Mastricht الذي جاء بفرنسا إلى الاتحاد الأوربي ليس غير. ستبرهن أجزاء من المبادرة على أنها إما أساليب تحايل وإما أساليب رائعة لإيجاد ثغرات في قانون ١٩٠٥م الذي تراه فرنسا الآن

مزعجًا. إن فرض ضريبة على اللحم الحلال لتمويل المساجد هو أمر نموذجي. ولتهدئة مخاوف الجبهة الوطنية من مآذن بادية في الأفق طلب شفنمان من المسلمين دمج مباني مساجدهم في صور المدن الفرنسية.

إن الشخص المسؤول عن تنسيق سياسات شفنمان بين الوزراء خلال جل ولايته هو باتريك كنكتون Patric Quinqueton السياسي الذي مضى عليه زمن طويل في «حزب حركة المواطنين»؛ الذي كثيرًا ما تمنى أن تتغلب فكرة شفنمان عن المواطنية على الكثير من المحن. وقد قال لي في العام قبل الماضي في وزارة الداخلية: «كان من البساطة في العادة الحصول على الجنسية الفرنسية». كان يقصد متطلبات الإقامة القصيرة بالموازنة مع المتطلبات في الأقطار الأوربية الأخرى - للمستوطنين الباحثين عن مواطنية فرنسية. غير أن الوصول إلى مجتمع ليس بهذه البساطة. إن هؤلاء الناس الشبان (الجيل الثاني) هم اليوم هدف للتمييز العنصري. في العمل وفي الإسكان - ليس دائمًا نتيجة للعنصرية. يبدو هذا تمييزًا ناعمًا جدًا، غير أنه فسر ذلك بالقول «لا نستطيع أن ندعو هذا تمييزًا عنصريًا ضد المهاجرين؛ لأنهم بالفعل ليسوا مهاجرين على الإطلاق. إن ما نبحث عنه هو الوصول إلى المواطنية».

رفض كنكتون عملاً إيجابيًا خارجًا عن السيطرة. وقد أخبرني: «أن التفكير بهذه القضايا يطرح ذلك السؤال مباشرة». غير أننا كنا قد اخترنا ألا نقيم نظامًا كهذا. كلا على الإطلاق.

ذلك أن نظام فرنسا السياسي والاجتماعي - المرتبط كثيرًا جدًا بمبدأ المساواة - لن يقبله. إن أي شيء يعطي الانطباع بأن المواقع التي تعطى كحسنة من غير حق تنتهي إلى خنق الناس. إنها تثير أنماطًا أخرى من المشكلات.

وفوق ذلك قام كنكتون بشيء شبيه باشتراط كلينتون الذي ينص «على الشرطة أن تكون كعشرائها».

ستكون الدولة الفرنسية تحت ضغط متزايد لإنشاء شيء ما كفعل إيجابي حتى لو جاء تحت اسم مختلف. فعشية مسيرة السود في أيار/مايو المطالبة بمزيد من التمثيل في وسائل الإعلام إلى جانب أمور أخرى أصدرت وزيرة المواصلات كاترين تاسكا Chtherine Tasca أمرًا إلى محطتي تلفاز وطني: فرنسا ٢، وفرنسا ٣ أنْ تأخذا في الحسبان على نحو تام تنوع الشعب الفرنسي. يبدو أن التدبير الدستوري الفرنسي الاحتياطي ضد المجموعات العرقية المتزايدة آخذ بالتهلهل. وعلى الرغم من استبعاد الحصص النسبية الصارمة فإن المتساهلة منها قد وصلت جالبة معها مفارقة: ليس هناك برنامج حكومة أكثر أمريكية من فعل إيجابي، والأمركة هي شيء يمارسه بفزع كل شخص في المجتمع من الاشتراكيين إلى المحافظين، ومن الشيوعيين إلى الجبهة الوطنية.

إن المشكلة الكبرى هي إيجاد أسلوب للدولة تُحترم به الديانات والثقافات المختلفة من دون أن تتحول الدولة نفسها إلى آلة لخفض الاستيعاب، إن هذه المشكلة - لحسن الحظ أو لسوئه - جديدة على أوربا، وينحو نموذج جميع أمثال هذه المصالحات العرقية إلى البروز من حركة الحقوق المدنية الأمريكية. يقول نور الدين هاغوغ: «كان الخطأ الرئيس في التفكير بالهجرة على أنها جلب لليد العاملة فقط، أي عدم حساب هذه الأيدي هي أيضًا كائنات بشرية تقدم أسرًا وجالية وأولادًا إلى العالم. وهذه الأمور لم تكن مدروسة على نحو واضح. إن سياسة مبدئية على مواصفة متدنية، على يد عاملة رخيصة قد كانت جيدة في السبعينيات من القرن الماضي، لكن فرنسا الآن تستكشف أن ما ظن بضاعةً غدا كائنات بشرية».

الهوامش

- The Crescent And The Tricolor مقالة كتبها كريستوفر كالدول Christopher Caldwell في صحيفة The Atlantic Monthly.

١. وزير الخارجية الأمريكي الحالي.

٢. يطلق الفرنسيون على الشبان العرب اسم Les Beurs، وعلى الشابات العربيات Les Beurettrs.

٣. جفر Code.

٤. امتحان المرء ضميره وبخاصة في ما يتصل بالدوافع والقيم. (المترجم).

٥. Couscous طعام يصنع عادة في شمال إفريقية من السميد (جريش قلب الحنطة) المحبحب واللحم والخضار والبهارات.

٦. رده الرجل: ساد قومه To Lobby. وبإضافة الألف والسين والتاء للطلب تغدو استرده أي طلب سيادة قومه أو موكليه فهو مسترده وهي مستردهة Lobbyer Lobby. ردهة، أشخاص يحاولون التأثير في المشرعين لمصلحة موكليهم ويمكن أن نطلق عليهم اسم «المستردهة» قياسًا على «المعتزلة». (المترجم).

مفهوم العمارة في الاقتصاد الإسلامي

زيد بن محمد الرماني
الرياض - السعودية

التنمية الاقتصادية هي اليوم موضوع الساعة والشغل الشاغل للساسة والمخططين، ومع ذلك لم يكن الاهتمام بدراستها إلا حديثًا، بينما نجد الإسلام، منذ أربعة عشر قرنًا، قد أولى قضية التنمية عناية فائقة، واهتمامًا خاصًا.

التنمية في ظل النظام الاقتصادي الإسلامي فرضٌ وضرورة، إذ تستهدف تحقيق الإنسان، من خلال عمله، درجاتٍ متزايدة من التعامل المنضبط مع الموارد المتاحة في الكون، التي سخرها الله سبحانه وتعالى لخدمته، وذلك لتحقيق تمام الكفاية، الذي يتناسب مع متوسط المعيشة السائد في المجتمع المسلم، ويعني ذلك تحقيق مزيد من الدخل، ومن عناصر القدرة الاقتصادية، إلى جانب مشاركة الدولة في إشباع الحاجات الأساسية لغير القادرين وتوفيرها للاستقرار والأمن الاقتصاديين.

إنّ الإسلام ينظر إلى التنمية نظرة شمولية تجمع بين تطوير كلٍّ من الأرض، والموارد الطبيعية والإنسان، والموارد البشرية.

لذلك اهتم الإسلام بالتنمية، وعدّها عبادة لله تعالى، وجعلها من واجبات الاستخلاف، قال عز وجلّ: هو *أنشأكم من الأرض، واستعمركم فيها*. هود: ٦١.

بل لقد بلغ حرص الإسلام على التنمية وإعمار الدنيا، أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها، فله بذلك أجر» أخرجه البخاري.

كما شغلت قضية التنمية فكر المسلمين الأوائل، واحتلت المقام الأول في اهتماماتهم، وذلك تحت لفظ «العمارة»، وهو اصطلاح يشمل - في اقتصاديات اليوم - ما يطلق عليه التنمية الشاملة.

إنّ لفظ العمارة يحمل في مضمونه التنمية الشاملة، والنهوض بالمجتمع في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، وهذا جوهر ما تسعى إليه التنمية في الاقتصاد المعاصر.

بين يدي المفهوم

يهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالتنمية الاقتصادية بيْد أنه يعالجها بوصفها جزءًا من كل: هو التنمية الإنسانية.. فأول وظيفة من وظائف الإسلام هي توجيه التنمية الإنسانية في المسالك الصحيحة. لهذا كان التركيز، حتى في القطاع الاقتصادي، في التنمية الإنسانية، بحيث تبقى التنمية الاقتصادية عنصرًا


حث الإسلام على غرس الأشجار وحفر الأنهار

مكملاً وجزءاً لا يتجزأ من التنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للجماعة الإنسانية.

وفي ضوء المبادئ الأساسية للإسلام يمكن أن نستخلص مفهوم الإسلام للتنمية الذي تتضح ملامحه في النقاط الرئيسة الآتية:

- المفهوم الإسلامي للتنمية له خاصية الشمول، إذ يتضمن المظاهر الخلقية والروحية والمادية في آن معاً. وبهذا تصبح التنمية نشاطاً هادفاً ومتجهاً إلى الخُلُق، ومنصباً على البلوغ بالرفاهية البشرية حدَّها الأمثل. والرفاهية التي سيبحث عنها الإسلام إنما تمتد إلى الحياة الآخرة، وليس ثمة تنازع بينهما. وهذا البُعد مفقود في المفهوم المعاصر للتنمية.

- الإنسان هو مركز الجهد التنموي، وهو قلب عملية التنمية، وهدف التنمية أن يكون عقل الإنسان سليماً، وجسمه صحيحاً، وعِرْضه مصوناً، وماله محفوظاً، وقبل هذا وبعده، أن يكون دينه وعقيدته صافيين. ولهذا طالب الإسلام بتنمية كل هذه الجوانب الضرورية للجماعة الإنسانية.

- التنمية نشاط متعدد الأبعاد، وهي في الإسلام أكثر من ذلك، إذ يسعى الإسلام إلى إقامة التوازن بين مختلف الاتجاهات والأبعاد، دون تركيز في جانب، أو إهمال جانب.

- يؤكد الإسلام تأكيداً خاصاً مبدأين، من المبادئ الفعالة في الحياة الاجتماعية هما: الاستخدام الأمثل للموارد التي أنعم الله بها على الإنسان وبيئته الطبيعية والاستخدام العادل والتوزيع الحق للعلاقات الإنسانية.

وعليه يمكن القول: إنّ التنمية الاقتصادية في ظل الإسلام تستلزم مشاركة الإنسان الفعالة، وتتجه إلى تحقيق الحد الأمثل من الرفاهية الإنسانية، وإلى بناء قوة الأمة.

مصطلح العمارة

لم يعرف الفكر الإسلامي تعبير التنمية الاقتصادية، بيْد أنه حوى من المصطلحات ما يحوي مضمون مصطلح التنمية، وكان أقرب تعبيرا عن التنمية والعملية التنموية. ومن هذه المصطلحات: التمكين، والإحياء، والعمارة.

فالعمارة تأتي في اللغة بعدة معانٍ منها:

العمارة نقيض الخراب، أو هي البُنيان، أو هي عمارة الأرض، أي إحياؤها بالبناء أو الغرس أو الزرع.

جاء في معجم مقاييس اللغة: العين والميم والراء أصلان صحيحان: أحدهما يدُل على بقاء وامتداد زمان، والآخر: على شيء يعلو، من صوت أو غيره.

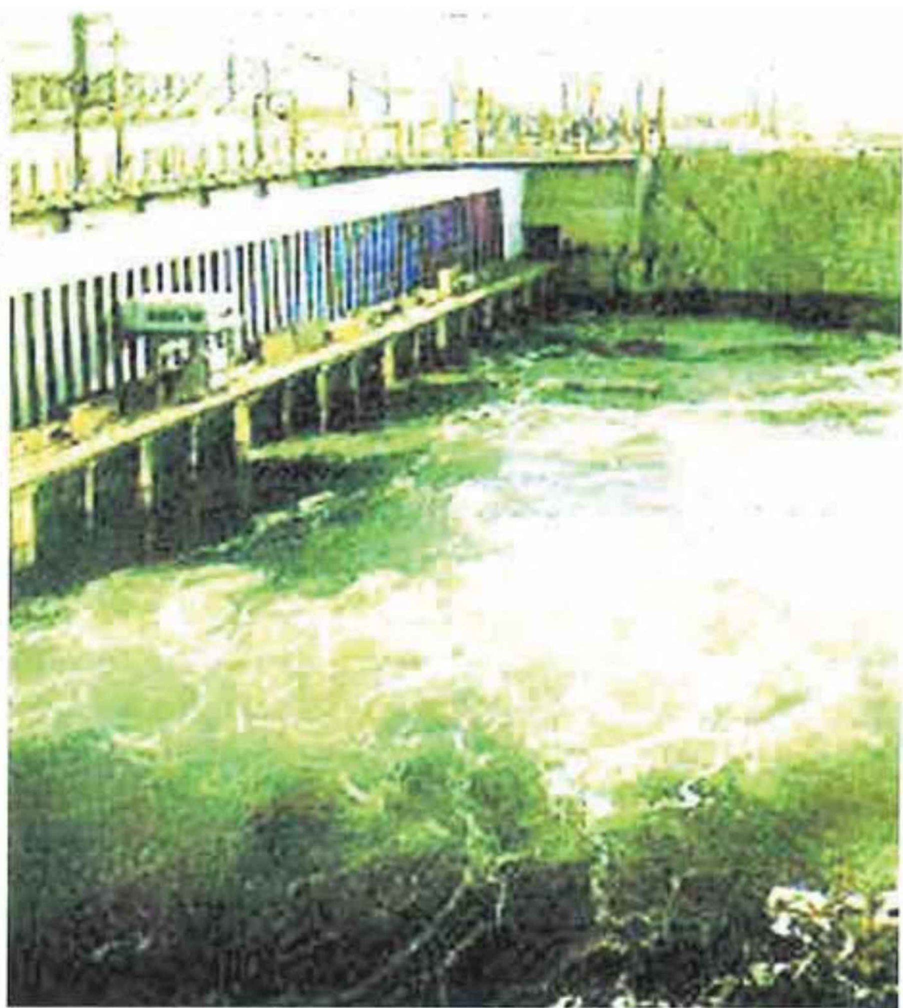
ومن هذا الباب عمارة الأرض، يقال عمر الناس الأرض عمارة، وهم يعمرونها، وهي عامرة معمورة. والاسم والمصدر: العمران، واستعمر الله تعالى الناس في الأرض ليعمروها.

إذا تبيّن هذا، فإن مصطلح العمارة يشمل عمارة الأرض (التنمية الاقتصادية)، وعمارة البلاد (التنمية الشاملة).

وفي القرآن الكريم جاء قوله تعالى: هو *أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها*. هود: ٦١. مدللاً على أهمية العمارة؛ يقول القرطبي (ت: ٦٧١هـ) - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية: قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب. وقال الجصّاص (ت: ٣٧٠هـ): وفيه دلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية.

وفي قوله: «واستعمركم فيها» أمرٌ بالعمارة، والعمارة متنوعة فمنها واجب كعمارة القناطر اللازمة، والمسجد الجامع، ومندوب كعمارة المساجد، ومباح كعمارة المنازل، وحرام كعمارة الحانات، وما يبنى للمباهاة أو من مال حرام.

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة دالّة على فضل العمارة وأهميتها، فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «من



إقامة القناطر والسدود جزء من مفهوم العمارة

أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق». قال ابن حجر (ت: ٨٥٢هـ) في فتح الباري: «والمراد من أعمر أرضًا بالأحياء فهو أحق بها من غيره».

وقال المناوي (ت: ١٠٣١هـ) - رحمه الله - في حديث: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة».. الحديث الذي أخرجه البخاري. والحاصل أن الحديث فيه تأكيد الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار، لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به، فاغرس لِمَنْ يجيء بعدك لينتفع، وإن لم يبق في الدنيا إلا صبابة، وهذا لا ينافي الزهد والتقلل من الدنيا.

وفي هذا المجال وردت نصوص عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العمارة، وما يدل عليها ومنها: قوله «مَنْ عطّل أرضًا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له». وقوله لبلال بن الحارث المزني: «إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته، وردّ الباقي».

ومن هذه النصوص يتضح حرصه - رضي الله عنه - على دفع الناس وحثهم على الإنتاج والتنمية، فهو لا يترك رغبة الناس في عمارة الأرض مجرّدة عن العمل، وإنما يطالبهم بأن تقترن هذه الرغبة بالعمل والتعمير وبذل الجهد خلال مدة زمنية معينة.

وقد قال رضي الله عنه: «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل، فهم أولى منا بمحمد يوم القيامة»، وقال كذلك: «مَنْ كان له مال فليصلحه، ومَنْ كانت له أرض فليعمرها، فيوشك أن يأتي مَنْ لا يُعطي إلا مَنْ أحب»، وقال أيضًا لواليه على بعض أقاليم الدولة: «إن الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفّر لهم حرفتهم، فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها، إنّ الله خلق الأيدي لتعمل...».

ومن هذه النصوص تتضح نظرة الفاروق رضي الله عنه إلى التنمية من خلال العمل المنتج وأهميته في النشاط الاقتصادي، ودعوته - رضي الله عنه - إلى التنمية وعمارة الأرض، لأن حاجة الإنسان إلى المادة اللازمة هي قوام نفسه.

وفي عبارة الفاروق الأخيرة تلخيص لمهمة القادة، وبيانٌ لأساس الحكم، من حيث تأمين الناس في معاشهم وفي حياتهم، وتوفير حد الكفاية لأفراد المجتمع.

إنّ قارئ كتاب «نهج البلاغة» المنسوب إلى الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، يقع نظره على جُمل من القول يتمثل فيها فكره الاقتصادي، رضي الله عنه، وموقفه من عدة قضايا تمثل جوهر التنمية الاقتصادية (العمارة).

يؤكد الإسلام تأكيدًا خاصًا مبدأين من المبادئ الفعالة في الحياة الاجتماعية هما: الاستخدام الأمثل للموارد التي أنعم الله بها على الإنسان وبيئته الطبيعية، والاستخدام العادل والتوزيع الحق للعلاقات الإنسانية

فمن خلال كتابه رضي الله عنه لواليه على مصر «الأشتر النخعي»، نجده يحدّد فيه مجموعة من الضوابط والقواعد الاقتصادية ومنها:

- عناية الدولة لشؤون التجارة، ورعايتها للتجار.
- منع التجار من الاحتكار، أو الإضرار بالناس.
- تطبيق فكرة الثمن العادل، وضبط الموازين والمكاييل.
- إرشاد الناس إلى السماحة في البيع والشراء.
- معاقبة التجار الذين يُضيقون على الناس.

وبهذه الضوابط والقواعد الاقتصادية تقوم التجارة بدورها في تحقيق العمارة، ودفع كل من القطاع الزراعي والصناعي إلى الأمام في مجال التقدم والازدهار، ومن ثم تتحقق العمارة والتنمية وبناء مجتمع المتقين، وهو هدف التنمية.

إنّ عمارة البلاد أمر واجب على الدولة، ومهمة أساسية من مهامها. يقول رضي الله عنه في مقدمة

العهد الذي كتبه للأشتر النخعي «هذا ما أمر به عبدالله عليّ أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر، في عهده إليه حين ولاه مصر، جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها».

وفي هذه المقدمة تلخيص لوظائف الوالي التي كلفه بها أميره، فهي تحدّد وظائف الدولة عنده رضي الله عنه، وقد جمعها في الأربعة المذكورة، والتي منها عمارة البلاد.

ويتمثل هدف العمارة عند علي - رضي الله عنه - في إقامة مجتمع المتقين، ذلك المجتمع الذي يتمتع بأعلى مستوى من طيب الماديات، والتزام تقوى الله تعالى. وقد حدّد رضي الله عنه هذا الهدف في كتابه لمحمد بن أبي بكر - رضي الله عنهما - والي مصر، إذ يقول: «يا عباد الله، إنّ المتقين حازوا عاجل الخير وآجله، وشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباح لهم الله الدنيا ما كفاهم به وأغناهم.. سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا، وهم غداً جيران الله يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة، فإلى هذا يا عباد الله ليشتاق منْ كان له عقل، ويعمل له بتقوى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله...».

لم يعرف الفكر الإسلامي تعبير التنمية الاقتصادية، بيْد أنه حوى من المصطلحات ما يحوي مضمون مصطلح التنمية، ومن هذه المصطلحات: التمكين، والإحياء، والعمارة

هذا الكتاب التاريخي ليس قصة يتحدث فيها الإمام علي - رضي الله عنه - عن واقع المتقين على وجه الأرض، أو واقعهم في التاريخ، وإنما كان يستهدف التعبير عن نظرية المتقين في الحياة، والمثل الذي يجب أن يحققه مجتمع المتقين على هذه الأرض، ولذا أمر بتطبيق ما في الكتاب، ورسم الوالي سياسته في ضوء ما جاء فيه من وصايا وتعليمات.

يرى الإمام علي - رضي الله عنه - أنّ مضمون العمارة ومفهومها لا يقتصران على زيادة الإنتاج أو رفع مستوى الدخل القومي، وإنما يقومان على عدالة توزيع الدخل، فالتوزيع العادل لثمار التنمية جزء من مفهومها في فكر الإمام علي - رضي الله عنه - القائل: «ما جاع فقير إلا بما متّع غني».

مما سبق يتضح أن العمارة والتنمية اللتين يجب على الدولة القيام بهما تسعيان إلى تحقيق مستوى الحياة الكريمة لمجتمع المتقين، وهذا المستوى يتطلب لتحققه توفير العدالة الاجتماعية، كما أن التوزيع العادل جزء أساسي من مفهوم العمارة ومضمونها عند علي، رضي الله عنه.

أما وسائل تحقيق العمارة في نظر الإمام علي - رضي الله عنه - فهي أربع: تحقيق التوازن الاقتصادي، وإقرار الأمن والاستقرار، والقيام بالتوجيه لأوجه النشاط الاقتصادي كافة، وعدالة التوزيع.

يقول الإمام علي - رضي الله - عنه لواليه: «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومنْ طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً.. ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم..».

ويمكن تلّمس موقف القاضي أبي يوسف (ت: ١٨٢هـ) - رحمه الله - من التنمية (العمارة) من خلال استعراض ما جاء في كتابه «الخراج» الذي كتبه لهارون الرشيد.

إذ يستخدم أبو يوسف - رحمه الله - في كتابه ذلك تعبير عمارة البلاد، وكذلك تعبير عمارة الأرض، فعندما يتحدث عن عمارة القطاع الزراعي يستخدم عبارة «عمارة الأرض»، وعندما يتحدث عن أسس العمارة وأصول بنائها، يستخدم عبارة «عمارة



للتجارة في الإسلام قواعد وضوابط تحقق لها المشاركة الفاعلة في العمارة

البلاد»، يقول أبو يوسف - رحمه الله: «إنَّ العدل والإنصاف وتجنب الظلم، مع ما في ذلك من الأجر، يزيد به الخراج وتكثر به عمارة البلاد...».

ولذا، يُحمِّل أبو يوسف الدولة مسؤولية كبرى تجاه إعجاز التنمية (العمارة)، مع عدم إغفاله لدور الأفراد في تحقيق ذلك، حيث نجده يقول - رحمه الله - مخاطباً الخليفة: «ولا أرى أن يترك الإمام أرضاً لا ملك لأحد فيها، ولا عمارة، حتى يقطعها، فإن ذلك أعمر للبلاد، وأكثر للخراج».

ويقول - رحمه الله - في معرض تحمّل الدولة للنفقات العامة وقيامها بالإنفاق على المشروعات: «ولا تحمل النفقة على أهل البلد، فإنهم أن يعمروا خير من أن يخربوا، وأن يفِروا من الوفرة - خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا»، وفي هذا دعوة لتحمل الدولة العبء الأكبر إزاء عملية التنمية (العمارة).

وأسس العمارة عند أبي يوسف - رحمه الله - هي: سيادة العدل والإنصاف، والمحافظة على الملكية الخاصة، وتدخل الدولة ومساهمتها إيجابيًا في عملية التنمية. يقول أبو يوسف - رحمه الله: «إن العدل والإنصاف للمظلوم، مع ما في ذلك من الأجر الأخروي، مما يزيد به الخراج، وتكثر به عمارة البلاد، والبركة مع العدل تكون، وهي تفقد مع الجور، والخراج المأخوذ من الجور تنقص به البلاد وتخرب...».

وقد اشترط أبو يوسف - رحمه الله - في العالم الذي يتولى مهمة العمارة شروطاً سبعة: الدين، والصلاح، والأمانة، والعفة، والمشاورة لأهل الرأي، والخبرة، والعلم والفقه، فمتى توافرت هذه الشروط في رجل الخراج، فإنَّ البلاد تنعم بالرفاهية والعدل الاجتماعي؛ وذلك بتحقق العمارة. يقول أبو يوسف - رحمه الله:

«رأيت - أبقى الله أمير المؤمنين - أن تتخذ قوماً من أهل الصلاح والدين والأمانة فتوليهم الخراج، ومن وليت منهم فليكن فقيهاً، عالمًا مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يخاف في الله لومة لائم...».

ويرى أبو يوسف - رحمه الله - أنّ تحقيق العمارة يتطلب إجراءات معينة منها: إقامة شبكة طرق جيدة، وإدخال كل المواد في نطاق الإنتاج، وإقامة المنشآت اللازمة للري والإمداد بالمياه.. بهذه الإجراءات الثلاثة، حصر أبو يوسف - رحمه الله - الإجراءات المادية المباشرة لتحقيق العمارة.

ومن هنا ندرك أنّ أبا يوسف - رحمه الله - يستخدم التعبيرين «عمارة الأرض» و«عمارة البلاد»، كما هو الحال عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد كان لكتّاب الاقتصاد الإسلامي آراء خاصة في العمارة وما تميزت به من التنمية الاقتصادية، فهذا الدكتور شوقي دنيا يقول في كتابه «الإسلام والتنمية الاقتصادية»: «إنّ لفظ العمارة والتعمير يحمل مضمون التنمية الاقتصادية، وقد يزيد عليها؛ فهو نهوض في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، وإن تناول بصفة أولية جوانب التنمية الاقتصادية بمعناها المتعارف عليه في علم الاقتصاد».

وأما الدكتور يوسف إبراهيم فيقول في كتابه «إستراتيجية وتكنيك التنمية الاقتصادية في الإسلام»: «إن هناك مصطلحاً خاصاً يستخدمه المفكرون المسلمون ويعالجون قضايا التنمية داخل إطاره، هذا المصطلح هو مصطلح العمارة...».

ويقول الدكتور علي عبدالرسول في كتابه «المبادئ الاقتصادية في الإسلام»: «إن العمارة يمتد أفقها إلى أبعد مما عرف سلفنا الصالح من الزراعة والغراس والأبنية إلى استثارة ما في الأرض من أنواع المعادن، والتوسع في المنافع العمرانية باستحداث المصنوعات المختلفة والمرافق الضرورية والوسائل الميسرة للمصالح العامة، وما يتبع ذلك كله من تبادل السلع والغلات ونقل التجارة أو جلبها من هنا وهناك...».

الخلاصة

نخلص مما سبق إلى أن هناك مصطلحاً خاصاً يستخدمه المفكرون المسلمون، ويعالجون قضايا التنمية داخل إطاره، وهو مصطلح العمارة، بإطلاقيها: عمارة الأرض، وعمارة البلاد.

وأنّ هذه العمارة في الاقتصاد الإسلامي ليست عملاً دنيوياً محضاً، بل هي عمل تعبدي فيه طاعة لله عز وجل؛ فكل خطوة يخطوها الإنسان في طاعة الله ولو كانت في شؤون الدنيا، والسعي إلى الرزق هي عبادة، وأنّ هدف العمارة هو إقامة مجتمع المتقين، المجتمع الذي يتمتع بأعلى مستويات المعيشة الطيبة، وأعلى مستويات الإنتاج، وأرشد مستويات الاستهلاك، وأعدل مستويات التوزيع، مع استشعار تقوى الله في كل مرحلة من مراحل النشاط الاقتصادي في هذا المجتمع.

المراجع

١. أحمد بن علي الجصاص، أحكام القرآن، بيروت.
٢. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصر ١٣٩٠هـ
٣. أميرة مشهور، تنمية المال في الاقتصاد الإسلامي، القاهر، ١٩٨٨م.
٤. ابن حجر، فتح الباري، الرياض.
٥. حمد الجنيدل، مناهج الباحثين في الاقتصاد الإسلامي، الرياض، ١٤٠٦هـ
٦. خورشيد أحمد، إستراتيجية التنمية من مفهوم إسلامي، تونس: ١٩٨٠م
٧. رفعت العوضي، من التراث الاقتصادي للمسلمين، مكة، ١٤٠٥هـ
٨. سعيدة مرطان، مدخل للفكر الاقتصادي في الإسلام، بيروت، ١٤٠٦هـ
٩. السيد محمد عاشور، رواد الاقتصاد العرب، مصر، ١٩٧٤م
١٠. الشريف الرضي، نهج البلاغة، بيروت، ١٤٠٥هـ
١١. شوقي دنيا، الإسلام والتنمية الاقتصادية، القاهرة، ١٩٧٩م
١٢. شوقي دنيا، أعلام الاقتصاد الإسلامي، الرياض، ١٤٠٤هـ
١٣. عبدالرحمن يسري أحمد، التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام، الإسكندرية.
١٤. علي عبدالرسول، المبادئ الاقتصادية في الإسلام، القاهرة، ١٩٨٠م
١٥. محبوب الحق، ستار الفقر، القاهرة، ١٩٧٧م
١٦. محمد أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، ١٩٧٧م.
١٧. محمد عبدالرؤوف المناوي، فيض القدير، دمشق، ١٣٩١هـ
١٨. محمد الغزالي، ظلام من الغرب، دمشق، ١٣٩١هـ
١٩. يوسف إبراهيم يوسف، إستراتيجية وتكنيك التنمية الاقتصادية في الإسلام، القاهرة، ١٤٠١هـ
٢٠. يوسف كمال محمد، فقه الاقتصاد الإسلامي، الكويت، ١٤٠٨هـ
٢١. حسين أحمد فهمي، ديناميكية النظام الاقتصادي الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٨هـ
٢٢. خورشيد أحمد، التنمية الاقتصادية في إطار إسلامي، جدة، ١٩٨٥م.
٢٣. ربيع الروبي، المنهج الإسلامي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٨٤م.
٢٤. سلطان أبو علي، التنمية والأخلاق، القاهرة، ١٤٠٩هـ
٢٥. عبدالملك الأحمر، من تاريخ الفكر الاقتصادي في الإسلام، دبي، ١٤٠٥هـ
٢٦. محمد شوقي الفنجري، المفكرون المسلمون والتنمية الاقتصادية، القاهرة، ١٤٠٤هـ
٢٧. محمد القري بن عيد، استعراض للكتابات المعاصرة في التنمية الاقتصادية من المنظور الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٩هـ
٢٨. نعمت مشهور، حول الدور الإنمائي والتوزيعي للزكاة، القاهرة، ١٤٠٨هـ
٢٩. يوسف إبراهيم يوسف، المنهج الإسلامي في التنمية، القاهرة، ١٤٠٩هـ
٣٠. يوسف خليفة اليوسف، مشكلة التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي، دبي، ١٩٨٤م.

تراث الخليقة والطوفان بالحروف الأولى

نذير العظمة
دمشق - سورية

حين كانت تعد الملاحم «المهابها رتا» الهندية والشاهنامة الفارسية والإلياذة والأوديسة الإغريقيتان والإنيادة الرومانية، وما تناسل منها في تقاليد الحضارة الأوربية الحديثة، كأغنية رولاند الفرنسية، وكوميديا دانتي، والفردوس المفقود لملتون، وهي جميعًا تعد من الروائع العالمية التي ترجم أغلبها أكثر من مرة إلى اللغات الحية، وبعضها إلى لغتنا العربية، حين كانت تعد فخرًا وإرثًا ورمزًا لتفوق الآداب الأوربية وحضاراتها، تبقى آدابنا العربية ونسبها المشرقي الممتد في الزمان إلى خمسة آلاف سنة قبل المسيح إلى فجر الحضارة السومرية في بلاد الرافدين، خلوًا من الملاحم إلى أن اكتشفت ملحمة قلقامش وتتالت ترجماتها إلى معظم اللغات لكونها أقدم ملحمة عرفتها حضارات العالم القديم.

وكان لاكتشاف ملحمة قلقامش التي تتبوأ مكانتها من الأدب العالمي كلؤلؤة مشعة بين الملاحم، واندراجها بين الروائع العالمية نتائج مهمة على الساحتين الفكرية والإبداعية(١).

مجاهدة

لقد سُقط في أيدي كثير من المنظرين الذين كانوا ينظرون إلى مسألة الأجناس الأدبية بمعيار التفوق الحضاري والعرقي فألحقوا الملاحم، بوصفها أجناس أدبية متفوقة، بالعرق الآري والإرث الأوربي وما شاكل ذلك، وجعلوا الساميين أو فنونهم الشعرية مقتصرة على الشعر الغنائي، وظلت منطقتنا تجاهد تحت المظلة الأوربية الإغريقية وتفوّقها زمنًا طويلاً دون أن تتساوى أجناسنا الأدبية مع أجناسها، وظل تفوّقها الحضاري مسوغًا سخيفًا للسيطرة علينا حضارياً، ومن ثم ثقافيًا وسياسيًا واقتصاديًا، إلا أن اكتشافات وادي النيل وسورية وبلاد الرافدين كشفت النقاب عن موروثات من الشعر الأسطوري والملحمي والقصصي سبقت الإغريق الذين كانوا مدينين لها في زعم كثير من الدراسات الأركيولوجية والأنثربولوجية (علم الآثار وعلم الإنسان) والبحوث الحضارية

باعتراف المختصين في هذه العلوم من الأوربيين أنفسهم. «فالحضارة تبدأ في سومر»، و«لكل إنسان وطنان وطنه وسورية»، و«حضارة وادي النيل كأم للدنيا»، ونهضة العرب في الحقبة الإسلامية وخدماتهم التي لا تثمن في بزوغ حضارة أوربا الحديثة تعكسان نقطة تحول في قناعات الدارسين والمختصين الأوربيين.

وقد سرد توفيق الحكيم في روايته «عودة الروح» حشداً من آراء المستشرقين في حضارة مصر في فصل من فصولها يتصور فيها حواراً بين مستر بلاك مهندس ري إنجليزي ومستر فوكيه عالم آثار فرنسي يتناقشان في قيمة الحضارة الشرقية ومصر بالنسبة إلى حضارة الغرب، سرد قبسات من آراء المستشرقين في هذا الشأن يؤكد روحية الحضارة المشرقية وأولويتها(٢).

فالاكتشافات قلبت الموازين فصار الأول غير الأول والتابع أصبح في صف الرواد من خلال المنظور الحضاري. وأصبحت الحضارة الأم للحضارة الأوربية: الإغريقية والرومانية، مدينة للحضارات المشرقية؛ وبذلك تهافتت معايير التفوق العرقي، والحضاري، وتهاوت حجج الهيمنة على التحكم بالشعوب، ولاسيما العربية.

وكان لاكتشاف موروثات هذه الحضارات تأثير مماثل على ما يسمى بالدراسات التوراتية، فاليهود كالغربيين الذين يرون في الشرق منطقة نفوذ، يعبرون عن عقدة تفوق مشابه حيال غيرهم من الساميين.

مساءلة

ومن أهم النتائج التي خلفتها هذه الاكتشافات أن التوراة كسجل تاريخي للعبرانيين لم يعد الوثيقة الأولى في معرفة حضارات المنطقة وجذورها التاريخية، فبعد أن كان تاريخ المنطقة وحضارتها يقاسان ويقومان بما جاء في التوراة أصبحت التوراة ذاتها محل مساءلة في ضوء المكتشفات والحفريات الحديثة، وتتابعت دراسات المختصين في ميادين الاستشراق وحقل الدراسات التوراتية لتقيم موازنات ومقابلات بين رواية التوراة لقصة الخليقة ورواية اللوائح الأكادية والبابلية لها. كما حظيت قصة الطوفان باهتمام مماثل وقد احتفظت لنا ملحمة قلقامش بثبت كامل عنها.

وخلصت معظم الدراسات إلى أن العبرانيين مدينون لحضارات الشرق الأدنى في كثير من آرائهم ومعتقداتهم حول الحياة والكون والإنسان وما وراء الحياة لا لقصتي الخليقة والطوفان فحسب، حتى فكرة التوحيد التي يتفاخر اليهود بأنهم أصحابها، والذين أعطوها باقي الحضارات والشعوب فينابيعها المصرية القديمة والبابلية والعربية الجاهلية لم تعد مجهولة. آمون المصري ومردوخ البابلي والله الذي نزهته الأفهام عن الشرك. إذن لقد توهج التوحيد في إيمان الشعوب في المنطقة قبل «يهوه» الذي يتحيز كإله أوحد لليهود وحدهم ضد باقي الشعوب.



سيغموند فرويد

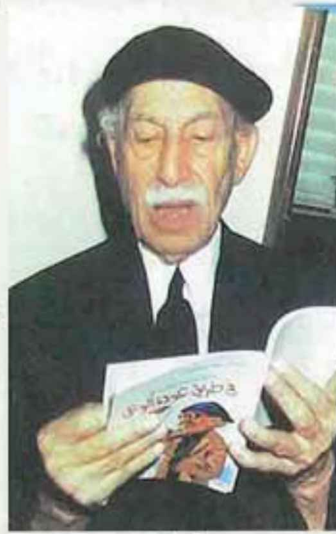
العبرانيون مدينون لحضارات الشرق الأدنى في كثير من آرائهم ومعتقداتهم حول الحياة والكون والإنسان وما وراء الحياة لا لقصتي الخليقة والطوفان فحسب

وجدير بالذكر أن سيغموند فرويد صاحب مذهب التحليل النفسي المشهور، وهو ألماني يهودي، له كتاب طريف عن موسى ترجمه إلى العربية جورج طرابيشي، وفي اعتقاد فرويد أن موسى التوراة هو حصيلة ثلاثة أنماط توحدت في شخص واحد. فهناك موسى العبراني، ثم هناك موسى المصري، ثم هناك موسى العربي، وصورة موسى التاريخية التي نعرفها في التوراة ما هي إلا حصيلة دمج للثلاثة في شخصية واحدة.

وقد حذرنا القرآن الكريم من التوراة المحرفة والأفكار والمعتقدات والصور التي تصاحبها، فإبراهيم لم يكن يهودياً بل مسلماً حنيفاً. فهو أبو التوحيد الذي تشهد له الفطرة، وجاء به الوحي في الإنجيل والقرآن الكريم، والفرق شاسع بين صورته الفقيرة في التوراة وصورة إبراهيم فيهما، إن التوحيد العبراني الذي ينطوي على تحيز قبلي وعنصري لا يمت بصلة إلى إبراهيم. وليس بدعاً أن يكون التوحيد موجوداً بشكل أو بآخر في المنطقة كلها وفي حضاراتها لا عند اليهود فحسب، والأرجح أنهم مدينون لها، وليسوا بالسابقين.

إن الصورة التي أعطتها التوراة لإبراهيم لا تشابه بأي شكل من الأشكال الصورة الروحية المتكاملة والعميقة التي جاءت في القرآن الكريم والإنجيل، فهو راع في التوراة ينتقل بين كنعان ومصر تحتكم له العشيرة فيحكم لنفسه بعيداً عن الإنصاف والعدل، بينما هو أبو الأنبياء وأبو التوحيد في القرآن الكريم وفي الأديان السماوية الثلاثة، ومؤسس البيت العتيق وبانيه فشتان ما بين الصورتين.

النص العربي الإسلامي للحضارة لم يتنكر لمكتسباته من الإغريق، فقد صانها ونقلها إلى الغرب بعد أن أضاف إليها الكثير من إنجازاته وعطاءاته


توفيق الحكيم

والحق أن العودة إلى إبراهيم الخليل في القرآن الكريم هي تصحيح لصورة التوحيد التي شوهها العبرانيون بالروح القبلية والنزوع العنصري، من هنا نفهم اختلاف الصورتين لإبراهيم الخليل مبطل الشرك ومؤسس التوحيد النقي الذي هو جوهر الإسلام، لذلك فإن الذكر الحكيم وصف النص القرآني أي الوحي «بالمهيمن» على ما سبقه من نصوص في تاريخ الأديان.

تياران

مهما يكن، فهناك تياران أثرا تأثيراً جذرياً في التراث العبراني، هما تيار المردوخي البابلي والتيار الكنعاني، فمن التيار الأول استعار اليهود قصة إينوما إيليش أو الخليفة و«كما في الأعالي» لقد أخذ العبرانيون قصة الطوفان تقريباً كاملة من هذا التيار.

ولكي لا نطيل على القارئ نكتفي بمثال من قصة الخليقة البابلية وآخر في الرواية التوراتية، ونعطف بعدها على الطوفان.

إن قصة الخليقة البابلية تجري كما يأتي:

- النور يشع ويتولد من الآلهة.
- خلق السماء.
- خلق الأرض.
- خلق الأجرام السماوية.
- خلق الإنسان.
- مردوخ ينتهي من الخلق والآلهة تحتفل به.

أما القصة التوراتية فهي:

- خلق النور.
- خلق السماء.
- خلق الأرض.
- خلق الأجرام السماوية.
- خلق الإنسان.
- الله يستريح(٣).

ونترك للقارئ أن يعلق على هاتين الروايتين المتشابهتين إلى حد التطابق، والبابلية طبعاً سبقت التوراتية وكتبة التوراة لم يغيروا الأصل تغييراً ملحوظاً.

أما الطوفان البابلي والطوفان العبراني فيتشابهان، لا من حيث الإطار العام والمرجعية الفكرية الواحدة، بل إن كثيراً من التفاصيل مشتركة بين القصتين.

ففي كلتيهما تغضب السماء على الأرض، وتريد بالطوفان إفناء الجنس البشري الفاسد. وتختار عبداً صالحاً ليبني سفينة كبيرة - تفصيلات هذا البناء

متقارية في كلتا الروايتين - لينقذ الحياة وبذورها من كل زوجين اثنين.

حدوث الطوفان وإبحار السفينة «كل البشرية تحولت إلى طين»، وفي اليوم السابع توقفت عاصفة الطوفان.

يقول نوح البابلي «ركعت هناك، وصليت دون حراك، وبكيت، وعلى أنفي كانت تسيل الدموع - تطلعت إلى الشواطئ على حدود البحار - وعلى مسافة عشر ساعات مضاعفة» انبثقت من الأرض - وعلى جبل «نصير» استقرت السفينة. ثم يطلق نوح بابل الحمامة والغراب والسنونو بينما نوح التوراة يكتفي بإطلاق الحمامة، ثم الغراب. وتستقر السفينة على جبل أراراط الذي يقابل جبل الجودي في القرآن وتنقذ السماء في كلتا الروايتين البابلية والتوراتية الرجل الصالح وبذور الحياة الخيرة وتزيل الشر والفساد عن الأرض بقضاء إلهي(٤).

وواضح من قصة الخليقة وقصة الطوفان في الروايتين البابلية والعبرانية أن الذين دونوا التوراة استعانوا بالنموذجات البابلية السابقة في تأريخ حياة الإنسان الأولى على الأرض، والحوادث الكونية التي ألمت بها كالطوفان. فالرواية التوراتية في درسات المختصين حتى اليهود منهم لم تعد الوثيقة الأولى باكتشاف اللوائح البابلية.

ولم يكن اليهود أقل استفادة من التاريخ الكنعاني ودياناته وأساطيره بدءاً باللغة ومروراً بالمعتقدات وانتهاء بالنظرة الشاملة إلى الحياة والكون.

حتى إن علماء اللغات القديمة ما عندهم أدنى شك في أن اللغة العبرانية التي سماها اليهود أنفسهم «شفة كنعان» في التوراة، هي الكنعانية الجنوبية أو لهجة من لهجات اللغة الكنعانية الأصل. حتى إن هـ.ي. ديل مديكو يدعو أحد مؤلفاته «التوراة الكنعانية» للتشابه الصارخ بين أدب التوراة ولغته وميراث الكنعانيين ولغتهم.

الاكتشافات قلبت الموازين فصار الأول غير الأول، والتابع أصبح في صف الرواد من خلال المنظور الحضاري، وأصبحت الحضارة الأم للحضارة الأوربية: الإغريقية والرومانية، مدينة للحضارات المشرقية



دانتي

والعلماء اليهود أو أكثريتهم لم ينكروا ذلك. ولكنهم هوّنوا من الأمر بقول بعضهم «إن الفكر التوراتي صب الزيت الجديد في الأواني القديمة» وهو زعم لم ينهض على قدميه. وأبطلته الدراسات المختصة الكثيرة، ولأدموند جاكوب أستاذ جامعة ستراسبورغ كتاب بعنوان: «رأس شمرا أوغاريت والعهد القديم» يذهب هذا المذهب.

وهكذا، فإن اكتشاف مواريث بابل وكنعان ومصر لم يزحزح مرجعية النص التوراتي وسلطته فحسب، بل إن كلاسيكية النص الإغريقي وتفوقه وأوليته أصبحت أيضاً موضوعاً للدراسة والمساءلة، وصارت قصة الخليفة البابلية وملحمة قلقامش محورين لدراسات نقدية مختصة كثيرة، لكونهما النموذج الأعلى للآداب الإنسانية في تعبيرهما عن قلق الوجود الإنساني وسعيهما إلى اكتشاف المجهول وتوقهما إلى الخلود وتثمين الصداقة والمرأة والبحث عن بذور الحياة وأسرارها وجوهرها.

فإذا كان الطوفان البابلي هو النموذج الأعلى للطوفان العبراني، فإن ملحمة قلقامش وقصة الخليقة البابلية هما أيضاً في موقع النموذج الأعلى لملاحم الإغريق لاسيما الأوديسة وقصة الخليقة في موروثهم إلا أن الدراسات النصوصية لعلاقة الميراثين: الإغريقي والبابلي انصبت على المشابهة والمؤازاة

وأولوية النموذجات البابلية لعدم توافر الوثائق التاريخية، بينما انصب الاهتمام على أصولية البابلي والكنعاني بالنسبة إلى الإرث العبراني لتوافر عناصر المعايشة والمجاورة والوثيقة في آن.

إن النصوص الرافدية والسورية والمصرية هي المهيمنة في علاقة العبرانيين بهذه الحضارات، وكما جاء الإسلام ليصحح الوضع بالوحي الواحد كذلك جاءت الحفريات الأناسية لتؤيد ذلك بالعلم.

نص مهيمن

وهكذا، فإن أولوية النص البابلي والكنعاني بالنسبة إلى ميثولوجيا الإغريق وملاحمهم لم تغير المساحة المعرفية لذاكرة الإنسان فحسب، بل استدعت إعادة تراتب المواريث الكلاسيكية للإنسان وتبدلت المعايير بتبديل المعارف العلمية والتاريخية، كما تغيرت الموازين.

فالنص البابلي والكنعاني في ضوء المكتشفات الحديثة برز كنص مهيمن لا بالنسبة إلى الآداب الكلاسيكية فحسب، بل بالنسبة إلى كثير مما جاء في التوراة من قصص الخليقة والطوفان وغيرهما. فاقتضى ذلك من المؤرخين والمختصين أن يصححوا الوضع، ويحلوا الصورة المعرفية الجديدة محل الصورة القديمة.

وكذلك، فإن النص العربي الإسلامي للحضارة لم يتنكر لمكتسباته من الإغريق، فقد صانها ونقلها إلى الغرب بعد أن أضاف إليها الكثير من إنجازاته وعطاءاته لتتابع شعلة الحضارة توهجها على مدى العصور وبشراكة معظم الشعوب لا شعب أوحد.

نتيجة

وهكذا، فإن تطور علمي الآثار والأناسة واتساعهما والتطورات المعرفية التي تركاها على الساحة العلمية أدت إلى زحزحة التوراة كمصدر أوحد كما كان من قبل حتى مطالع القرن التاسع عشر وبدء الكشوف العلمية في مصر وسورية وبلاد الرافدين لهذين العلمين الخطيرين. وصار ما جاء في التوراة من معلومات عن هذه البلدان يقاس على ما تم من كشوف علمي الآثار والأناسة بعد أن كانت هذه المعلومات غير منازعة. لم يكن ذلك في دوائر الدين والاجتماع والتاريخ فحسب، بل تعدى ذلك إلى دوائر الحضارة والثقافة والأدب. و«يهوه» اليهود لم يكن غير صورة أقرب عن «إيل» كنعان واللغة العبرانية إن هي إلا اللهجة الجنوبية للغة الكنعانية التي سميت بشفة كنعان بلغة التوراة.

وقد سارع علماء التوراتيات من اليهود وغيرهم إلى تبني الكشوف الحديثة ومناقشتها مناقشة مقارنة مع ما توافر من موازيات لها ومصادر ومشابه في الكتاب المقدس ليحافظوا على المكانة العلمية التي اكتسبها خلال العصور.

غير أن الحقيقة العلمية فرضت نفسها بالأدلة والبراهين الملموسة في علمي الآثار والأناسة على ما جاء في التوراة من حقائق ممزوجة بالخرافات العنصرية ومصاغة صياغة عبرانية لتدعم تفوق اليهود على غيرهم من الأقوام.

حتى التوحيد الذي تاهوا على العالم بالسبق إليه أخذوه من المصريين والبابليين والكنعانيين ومزجوه بعقيدة «شعب الله المختار» التي ولدت فيهم الاحتقار لباقي الشعوب، والميل إلى القسوة والعنف تجاهها حتى جاء الإسلام فنقى عقيدة التوحيد من العنصرية والخرافة واتجه بها إلى مسار إنساني عالمي بعدما اكتنفتها العواطف العنصرية ونزعات الاحتكار.

المراجع

١. انظر «ملحمة قلقامش» لطه باقر، بغداد ١٩٧٤م، ص ٧ - ٥٠ لا سيما أدب وادي الرافدين القديم ومكانته في تاريخ الآداب العالمية.
٢. توفيق الحكيم، عودة الروح، القاهرة: (دون تاريخ، ص ٥٧ - ٦٤)، بالإضافة إلى مناقشة مستر بلاك ومستر فوكيه حول مكانة مصر في الحضارة الإنسانية. انظر ما استشهد به مستر فوكيه من آراء المستشرقين من علماء المصريات في نهاية المناقشة.
٣. انظر مفيد عرنوق، التوراة والتراث السوري، منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦م.
٤. انظر أيضاً بابل والكتاب المقدس لجان بوتيرو، دار كنعان للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ص٣.

رحلة القلصادي الحجازية

آخر الرحلات العلمية الأندلسية

سعاد الناصر
تطوان - المغرب

إن الرحلة العربية من الأجناس الأدبية النثرية التي لم تدرس من الناحية الجمالية والفنية، لأنها عُدّت في أغلب الأحيان خارج حدود مفهوم الأدب، وعدت ضمن الوثائق التاريخية الدالة على المظاهر الثقافية للفترة التي عاش فيها صاحبها، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعت على مر العصور أن تحقق لنفسها خصائص ومكونات متباينة متميزة بها من الأجناس الأدبية الأخرى.

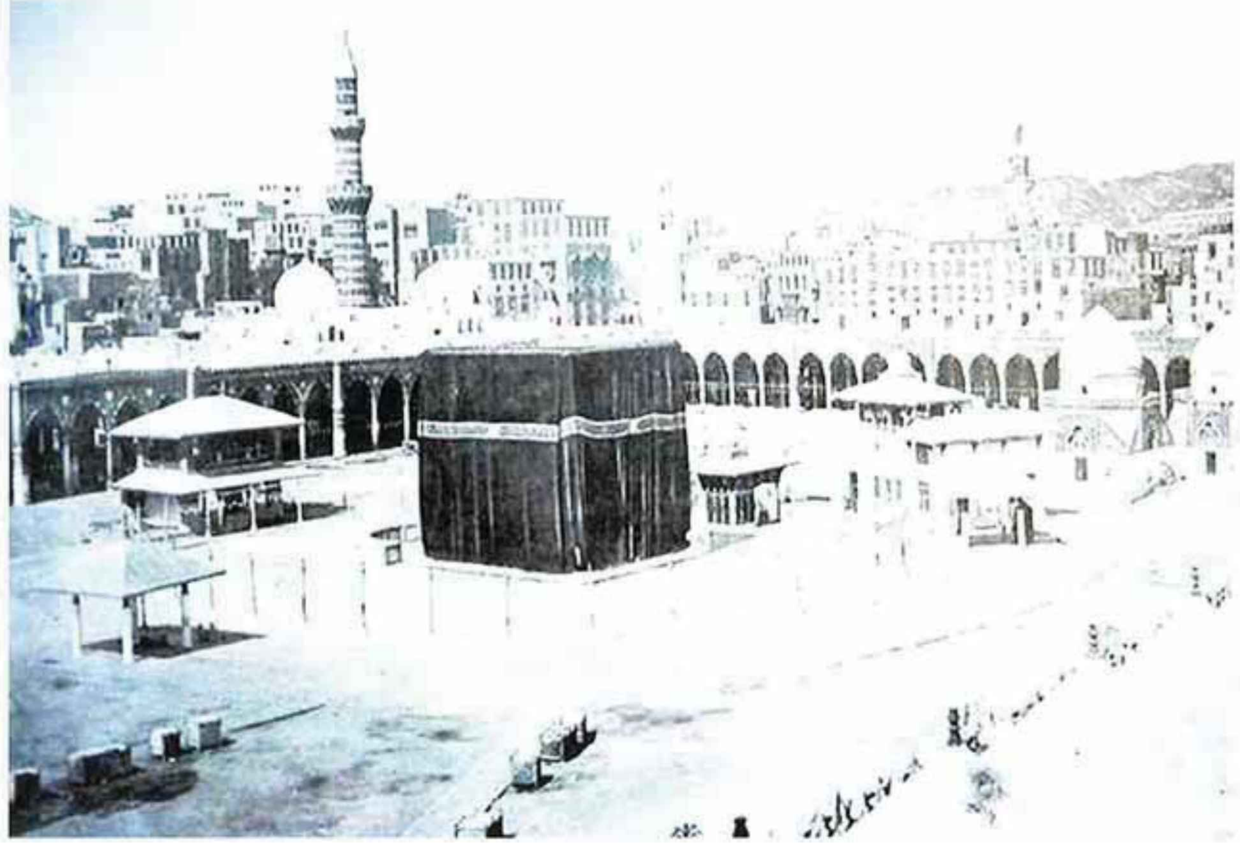
ومحاولة استكناه الملامح الأدبية فيها تكشف جملة من الصيغ الجمالية التي تدخلها في مجال الأدب. فهي، على استنادها إلى الحقيقة والمرجعية الصادقة ومناشدة الفائدة العلمية المباشرة، وابتعادها عن التخييل الذي هو صفة لازمة لأي نص جمالي، قد عوضت ذلك بالكثافة البلاغية، كما أنها تجسد تجربة إبداعية وإنسانية تدفع الباحث الأدبي إلى محاولة الكشف عن تشكيلاتها الجمالية المختلفة التي صيغت فيها.

القلصادي طالب العلم

ومن هنا، يسعى هذا البحث إلى الكشف عن بعض العناصر المكونة لآخر الرحلات الأندلسية المتجهة نحو الحجاز، وهي رحلة أبي الحسن علي القلصادي الأندلسي(١).

وهو أبو الحسن بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي(٢) الشهير بالقَلَصادي (بعضهم يسكن اللام) من علماء الأندلس الذين عايشوا احتضار معقل من معاقل الإسلام، وجنّة من جنانه، وهو على ذلك، لم يتخلّ عن طلب العلم والحرص على الاستفادة من علماء الأندلس القاطنين في المدن والقرى المجاورة لبلدته بسْطه؛ وحرصه العلمي لم يقف به عند حدود الأندلس، وإنما جعله يتلمس العلم في تونس والمشرق، على الرغم من المخاطر التي كانت تكتنف بلاده، والأخطار التي كانت تترصد في الطريق.

ولم يكن يتلقى العلم فقط، بل يقدم معارفه وعلمه ويدرِّس في كل البقاع التي زارها ووطئها، حتى قيل عنه في مجال التدريس: «كان على قدم في الاجتهاد والتدريس»، ولذلك نجده يذكر في حديثه عن نشاطه العلمي أنه يطلب العلم قراءة وإقراء. وفي ذلك يقول أحد



صورة قديمة للحرم المكي

تلاميذه وهو أبوعبدالله محمد الملالي: «كان عالمًا فاضلا شريف الأخلاق سالم الصدر، له تآليف أكثرها في الحساب والفرائض كشرحه العجيب على تلخيص ابن البنا، وشرحه العجيب على الحوفي، انتفع عليه خلق كثير»(٣) ويصفه المقَّري بأنه كان كثير المواظبة على الدرس والكتابة والتأليف. وكان في كل بلدة ينزل بها يؤلف عدداً من التصانيف العلمية، من ذلك ما ألفه في تونس من مثل «انكشاف الجلباب عن قانون الحساب»، وفي مكة ألف «شرح فرائض ابن الحاجب» وغير ذلك من المصنفات التي عدّ بها «آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس»(٤).

ومن الأئمة الذين تتلمذوا له الشيخ أحمد بن علي بن داود البلوي، ويصف شيخه بقوله: «شيخنا الإمام العالم الصالح، خاتمة الحساب والفرضيين أبوالحسن، أصله من بسطة، وبها تفقه على شيخ طبقتها وبقية شيوخها أبي الحسن علي القرباقي، ثم انتقل لغرناطة فاستوطنها لأخذ العلم، فأخذ بها عن جملة شيوخها، كالأستاذ أبي إسحاق بن فتوح، والإمام المشاور أبي عبدالله السرقسطي وغيرهما، رحل للشرق فلقي كثيراً وانتفع به (...) ثم حج، ولقي أعلاماً، وعاد إلى غرناطة فوطنها حتى حل بوطنه ما حل فتحيل في تخليصه من المشرك، فأدركته المنية بباجة من إفريقيا منتصف ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وثمانمائة»(٥). ونص البلوي يبين أن القلصادي لم يكن يهتم بالعلم فقط، وإنما كان مشاركاً في الخروج ببلاده من البلاء الاستعماري الذي اجتاحها، لكن المصادر التي تؤكد هذه المشاركة لم تفصل في كيفيتها وطبيعتها إلا بألفاظ غامضة من مثل «فتحيل في تخليصه من المشرك» نستشف منها اهتمامه وفاعليته، ولا ندرك كيفية عمله في تخليص بلاده من المستعمر.

والرحلة(٦) التي بين أيدينا، بالإضافة إلى قيمتها الأدبية، تعد وثيقة من أهم الوثائق التي أرخت للدرس العلمي في الأندلس، وبخاصة في فترة من أحلك الفترات التي مرت بها هذه الربوع الإسلامية، وهي سقوطها الأخير في يد الصليبيين، وخروج المسلمين منها. ويرتبط عنوانها «تمهيد الطالب، ومنتهى الراغب، إلى أعلى المنازل والمناقب» ارتباطًا وثيقًا ببنية النص الرحلي، ذلك أنه يشير إلى الغاية من كتابته، وهي كما صرح في المقدمة بقوله:(٧) «فالمقصود من هذا الموضوع أن يكون معرِّفًا بأشياخي من أهل العلم الذين أخذت عنهم رضي الله عنهم، وأرضاهم، وبرحلتي من بسطة مسقط رأسي وموضع أول أنفاسي، مقر الألفة والأنس من جزيرة الأندلس، أدامها الله للإسلام، وحماها من عبدة الأصنام». واستخدام الكاتب للجملتين الاسميتين وشبه الجملة في العنوان يدل على الثبات في الطلب والرغبة، وعلى قصدية التوجه بالرحلة الذي هو الارتقاء بالذات في السلم المعرفي إلى مرتبة دالة على الرفعة لنيل الشرف العلمي.

وهذا التوجه ليس مقصورًا على الذات، على الرغم من احتسابها موضوعًا أساسيًا في الرحلة، وإنما هو موجّه أيضًا إلى الطالب الراغب في التلقي والارتقاء. وبهذا تكون الرحلة بسطًا للتجربة التعليمية مما جعلها بؤرة القول، وتعريفًا ذاتيًا بهاجس التنقل الذي يأخذ بتلابيب المسلم، في طلب العلم أو في تأدية الواجب الديني على السواء. وقد نص القلصادي على ذلك في أول الرحلة بقوله(٨): «الحمد لله الذي جعل طلب العلم واجبًا على البعض من المسلمين، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: *فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفةٌ ليتفقّهوا في الدّين*. التوبة:١٢٢، وفرض الحج على المستطيع من المؤمنين، وألزمهم التكاليف حجة عليهم ودليلا، فقال سبحانه وتعالى: *ولله على الناس حجُ البيت من استطاع إليه سبيلاً*. آل عمران: ٩٧.

وقد استخدم الكاتب ضمير الأنا المتكلم ليجعل من نفسه ساردًا للرحلة وشخصية فاعلة فيها، فهو الذي قام بالرحلة، لكنه لم يدونها بنفسه، وإن دُوِّنت في حياته، ولذلك جاء في آخرها(٩): «انتهى التقييد المبارك بحمد الله تعالى وعونه على يدي مقيّده لنفسه عبيد الله علي بن القاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري غفر الله ذنوبه وستر في الدارين عيوبه، بتاريخ يوم السبت الخامس عشر من شهر ربيع الأول الشريف من عام سبعة وسبعين وثمانمائة هـ بموافقة الثاني والعشرين من غشت الأعجمي ١٤٧٢م، وكان مبدأ نسخه في الشهر الفارط صفر بمدرسة غرناطة أيدها الله». إننا أمام نص مكتوب من طرف شخصين: شخص فاعل في الرحلة سردها لشخص ثان هو الكاتب الضمني لها، والذي ينقل كلام السارد الحقيقي بين الفعل والسرد، وضمير المتكلم فيها يحيل إلى المعرفة والإخبار بالحدث التعليمي.

السفر يشكل بنية كاملة تحكم نص الرحلة برمته، وينفتح على وصف فضاءات متعددة ومختارة، كما ينفتح على خطابات متنوعة سعت من خلالها إلى معانقة أبعاد جمالية لتجسيد تجربة تدخل في مجال الأدب

والسفر والتنقل مكوِّن أساسي من مكونات الرحلة بصفة عامة، وقصديته عنصر بنائي مهيمن فيها، ولذلك فإن الكتابة عنه تقتضي استخدام لغة تواصلية تستند إلى أنظمة تعبيرية متنوعة، منها ما هو نمطي يتبع طريقة السرد على غرار الرحلات الأندلسية السابقة من حيث الابتداء بالبسملة والحمدلة، ونسبة القول إلى الذات الساردة، وإبراز الدافع المباشر من الرحلة ونوعها واتجاهها ثم اختتامها. ومنها ما هو إبداعي يفسح المجال للصيغ الجمالية أن تظهر في تنويعات متميزة ضمن سياق الرحلة.

ورحلة القلصادي من الرحلات النمطية التي تتبع سنة الرحلات الأندلسية والمغربية السابقة؛ ولذلك نجد أن الرغبة في السفر والرحلة نحو الديار المقدسة يبعثها الحنين إلى مهبط الوحي، والتشوق إلى زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين يقترن هذا



من معالم الإسكندرية

الحنين بعمق التشبع بالقيم الإسلامية التي تغذي الميل نحو النظر في الكون والآفاق والتفكير فيها واستجلاء مكامنها، والحث على السعي وراء العلم، كما في رحلة القلصادي، ندرك تلك المشاعر التي كانت تصاحب الرحالة المغربي أو الأندلسي وهو يرتاد دور العلم في أنحاء العالم الإسلامي، ويتصل بالعلماء والرواة للأخذ عنهم واستجازتهم، كما نتبين الرغبة الكامنة لديه في تدوين تجربته العلمية. والسفر يفرض التنقل من مكان إلى آخر، ويجعل من الفراق حتمية واقعة تثير في الذات الساردة نوعًا من القلق والتوتر، يقول واصفًا فراقه لشيخه علي اللخمي في بداية سفره بأسلوب حزين(١٠): «ثم جئت الشيخ للتوديع، ولهيب الفراق على القلب يذيع، فأذنت النفس للدموع بالانسكاب، وأضرم في القلب نار الشوق والالتهاب، فودعته والجوانح ملتهبة، والدموع منسكبة، والتشوق بالقلب لاعب، وغراب البين بالأحبة ناعب، فأكببت على يديه مودعًا، وفؤادي من الفراق متوجعًا، وعبراتي يتحدرن من المآقي، وزفراتي يتصعدن من التراقي، وكانت خاتمة التلاقي».

وبما أن الهدف من هذه الرحلة كان لقاء العلماء وتعريفهم، كما ذكر في مقدمتها، فقد اتبع الكاتب منهج الرحلات الفهرسية التي توثّق ما قرأه على شيوخه، أو أقرأه لطلبته، وذلك باستعماله لألفاظ معينة من مثل: قرأت عليه كذا.. فقرأت عليه بلفظي.. وقابلت معه.. وحضرت عليه بقراءة غيري وهكذا.

وكان في تعريفه بالشيوخ الذين التقاهم يلتزم الإيجاز، ولا يتوسع في بسط الأخبار عنهم، ولا يذكر إلا ما يتصفون به من زهد وورع وتفقه، وهي الخصال التي تعجب القلصادي ويركز فيها في أوصافه ليبين مكانة الشيخ العلمية والدينية.

فالشخصيات التي ترجم لها، أو التي كان لها دور في رحلته تفتقد الملامح الجسدية (الفسيولوجية)، إلا أن تأثره ببعضها جعله يفصل القول في بعض تصرفاته المتسمة بالصلاح والتقوى، من مثل قوله في شيخه

محمد بن مرزوق بعد تحليته بمجموعة من الصفات(١١): «كان - رضي الله عنه - من رجال الدنيا الآخرة، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلاً ونهاراً: من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة، وأوقات مشهودة، وكان له بالعلم عناية تكشف بها العماية، ودراية تعضدها الرواية، ونباهة تكسب النزاهة» ومثل هذا التعريف غير كاف لتحديد سمات شخصيات الرحلة، ولكنه يبرز تلك العلاقة القائمة بينها وبين الرحالين، والتي كانت ثمرة الاحتكاك واللقاء العلمي، كما تلقي الضوء على شخصية الكاتب نفسه من حيث مستواه العلمي والأخلاقي.

وحرصًا على إثبات الدافع إلى الكتابة، فقد مزج القلصادي بين منهج الرحلات الفهرسية التوثيقي، ووصفة للبلدان التي مر بها في أثناء الذهاب والإياب، منذ خروجه من بسطة إلى أن وصل إلى البلد الحرام. وتحدث عن طريق العودة بعد زيارة المدينة المنورة على أثر أداء مناسك الحج إلى أن وصل ميناء ألميرية الأندلسي، إلى أن قصد مسقط رأسه بسطة. وقد دفعه حرصه التوثيقي إلى التأريخ لانتقاله من مكان إلى آخر.

ارتباطه بالمكان

وهكذا نرى أن السفر يشكل بنية كاملة تحكم نص الرحلة برمته، وينفتح على وصف فضاءات متعددة ومختارة، كما ينفتح على خطابات متنوعة سعت من خلالها إلى معانقة أبعاد جمالية لتجسيد تجربة تدخل في مجال الأدب.

ويعدّ المكان مكونًا مركزيًا في الرحلة، ولذلك نجد القلصادي يركز فيه في رحلته، فيذكر المكان الذي انطلقت منه، وهو فضاء حميمي بالنسبة إلى السارد فنجده يقول عنه بأسلوب مفعم بالمرارة التي يحسها من شدة الخوف عليه(١٢): «ثم ارتحلت عن مسقط رأسي، ومحل أنسي، مع أبناء جنسي، بسطة سقى الله أرجاءها المشرقة وأغصانها المورقة شآبيب الإحسان، ومهّدها بالهدنة والأمان». والوعي للحالة التي كانت تهدد أمن البلاد في تلك الفترة من حياة الأندلس جلي وواضح في دعاء الكاتب كلما أتى ذكرها في الرحلة، ثم يقول في وصفها بجمل قصيرة مسجوعة من غير تكلف إذ ينفذ إلى الغرض مباشرة(١٣): «دار تخجل منها الدور، وتقصر عنها القصور، وتقر لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن والفضائل، من صحة أجسام أهلها وما طبعوا عليه من كرم الشمائل، لهوائها الصحيح، وفضائها الفسيح، وبحسبك فيها عدم الحرج؛ لأن داخلها باب الفرج». ولا يكتفي بهذا الوصف وإنما يستدعي نصوصًا نثرية وشعرية تدعم وصفه، مما جعل الرحلة تتفاعل مع خطابات متعددة تتخلل نسيجها، من مثل استدعائه لنص ابن الخطيب النثري، ونص ابن الأزرق الشعري في وصف بسطة(١٤). ومثل هذه الاستدعاءات لا تؤدي دورها تزيينيًا، وإنما تقوم بوظيفة الكشف عما يناسب رؤية الكاتب، وتتيح له تحديد موقفه من مجموعة من المسائل، كما تفسح له المجال للوقوف في محطات خارج المكان والزمان قبل أن يتابع السرد، كما في قوله - مثلا - يذكر شوقه للسفر والارتحال من مكانه(١٥): «ثم تحرك خاطري إلى الانتقال، وتشوقت النفس إلى الارتحال، وتذكرت كلام القاضي عبدالوهاب بلسان الحال:

سافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عمَّن تفارقه
واتعبْ فإنَّ لذيذَ العيشِ في التَّعبِ
إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسده
إن ساحَ طابَ، وإنْ لم يجرِ لم يَطِبِ

إلى آخر الأبيات.

وأسلوب وصفه يتوخى فيه الإيجاز دون الإحساس به في أغلب الأحيان، فيأتي موضوعيًا يرصد المشاهد الخارجية بصرف النظر عن أثرها في نفسه، كما في

رحلة القلصادي بالإضافة إلى قيمتها الأدبية، تعدّ وثيقة من أهم الوثائق التي أرّخت للدرس العلمي في الأندلس، وبخاصة في فترة من أحلك الفترات التي مرت بها هذه الربوع الإسلامية

قوله يصف مدينة الإسكندرية(١٦): «والمدينة من أحسن البلاد ترتيباً وبناء، وجدرانها بالحجر الأبيض المنجور، وسككها كلها على نسق نافذة متسعة». ولكنه حين يشرف على الأماكن المقدسة يتبدل أسلوبه في الوصف حسب التأثير الذي تتركه في نفسه، من ذلك قوله في وصف المدينة المنورة(١٧): «ثم صبيحة يوم الأربعاء وصلنا إلى المدينة المعظمة، ودخلنا الحرم الشريف، والمقام المنيف، وقد كساه المولى الجليل الهيبة والتعظيم، فأشرقت أنواره، ولاحت أسراره، وبرزت آثاره، فلا يخيل الخاطر تلك الأحوال، ولا تتعلق له تلك النفائس فيما قبل البال، فسلمنا عليه صلى الله عليه وسلم وشرَّف وكرَّم، والنفس في دهش، والقلب في التهاب وعطش، فلا عليك أن ترى إلا داعيًا أو سائلاً أو راغبًا متواضعًا للمولى سبحانه وتعالى، متوسلاً بحبيبه صلى الله عليه وسلم، ولله درّ القائل:

يا خير من دُفِنتْ في الترب أعظمُه
فطابَ من طيبهن القاعُ والأكَمُ
أنت النبي الذي تُرجَى شفاعته
عند الصّراط إذا ما زلّتِ القدمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكِنُه
فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرم»

وكما هو الشأن بالنسبة إلى الرحلات الأخرى السابقة، فإن القلصادي يستخدم نظام التتابع الزمني لسرد رحلة الذهاب والإياب، وتقديم شيوخه حسب تاريخ اللقاء بهم، وما تمكن من الحصول عليه من الروايات والأسانيد، مع ما يتخلل ذلك التتابع من صيغ التقطيع الواردة للكشف عن رؤيته.

لقد كتبت الرحلة في سياق سياسي وثقافي معين يتسم بتحولات لا يمكن تجاهلها ونحن نستنطق مشروعيتها الأدبية، فقد استولى الإسبان على كثير من البلاد الأندلسية فسيطروا على قرطبة ومرسية وطليطلة وبلنسية وغيرها من المدن، فظلت غرناطة آخر المعاقل تعيش أيامها الأخيرة خلال القرن التاسع الهجري، على الرغم من صيحات الإنذار والخطر التي كان يطلقها العلماء والأدباء، والتي ما زالت شاهدة على محاولاتهم لإنقاذ هذا الثغر الإسلامي، فقد كان الوجود العربي يتهدده الخطر الساحق في الأندلس. ولم تكن تلك التحذيرات التي انطلقت منذ سقوط بعض المعاقل تجد أذنًا صاغية، فتهاوت البلاد شيئًا فشيئًا على أن النشاط العلمي لم تخب جذوته نهائيًا عندما كانت مملكة غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة، ففي هذه الفترة ظهر أعلام مثل أبي عبدالله محمد السَّرَقُسطي، وأبي الحسن علي القلصادي، وغيرهما، واصلوا تزويد المكتبة العربية الإسلامية بعدد من المصنفات في مختلف الميادين العلمية والثقافية، ومما يدل على هذا النشاط العلمي تواصل حركة التدريس والعطاء التي كانت سائدة. وقد كان القلصادي من المساهمين فيها خاصة بعد رجوعه من رحلته، إذ اشتغل بالتأليف والتدريس على الرغم من أجواء الاضطراب والفتنة.

آمل أن يكون هذا البحث قد حاول استنطاق نص سردي يوغل في التراث لتأكيد انتسابه الأدبي، وهو غاية ما نتوخاه، ولا أزعم أنني قد بلغت المنى في استيعاب هذا المتن الرحلي، لكن يكفيني أني حاولت النبش في ذاكرة الموروث السردي، وكل ما أطمح إليه لفت الانتباه إلى مثل هذه النصوص التراثية وقراءتها قراءة جديدة.

المراجع والهوامش

١. رحلة القلصادي لأبي الحسن القلصادي الأندلسي، دراسة وتحقيق محمد أبوالأجفان، الشركة التونسية للتوزيع.
٢. نسبة إلى مسقط رأسه «بسطة» (بفتح الباء، وبعضهم يضمها) الواقعة في الشمال الشرقي من غرناطة في الأندلس، يقول عنها لسان الدين بن الخطيب: إنها بلد خصيب، ومدينة لها من اسمها نصيب، دوحها متهدل، وطيب هوائها غير متبدل..».
وانظر ترجمة صاحب الرحلة في: الضوء اللامع للسخاوي ١٤/٦، والأعلام للزركلي ١٦٣/٥، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، تقديم عبدالحميد عبدالله الهرامة، ٣٣٩. وقد اختلف في مولده، لكن الأرجح أنه ولد سنة ٨١٥هـ، كما ذهب إليه محقق الرحلة.
٣. نيل الابتهاج، ٣٣٩.
٤ـ ٥ـ المصدر السابق.
٦. ابتدأت الرحلة من سنة ٨٤٠هـ واستمرت إلى سنة ٨٥٥هـ.
٧ـ ١٧. الرحلة، الصفحات: ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٩ ـ ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٧ ـ ١٠٩ ـ ١٢٥ ـ ١٤٥ ـ ١٦٨ على الترتيب.

صناعات المعلوماتية الإلكترونيات ودروس للمستقبل

سعد علي الحاج بكري
الرياض - السعودية



قبل أكثر من قرن، وفي عام ١٨٩٩م على سبيل التحديد، قال مسؤول مكتب تسجيل الاختراعات في الولايات المتحدة الأمريكية: «إن كل ما يمكن اختراعه قد تم اختراعه بالفعل، وعلى ذلك يجب إلغاء المكتب بسبب عدم الحاجة إليه»(١). وفي مطلع القرن العشرين ظهرت الدوائر الإلكترونية، ثم تطورت لتعطي الأدوات الأساسية لتقنيات المعلومات بطرفيها: (شبكات الاتصال) التي تعمل على نقل المعلومات، و (الحواسيب) التي تستطيع تخزين المعلومات ومعالجتها على أساس برامج مختلفة تناسب تنفيذ أعمال معلوماتية كثيرة. وأصبحت تقنيات المعلومات برأي كثير من المفكرين «أهم اختراع استطاع الإنسان تحقيقه، منذ اختراع الدولاب الذي أعاد تنظيم أسلوب حياة الإنسان قبل آلاف السنين، كما تفعل تقنيات المعلومات في الوقت الحاضر». وبذلك ثبت خطأ مسؤول مكتب الاختراعات الأمريكي، وعدم قدرته على استشراف آفاق المستقبل، على الرغم من موقعه المهم.

يطرح هذا المقال موضوع صناعة التقنية الأساس للمعلوماتية، ألا وهي الإلكترونيات، ويرصد تطورها في مختلف أنحاء العالم، ويبيّن أهميتها في التنمية. ويسعى من خلال ذلك إلى استخلاص بعض الدروس بشأن الاهتمام بهذه الصناعة في عالمنا العربي. يبدأ المقال بإلقاء الضوء على تطور الإلكترونيات، ودور هذا التطور في تعزيز تقنيات المعلومات وتوسيع دائرة تطبيقاتها. ثم يستعرض المقال أوضاع الإلكترونيات وتقنيات المعلومات، على مستوى العالم، وعلى مستوى بعض الدول بما يشمل دولاً متقدمة، وأخرى نامية تسعى إلى التقدم. ويركز المقال بعد ذلك في إحدى الدول المتميزة، ألا وهي فنلندا التي لا يزيد عدد سكانها على نحو خمسة ملايين، ويتطرق في هذا المجال إلى نوكيا الشركة الفنلندية الرائدة في صناعة إلكترونيات شبكات اتصالات الجوال. ومن خلال تقديم ما سبق يتحدث المقال أخيراً عن الآفاق المستقبلية للاهتمام بالإلكترونيات في العالم العربي.

الإلكترونيات وقرن من التطور

قبل أكثر من قرن، وفي مطلع القرن العشرين كانت علوم الكهرباء، والهاتف، والاتصال السلكي واللاسلكي، قد بدأت. لكن أدواتها، ومن ثم إمكاناتها، كانت لا تزال محدودة. في عام ١٩٠٤م استطاع فلمنج Fleming أن يبتكر الصمام الإلكتروني، وتمكن ديفورست Deforest من أن يطور هذا الابتكار عام ١٩٠٦م ، وكان هذا الصمام أنبوباً مفرغاً من الهواء، له طرفان رئيسان، وأطراف أخرى إضافية. تنطلق الإلكترونات داخل الأنبوب من أحد أطرافه الرئيسة بالتسخين لتصل إلى الطرف الرئيس الآخر المزود بجهد كهربائي موجب يجذب الإلكترونات. ويجري التحكم بكمية الإلكترونات المنطلقة داخل الأنبوب بواسطة جهود كهربائية يجري تطبيقها على الأطراف الإضافية.



بدايات الكومبيوتر وما كان عليه من ضخامة الحجم

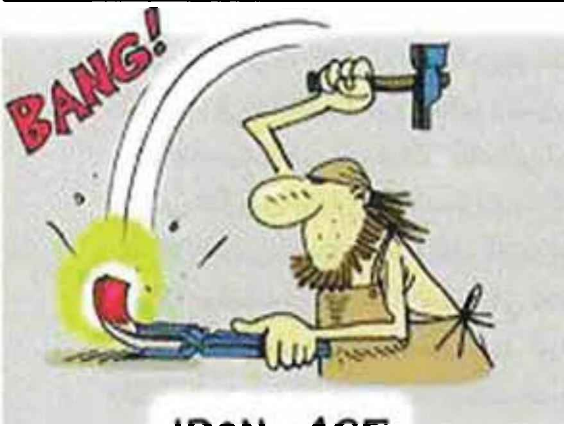
وقد تكون هذه الجهود محدودة القيمة، لكن أثرها في حجم الإلكترونات داخل الأنبوب يكون كبيراً.

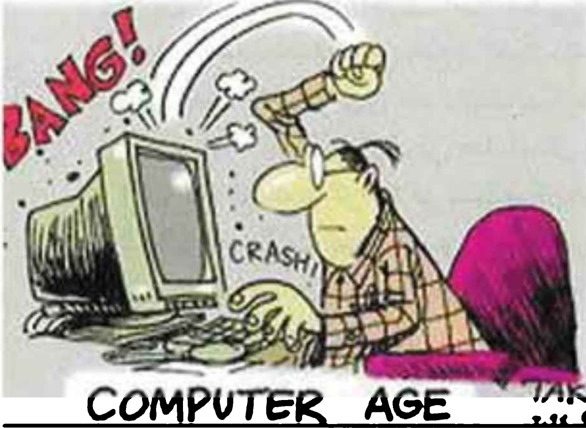
استقبل مهندسو الاتصالات الصمام الإلكتروني بالترحاب؛ لأنه يساعدهم على تحويل التغيرات في الإشارات الكهربائية المحدودة القيمة إلى تغيرات أكبر في الإلكترونات المنطلقة والمارة عبر الصمامات، مما يساعد على التعامل مع الإشارات، التي تمثل في الأساس معلومات يُطلب نقلها إرسالاً أو استقبالاً. وراح هؤلاء المهندسون يعملون على تطوير دوائر كهربائية جديدة لأنظمة الاتصالات تحتوي على الصمام الإلكتروني، وقد بات يُطلق على هذه الدوائر اسم الدوائر الإلكترونية بدل الكهربائية.

وعندما ظهر الحاسوب قبيل منتصف القرن العشرين، اعتمد في دوائره على الصمام الإلكتروني، لكن الأبحاث كانت جارية في الوقت

ذاته حول تطوير عناصر جديدة للدوائر الإلكترونية تُغني عن الصمام، فباتت أنظمة الاتصالات والحاسوب التي تحتوي على عدد كبير من الدوائر، وعدد كبير من الصمامات، تعاني ضخامة الحجم، والحرارة العالية الناتجة من التسخين لإطلاق الإلكترونات في الصمامات. وهكذا ظهر الترانزيستور في معامل شركة بيل Bell عام ١٩٤٨م، لكن استخدامه لم يبدأ فعلاً إلا بعد ذلك بعدة سنوات.

اعتمد الترانزيستور أساساً على مادة السيليكون الموجودة في الرمال، وتم وضع أساليب لمعالجة هذه المادة بمكونات أخرى من أجل تحريك الإلكترونات داخلها، والتحكم بهذه الحركة من الخارج، كما يحدث في الصمام الإلكتروني. والفرق بين الاثنين أن الإلكترونات في الترانزيستور تتحرك داخل مادة جامدة صغيرة الحجم دون تسخين، وليس ضمن أنبوب أكبر حجماً، ومفرغ من الهواء ويحتاج إلى طاقة حرارية لإطلاق الإلكترونات فيه، كما هو الحال في الصمام. وقد أحدث الترانزيستور قفزة كبيرة في حواسيب تقنيات المعلومات وأنظمة شبكات الاتصالات.



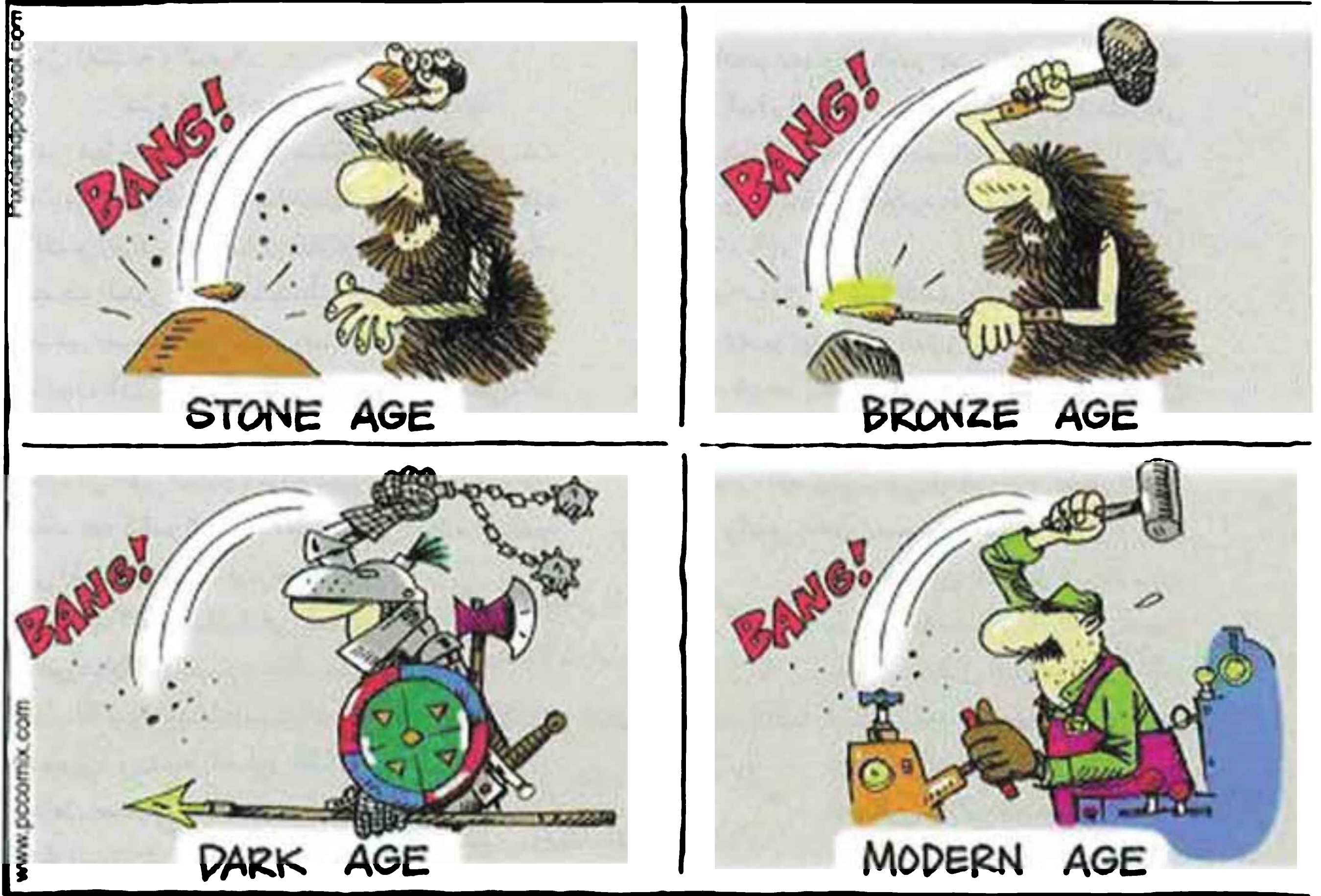


رسم كاريكاتوري يوضح مراحل تطور الإنسان من العصر الحجري إلى عصر الكمبيوتر

ومن مبدأ الترانزيستور انطلقت التطورات الحديثة لعناصر الدوائر الإلكترونية، فأصبح بالإمكان ابتداء من منتصف ستينيات القرن العشرين وضع مجموعة دوائر إلكترونية تحتوي على مجموعة ترانزيستورات ضمن قطعة واحدة أُطلق عليها اسم رقاقة إلكترونية Electronic ChiP، وبدأت هذه الرقائق بما عُرف برقائق التكامل المحدود SSI، أي التي تحتوي على عدد محدود من الدوائر. ثم ظهرت بعدها رقائق التكامل المتوسط MSI، فرقائق التكامل الواسع LSI، فالواسع جداً VLSI.

تبين مجالات صناعة إلكترونيات المعلومات أن هناك درجات مختلفة من التعقيد في هذه الصناعة. فلا شك - مثلاً - أن صناعة الرقائق هي الأكثر تعقيداً؛ لدقتها وحجمها الصغير بالموازنة مع العدد الهائل للدوائر التي تحتويها

وفي بداية هذا التطور نُقل قول مأثور عن جوردن موور Gordon Moore مدير شركة «إنتل» لصناعة رقائق الدوائر الإلكترونية عام ١٩٦٥م: «إن قوة رقاقة السيليكون سوف تتضاعف كل ثمانية عشر



شهراً»، بمعنى أن عدد الدوائر، أو عدد الترانزيستورات، فيها سوف يتضاعف. ولم يكن هذا بعيداً عن واقع ما حدث بعد ذلك، خصوصاً خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين. ولعل أوضح مثال على ذلك تطور عدد ترانزيستورات رقاقة إنتل المستخدمة كمعالج في أنظمة الحاسوب الشخصي، فقد تطورت سعة، أو قوة هذه الرقائق من بضعة آلاف من الترانزيستورات في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، إلى أكثر من خمسين مليون في نهايته(١-٤).

ولأن الإلكترونيات هي التقنية الأساسية لكل من الاتصالات والحواسيب، فقد أدى تطور هذه التقنية إلى تطور إمكانات شبكات الاتصالات، وأنظمة الحاسوب، وزادت قدرة البرمجيات في التطبيقات المختلفة. وكانت السمات العامة لهذا التطور تتصف بتقديم تقنيات معلومات أصغر حجماً، وأقل كلفة، وأكثر ذكاءً. وهذا ما جعلنا نتمتع اليوم بالحاسوب الشخصي، والإنترنت، واتصالات الجوال، والخدمات الإلكترونية التجارية والحكومية وغيرها، وأنظمة الذكاء الاصطناعي، فضلاً عن تطبيقات أخرى كثيرة في مجالات مختلفة. وربما يقدم لنا المستقبل تطورات أخرى لم تكن في الحسبان. ومن النظرة السابقة إلى التطورات، ننتقل إلى طرح واقع إلكترونيات المعلومات على

مستوى العالم، واستعراض صناعاتها في عدد من الدول المتقدمة والنامية.

إلكترونيات المعلومات وصناعاتها

من أجل تقديم صورة متكاملة لإلكترونيات المعلومات في العالم وصناعاتها، سوف نرصد هذه الإلكترونيات من خلال ثلاثة محاور رئيسة. يتصف المحور الأول منها بأنه عام على مستوى العالم، يبحث في إلكترونيات المعلومات ونمو إنتاجها بالموازنة مع السكان وإنتاجهم الإجمالي. أما المحور الثاني فيختص بأهم مئة شركة من شركات المعلوماتية في العالم، ومنتجاتها الإلكترونية. ولأن معظم هذه الشركات المئة تنتمي إلى العالم المتقدم، يأتي المحور الثالث ليرصد أهم شركات المعلوماتية في العالم النامي، وليلقي الضوء بذلك على الدول النامية المهتمة بهذا المجال الحيوي. وبهذه المحاور الثلاثة تتكامل صورة إلكترونيات المعلومات في عالم اليوم من المستوى العام للعالم ككل إلى المستوى الخاص في كل من الدول المتقدمة، والدول النامية.

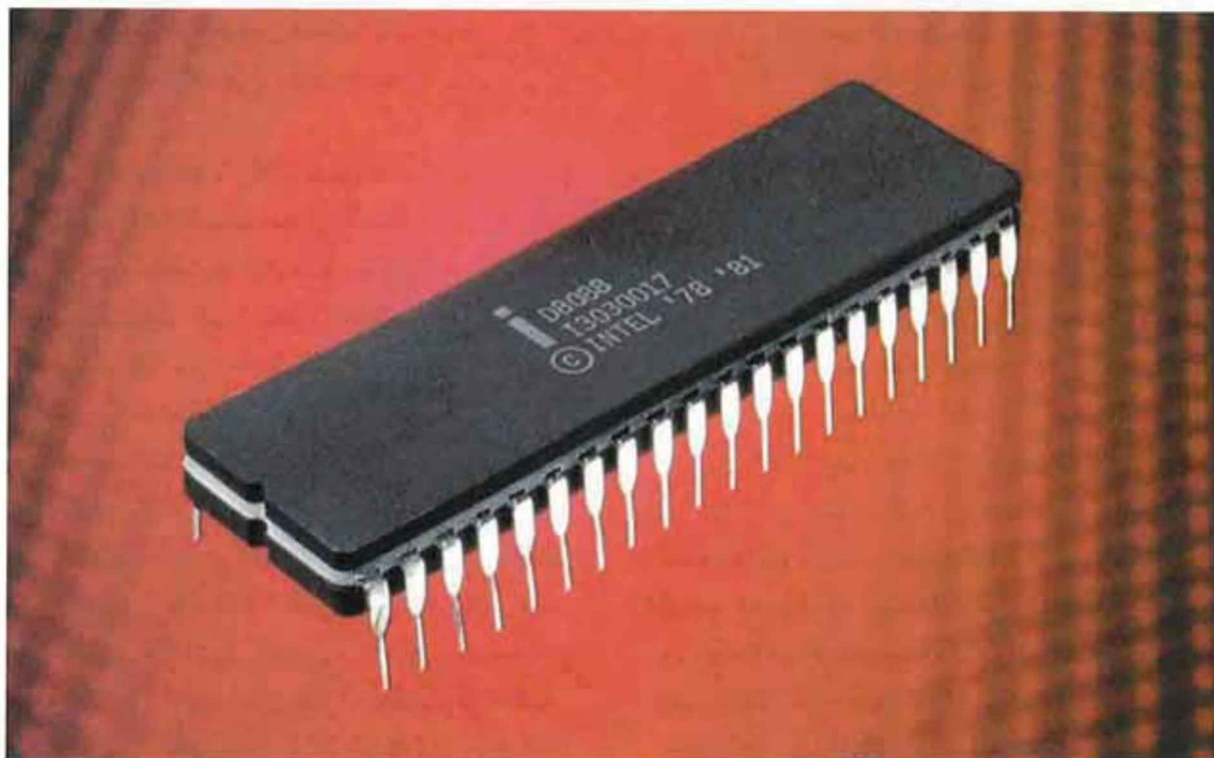
لنبدأ بالمحور الأول، ونحاول رصد إلكترونيات المعلومات على مستوى العالم بالموازنة مع السكان، ومجمل الإنتاج. في هذا الإطار، وعلى أساس الإحصاءات ، نجد أن منتجات المعلومات تمثل نحو ٤.٣٪ من مجمل إنتاج العالم، وتمثل الإلكترونيات ٥٢٪ من هذه المنتجات. ونجد أيضاً أن الفرد الواحد ينفق، في المتوسط، ١٧٠٪ دولاراً أمريكياً سنوياً على تقنيات المعلومات. أي أن أسرة متوسطة واحدة مكونة من ستة أشخاص تنفق أكثر من ألف دولار سنوياً على منتجات المعلومات. ولا بد من تأكيد أن هذه الإحصاءات وسطية، فهناك أسر خصوصاً في العالم المتقدم تصرف أكثر من ذلك بكثير، وهناك أسر في العالم النامي لا يكاد يصل كامل دخلها إلى هذه الأرقام. لكن هذه الإحصاءات تعبر على الأقل عن سوق منتجات المعلومات وإلكترونياتها في العالم (٥، ٦).

يبين ما سبق الوضع النسبي لمنتجات المعلومات وإلكترونياتها في مطلع القرن الجديد. ولعل الأهم من ذلك، فيما يخص آفاق المستقبل، أن نحاول رصد نمو هذه المنتجات. تبين الإحصاءات أن نمو إلكترونيات المعلومات في العقد الذي سبق القرن الجديد، والذي بلغت نسبته السنوية ٩٪ زاد على نمو السكان بأكثر من خمس مرات ونصف المرة، إذ إن نسبة نمو السكان السنوي ١.٦٪، وتجاوز نمو مجمل الإنتاج بنحو أربع مرات، لأن متوسط النمو السنوي للناتج العالمي قدره ٢.٥٪ وهناك دلالتان مهمتان يمكن استخلاصهما من هذا النمو. أولاهما: أن اعتماد الإنسان على منتجات المعلوماتية في تزايد مطرد، وهو ما نلحظه جميعاً في حياتنا اليومية. وثانيتهما: أن مساهمة إلكترونيات المعلومات في مجمل الإنتاج في تطور مستمر، مما يجعلها عاملاً متزايد الأهمية في التنمية.

> لأن الإلكترونيات هي التقنية الأساسية لكل من الاتصالات والحواسيب، فقد أدى تطور هذه التقنية إلى تطور إمكانات شبكات الاتصالات، وأنظمة الحاسوب، وزيادة قدرة البرمجيات في التطبيقات المختلفة

ومن المحور العام على مستوى العالم، ننتقل إلى محور أهم ١٠٠ شركة معلومات في العالم. بين هذه الشركات ٥٤ شركة تقوم بإنتاج إلكترونيات المعلومات في مجالي الحاسوب والاتصالات، و٤٦ شركة تهتم بالبرمجيات والخدمات المختلفة(٤).

ينقسم إنتاج شركات إلكترونيات المعلومات



تجميع الرقائق الجاهزة من الصناعات الإلكترونية المحدودة التعقيد

الـ(٥٤) إلى أربعة مجالات: مجال الرقائق الإلكترونية، ومجال أجهزة الحاسوب، ومجال أجهزة الاتصالات، ثم مجال عقود التصنيع الذي يضم الشركات التي تقوم بتصنيع الأجهزة لمصلحة شركات أخرى. وتبين الإحصاءات أن شركات الرقائق الإلكترونية هي الشركات الأكثر عدداً (٢٥ شركة)، وتليها شركات الحاسوب (١١ شركة) والاتصالات (١٠ شركات)، ثم شركات عقود التصنيع (٨ شركات) (٧).

وتبين مجالات صناعة إلكترونيات المعلومات أن هناك درجات مختلفة من التعقيد في هذه الصناعة. فلا شك - مثلاً - أن صناعة الرقائق هي الأكثر تعقيداً؛ لدقتها وحجمها الصغير بالموازنة مع العدد الهائل للدوائر التي تحتويها. وهناك أجهزة خاصة معقدة لهذه الصناعة، وأساليب غاية في الحساسية والدقة ينبغي تصميمها واتباعها في استخدام هذه الأجهزة وتنفيذ عمليات التصنيع للرقائق المطلوبة، من قبل خبرات إنسانية متقدمة.

وعلى صعيد آخر هناك صناعات إلكترونية محدودة التعقيد، ربما تقتصر فقط على تجميع الرقائق الجاهزة لتقديم أجهزة حاسوبية أو أنظمة اتصالات مختلفة. ولا تحتاج مثل هذه الصناعات إلى الخبرة المتقدمة التي تحتاج إليها صناعة الرقائق. تنتمي شركات إلكترونيات المعلومات الـ ٥٤ إلى تسع دول بينها دولتان من خارج نادي الدول المتقدمة هما تايوان و سنغافورة، وبينها أيضاً خمس دول محدودة السكان في كل منها شركة واحدة فقط هي: كندا، وفنلندا، وهولندا، وسويسرا، وسنغافورة. لكن تأثير مثل هذه الشركة في اقتصاد الدولة التي تنتمي إليها قد يكون كبيراً، كما هو الحال في شركة نوكيا في فنلندا، وسنتحدث عن هذا الموضوع في البند الآتي، وننتقل الآن إلى

المحور الثالث الخاص بشركات المعلوماتية الكبرى في دول العالم النامي.

من أجل رصد شركات صناعات إلكترونيات المعلومات في العالم النامي، ومحاولة التعرف إلى توزعها، لجأنا إلى إحصاءات أهم ٢٠٠ شركة من شركات العالم النامي، ووجدنا أن عدد شركات صناعة تقنيات المعلومات ضمن هذه الشركات بلغ ٢٦ شركة، إضافة إلى ٣٠ شركة تعمل في مجال خدمات الاتصالات.

وتتوزع الشركات الـ٢٦ على ست دول، ليس بينها للأسف أي من الدول العربية، على الرغم من وجود شركة واحدة من هذه الشركات في الكيان الصهيوني. وتأتي تايوان(١٦ شركة) بين أهم دول هذه الشركات، وتليها كوريا الجنوبية (٤ شركات)، ثم الهند (٣ شركات)، وبعدها الصين و جنوب أفريقية والكيان الصهيوني، وفي كل منها شركة واحدة(٨).

إن وجود شركات عملاقة في صناعات تقنيات المعلومات وإلكترونياتها في دول العالم النامي، سواء ضمن أهم ١٠٠ شركة تقنيات معلومات في العالم، أو ضمن أهم ٢٠٠ شركة في العالم النامي دلالة على أن الدول النامية تستطيع المساهمة والمنافسة في هذه الصناعات والاستفادة منها، إن هي ملكت الإرادة على العمل، وكانت لديها همة التنفيذ.

ظهور الترانزستور في معامل شركة بيل عام ١٩٤٨م حل مشكلة ضخامة الحجم، والحرارة العالية الناتجة من التسخين لإطلاق الإلكترونات في الصمامات

بعد ما سبق، سنتوجه إلى عمومية أقل، وخصوصية أكثر في مجال صناعة إلكترونيات المعلومات، كي نستطيع الاقتراب أكثر من الموضوع، وجوانبه المختلفة. وفي هذا الإطار اخترنا دولة فنلندا، وهديتها لنفسها، وللعالم، في مجال إلكترونيات المعلومات، شركة نوكيا.

فنلندا و نوكيا وإلكترونيات المعلومات

تقع فنلندا شمال أوربا، بين روسيا الاتحادية شرقًا، و السويد غربًا. وتبلغ مساحتها نحو ٣٤٠ ألف كيلو متر مربع، وعدد سكانها حوالي خمسة ملايين نسمة. وتحفل أرضها بالغابات والبحيرات، لكنها دولة صناعية أساساً، تأتي الصناعات الإلكترونية والكهربائية في مقدمة صناعاتها.



تطور هائل في إمكانات الاتصال وتبادل المعلومات

فحجم إنتاج هذه الصناعات يبلغ نحو ١٨٪ من مجمل الإنتاج السنوي، وحجم صادراتها يصل إلى نحو ٢٨٪ من مجمل الصادرات. ومن أدلة أهمية هذه الصناعات، أيضاً، أن ١٥٪ من العاملين في حقول الصناعات المختلفة يعملون فيها، وأن مرتبات هؤلاء تزيد نحو ٢٢٪ على مرتبات أقرانهم في الصناعات الأخرى. وتأتي الأهمية المستقبلية لهذه الصناعات من النمو السنوي النسبي الكبير لكل من إنتاجها وصادراتها، الذي يتفوق بعدة مرات على نمو مجمل الإنتاج، وعلى نمو مجمل الصادرات. وللحفاظ على نموها هذا، وعلى قدرتها على المنافسة، تحظى هذه الصناعات بإنفاق كبير على البحث العلمي في مجالاتها.

وقد استطاعت بذلك أن تجعل دول أوربا وأمريكا المتقدمة ميداناً لصادراتها، إضافة بالطبع إلى دول أخرى. ويلاحظ أن ٦٥٪ من هذه الصناعات مرتبطة بشركة نوكيا المتخصصة في إلكترونيات اتصالات الجوال (٩). وسوف نركز فيما يلي في تطور هذه الشركة، وخصائصها المتميزة كمثال على الشركات الناجحة في إلكترونيات تقنيات المعلومات.

بدأت شركة نوكيا عملها عام ١٨٦٥م، أي قبل نحو قرن وبضعة عشرات من السنين. وكانت في بدايتها تعمل في مجال الصناعات الخشبية، لانتشار الغابات في فنلندا. وقد أخذت نوكيا اسمها من أحد الأنهار في جنوب البلاد. وبعد أكثر من قرن من إنشائها، وفي حوالي عام ١٩٧٠م بدأت نوكيا في التحول إلى مجال الإلكترونيات



الترانزستور أساس لتطور صناعة المعلوماتية

من أهم متطلبات النجاح في صناعة إلكترونيات المعلومات الحكمة في الإدارة، والاستجابة للمتغيرات، فضلاً عن الإرادة، والاستعداد للعمل وتحمل المسؤولية بجدارة

والاتصالات، وقد اكتمل هذا التحول بعد ذلك بنحو عشر سنوات. وفي التسعينيات كانت نوكيا قد أخذت مكانتها على أنها شركة دولية مهمة في مجال تخصصها، فبدأت منذ منتصف التسعينيات بالتعاون الإنتاجي مع كل من الصين، وهولندا. كما راحت تدعم أبحاثها العلمية، بإنشاء مراكز بحثية خاصة بها في مختلف أنحاء العالم، إذ توجد مراكزها البحثية في كل من فنلندا (مركزان)، والولايات المتحدة الأمريكية (٣ مراكز)، والصين (مركزان)، وفي كل من بريطانيا وألمانيا والمجر (مركز واحد)(١٠).

وتحقق نوكيا نمواً كبيراً في مبيعاتها، وفي أرباحها، وفي توظيف اليد العاملة، وتقدم من أجل ذلك دعماً متنامياً للبحث العلمي، كي تحافظ على تفوقها وقدرتها على المنافسة بين الكبار في الدول المتقدمة، وفي الأسواق الدولية. وإذا كان في الوصول إلى القمة مشقة، ففي المحافظة على المكان

هناك مشقة أكبر. وهذا ما يجب أخذه في الحسبان إذا كان التفوق المستمر هو الهدف. ولعلنا من خلال ما ورد في هذا المقال، نحاول استخلاص بعض المؤشرات، علها تفيدنا في تطلعنا نحو مستقبل أفضل لهذه الأمة التي آن لها أن تبحث عن موقع متقدم بين الدول، وأن تسعى بالحكمة، والعمل الدؤوب، إلى الوصول إلى هذا الموقع.

مؤشرات و دروس

إن هناك عوامل جذب نحو الاهتمام بصناعات إلكترونيات المعلومات، والعمل على إقامتها، ولكن هناك في الوقت نفسه متطلبات للنجاح في هذه الصناعات. فالتفوق الواضح لنمو هذه الصناعات على نمو السكان، وعلى نمو الإنتاج في المجالات الأخرى يعزز مسألة التوجه نحو الاهتمام بها، لأنه يزيد من احتمالات تسويقها محلياً ودولياً، مما يؤدي إلى الحد من الواردات، وإلى دعم الصادرات، ومن ثم إيجاد مصدر فعّال للتنمية. يضاف إلى ذلك أن الاهتمام بهذه الصناعات يعطي مجالات جديدة للاستفادة من العمالة، ربما بأجور أعلى من أجور العمالة في المجالات الأخرى. وليس ضرورياً أن يكون جميع العاملين في هذه الصناعات من المؤهلين تأهيلاً متميزاً، بل قد يكون قسم كبير منهم من محدودي التأهيل يعملون على خطوط إنتاج الأجهزة المختلفة، بمهمات محدودة لكل عامل. ولكن بالطبع لا بد من وجود نخبة علمية لتوجيه الأعمال والمهمات المطلوبة.

ولعل من أهم متطلبات النجاح في هذه الصناعات الواعدة الحكمة في الإدارة، والاستجابة للمتغيرات، فضلاً عن الإرادة، والاستعداد للعمل وتحمل المسؤولية بجدارة. وعلى أساس ما وجدنا سابقاً من تجارب الآخرين، فإن الحكمة تقضي بضرورة جمع أسباب القدرة على المنافسة، والعمل على المحافظة على هذه القدرة. ومن ذلك على سبيل المثال، ألا تقتصر العلاقة مع العالم الخارجي على التسويق، بل على التعاون البحثي، وربما الإنتاجي من أجل تحقيق موقع تنافسي متميز، والعمل على المحافظة عليه.

وبين عوامل الجذب، ومتطلبات النجاح، أثبت كثير من الشركات، ليس في دول العالم المتقدم فقط، بل في دول العالم النامي أيضاً، أن النجاح ممكن. فنوكيا خرجت كشركة دولية عملاقة من دولة أوربية صغيرة، بعيدة عن الأسواق الرئيسة، ونجحت نجاحاً باهراً. ومن تايوان، و كوريا، و سنغافورة خرجت عدة شركات عملاقة في إلكترونيات المعلومات، بعضها تصنع لنفسها، وبعضها لشركات دولية أخرى في الدول المتقدمة.

وإذا كانت الحال كذلك، فماذا ينقص العرب كي تكون لهم شركاتهم العملاقة التي تدعم التنمية في بلدانها، وتقدم العمالة للأجيال الجديدة، وتستفيد من إمكاناتهم.

المراجع والهوامش

1 - The Economist, September 23, 2000.

٢. الدوائر الإلكترونية: الرقمية والتمثيلية، سعد الحاج بكري، محمد حسن، محمد حيدر، وايلي،١٩٨٥م.

٣. مقدمة في الاتصالات، سعد الحاج بكري، محمد الحيدر، مطابع جامعة الملك سعود،١٩٨٨م.

4 - www.intel.com

5-www.worldbank.org

٦. إحصاءات مأخوذة عن Gartner & McKinsey قدمها قسطنطين سلامة في محاضرته حول سوق المعلوماتية في ندوة تطوير دول البحر الأبيض المتوسط التي عقدت في القاهرة في مارس/أذار ٢٠٠٠م.

7 - BusinessWeek June18,2001.

8-BusinessWeek, July 9, 2001.

9-ww.stat.fi.

10-www.nokia.com

مسابقة الفيصل

أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣١٠)

ربيع الآخر ١٤٢٣هـ - يونيو / يوليو ٢٠٠٢م

الفائز الأول: **معاذ عبدالمجيد حجازي - الدقهلية - مصر.**

الفائز الثاني: **عمرة علي رمضان حمد - الزرقاء - الأردن.**

الفائز الثالث: **عبده علي محمد الربعي - تعز - اليمن.**

الفائز الرابع: **عبد الحميد محمد خليل - حلب - سوريا.**

الفائز الخامس: **سناء ناصر سليمان - الجهراء - الكويت.**

الفائز السادس: **قاسم حمودة البنا - المدينة المنورة - السعودية.**

الفائز السابع: **عدنان حسن عبدالرازق منصور - الرصيفة - الأردن.**

الفائز الثامن: **جميل شاهر عبدالكريم طربوش - عدن - اليمن.**

حل مسابقة العدد (٣١٠)

١ - آلة العيش صحةٌ وشبابٌ فإذا وليا عن المرء ولّى

قائل البيت هو: المتنبي.

٢ - فرانسيس بيكون: سياسي وفيلسوف إنجليزي، وأحد رواد العلم التجريبي الحديث.

٣ - البِبْتون: مادة تنشأ عن البروتينات نتيجة الهضم.

٤ - السنيس: أحد أبناء المهاجرين اليابانيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

٥ - «المقابسات» كتاب شهير من تأليف: أبي حيان التوحيدي.

أسئلة مسابقة العدد (٣١٣)

ضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة:

(١) من قائل هذا البيت: وأهلكني تأميلُ ما لستُ مدركًا وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعام

☐ عمرو بن قمينة ☐ الحارث بن عُباد البكري

(٢) عبدالرحمن الكواكبي: ☐ تربوي سوري، أسس جامعة دمشق

☐ مفكر عربي سوري، انصرف إلى قضايا التحرير والإصلاح.

(٣) كوكبان: ☐ عين ماء في الأحساء في السعودية ☐ حصن شهير في اليمن.

(٤) الهليكون: ☐ المتخصص في الحضارة الهيلينية ☐ آلة موسيقية.

(٥) أفروديت: ☐ إلهة الحب والجمال عند الإغريق ☐ راقصة يونانية أحبها أفلاطون.

الاسم: .... المدينة: .... ص.ب: .... هاتف: ....

العنوان: .... الدولة: .... الرمز البريدي: .... ناسوخ: ....

■ نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات الخارجية باللغة الإنجليزية.

مسابقة الفيصل

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومـاً من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كـاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعـة أخرى للفـائز الثاني، ثم قرعـة للفـائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القـراء المتـابعين للمـسـابقـة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت تـرد إلى المجلـة، ولإتاحـة فـرص الفـوز بالجـوائـز لعـدد أكبـر منهم، فـقـد تمت مضـاعـفـة عدد هذه الجـوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتـصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى:	١٠٠٠ ريال.
الجائزة الثانية:	٧٠٠ ريال.
الجائزة الثالثة:	٥٠٠ ريال.
الجائزة الرابعة:	٤٠٠ ريال.
الجائزة الخامسة:	٢٥٠ ريالاً.
الجائزة السادسة:	١٥٠ ريالاً.
الجائزة السابعة:	(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).
الجائزة الثامنة:	مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.
والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دوماً، مع تمنياتنا حظاً وافراً لجميع القراء الأعزاء.

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الهندسة البيئية

عبدالوهاب رجب هاشم بن صادق
الرياض - السعودية

تعد الهندسة البيئية Environmental Engineering في الوقت الحالي من أهم المتطلبات البيئية الواجب الأخذ بها عند تصميم جميع المشروعات الهندسية وتنفيذها. وقد ظهرت أهميتها الآن وبصورة جلية في كثير من المشرعات الهندسية التي لم تراع المتطلبات البيئية، وكان من نتيجة ذلك حدوث عدة مشكلات بيئية أدَّت إلى أضرار ومشكلات صحية وبيئية واقتصادية جسيمة.

ويمكن تعريف البيئة Environment بأنها كل ما يحيط بالإنسان من تربة وماء وهواء وكائنات حية وجمادات، كما أنها تعدُّ الوسط الملائم لحياة الإنسان وأنشطته المختلفة، وقد خلقها الله عز وجلّ على مستوى عال من الإتقان والاتزان لقوله تعالى: *إنَّا كل شيء خلقناه بقدر*. **القمر**:٤٩.

ونتيجة للتطور التقني والثورات الصناعية والزراعية والغذائية والطبية والكيماوية نشأت عدة ملوثات بيئية أصبحت تشكل الهاجس الرئيس للمهتمين بشؤون البيئة والحفاظ عليها. وقد أدركت مختلف الدول تلك الحقائق والمشكلات البيئية فسارعت إلى عقد المؤتمرات واللقاءات والندوات ووضع التشريعات والأنظمة الخاصة بحماية البيئة ووقف الاختلال والتدهور البيئيين.

وعند النظر إلى النظام البيئي نجد أن جميع مكوناته قد أوجدها الله عز وجل لخدمة الإنسان كما في قوله تعالى: *هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا*. **البقرة**:٢٩. ثم أمره سبحانه وتعالى بالاستفادة من تلك النعم بمقاييس


تصميم المشروعات الهندسية وتنفيذها يتطلبان التزام ضوابط محددة

ومعايير محددة ودون إلحاق الضرر لقوله تعالى: *ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها*. **الأعراف**:٨٥.

ولكن لم يراع الإنسان تلك التوجيهات الربانية فسعى إلى استنزاف الموارد البيئية الطبيعية ودون تعويض النقص؛ مما أدى إلى ظهور النقص الواضح في الموارد البيئية بالإضافة إلى حدوث الملوثات المختلفة.

والنظام البيئي بالإضافة إلى ما سبق يحتوي على عدد

من المجموعات المختلفة للكائنات الحية الدقيقة -Microor-ganisms التي أوجدها الله عز وجل منذ أن خلق الأرض للقيام بالكثير من التحولات البيئية المختلفة -Enviorn-mental Transformation، فهي على سبيل المثال استناداً إلى النظرية البيولوجية Biological Theory في نشوء النفط تعد الأساس في تحلل المخلفات النباتية والحيوانية الضخمة وتفككها، والتي نشأ عنها تكوّن النفط كما أن لها عدداً من الأدوار المختلفة في النظام البيئي والتي



للهندسة البيئية دور كبير في الحد من التلوث الميكروبي في محطات تحلية المياه

منها الأنشطة المختلفة للإنسان.

إذاً يمكن القول: إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الكائنات الحية الدقيقة والنظام البيئي وهذا الارتباط لمصلحة الإنسان في أغلب الأحيان، ونتج منه الاستفادة من الكائنات الحية الدقيقة في الصناعات الغذائية والطبية والزراعية والنفطية والتعدينية والكيمياوية وفي مختلف أوجه التقنية الحيوية Biotechnology كما نتج منه أيضاً حدوث بعض الأضرار الصحية والبيئية والاقتصادية، فبعض الكائنات الحية الدقيقة ونتيجة لتوافر الظروف البيئية الملائمة تسبب للإنسان تلك المشكلات.

والكائنات الحية الدقيقة تشمل كثيراً من المجموعات الميكروبية التي صنفت مع البكتيريا Bacteria والفطريات Fungi والفيروسات Viruses والطحالب Algae والأوليات Protzoa كما أن كل مجموعة تنقسم عدداً من الرتب والعوائل والأجناس والأنواع.

وتمتاز الكائنات الحية الدقيقة بقدرتها على النمو في جميع الأوساط البيئية بلا استثناء، فقد تم عزلها عن المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وأعالي الجبل ومن فوهات البراكين والينابيع الحارة ومن القطبين، بالإضافة إلى الأعضاء المختلفة للكائنات الحية من إنسان ونبات وحيوان، كما تمتاز بقدرتها على إحداث المرض وتحليل المركبات العضوية وغير العضوية وتفكيكها وهضمها.

وقد أدرك الإنسان حقيقة الكائنات الحية الدقيقة فسعى إلى الاستفادة منها، بالإضافة إلى وضع الأسس العامة لتجنب أضرارها المختلفة، وكما هو معلوم، فإن للكائنات الحية الدقيقة عدة فوائد استطاع الإنسان الاستفادة منها منذ القدم، ثم تطورت بفضل الله عز وجل، ثم بفضل التقنية الحيوية -Biotech-nology فاستطاع الإنسان أن يحصل من الكائنات الحية الدقيقة على المضادات الحيوية والإنزيمات والأحماض العضوية والسموم والبروتين الميكروبي أحادي الخلية Single Cell Prorein، بالإضافة إلى صناعات مختلفة، كما أن للكائنات الحية الدقيقة مشكلات وأضراراً بيئية ظهرت في الوقت الحالي بشكل كبير، فبالإضافة إلى كونها مسببات مرضية خطيرة، فإنها تحدث أضراراً هندسية مختلفة نتيجة عدم الأخذ بالأسس العلمية للهندسة البيئية.

وقد أدركت الدول المتقدمة في مجال الهندسة البيئية الدور الخطير الذي تؤديه الكائنات الحية الدقيقة في النظام البيئي، وعلى مختلف عناصره البيئية، فالجامعات في تلك الدول وضعت برامج ومناهج علمية في مجال الهندسة البيئية. كما قامت بالتركيز في بعض المقررات ذات العلاقة بحيث أصبحت متطلبات

ضرورية للتخرج في بعض أقسام كليات الهندسة، ومنها على سبيل المثال فسيولوجيا الكائنات الحية الدقيقة Microbial Phsiology وبيئة الكائنات الحية الدقيقة Microbial Ecology وميكروبيولوجيا المياه والصرف الصحي Water and Sewage Microbiology، والتلوث الميكروبي البيئي Microbial Environmental Pollution، وميكروبيولوجيا التعدين Giomicrobiology.

وتلك المقررات بطبيعة الحال تحتوي على كثير من الموضوعات ذات الأهمية الخاصة لتحقيق أهداف الهندسة البيئية فتشمل على سبيل المثال التصنيف والفسيولوجيا والبيئة، وأيضاً الكائنات الحية الدقيقة، كما تتضمن طرائق المعالجة الحيوية، والهضم الحيوي.

ونشأ لذلك عدد من التخصصات المختلفة الداعمة للهندسة البيئية والتي أسهمت بشكل فعال في الحد من الأضرار المختلفة للكائنات الحية الدقيقة، بالإضافة إلى وضع الأسس العلمية للمنشآت الهندسية المختلفة، مثل المباني العسكرية والصحية والمدنية ومنشآت المصانع والمنشآت الزراعية والغذائية والتجمعات السكنية والأسواق والمسالخ والملاعب ومنشآت الصرف الصحي والمطاعم والمخازن والجامعات والمدارس والمسابح والملاهي. كما وضع لكل منشأة من المنشآت السابقة نظام خاص للبناء والتنفيذ والتشييد، فهناك على سبيل المثال نظام خاص للمنشآت الغذائية للوصول إلى تحقيق هدف الصحة العامة Bublic Health تحقيقاً علمياً لتجنب الأضرار المختلفة للكائنات الحية الدقيقة، فتوجد أنظمة تشريعية هندسية بنائية خاصة للمنشآت الغذائية، يطلق عليها الاشتراطات الصحية العامة للمنشآت الغذائية، وهذه تشمل المرافق والمباني وجمع النفايات والتخلص منها. وتختص الاشتراطات الصحية العامة للمنشآت الغذائية باختيار الموقع المناسب وخلوه من العيوب، كما يجب ألا يكون مرمى للنفايات بعيداً عن الأماكن المزدحمة والروائح الكريهة، ثم بعد ذلك يتم تصميم المبنى بحيث يكون التصميم ملائماً من حيث المساحة والحجم، كما يجب أن يكون هناك تتابع انسيابي في خطوط الإنتاج، كما يجب أن يكون هناك فصل بين العمليات التي تؤدي إلى تسبب تلوث، بالإضافة إلى ما سبق يجب أن تتوافر في التصميم الدقة في تصميم أماكن جمع النفايات والتخلص منها بسهولة، كما يجب فصل المرافق الصحية عن المنشأة الغذائية، كما يجب تصميم



أسس علمية مدروسة في بناء المسالخ

المنشأة بطريقة تكفل عدم حدوث التلوث الميكروبي Microbial Pollution، ويجب أن يكون هناك أيضاً تصميم خاص للأرضية والنوافذ والأبواب والسقوف والجدران والإضاءة والتهوية، وهذا يقلل كثيراً من النمو الميكروبي، كما توجد التصاميم الخاصة للمنشآت الصحية حسب المواصفات الخليجية.

بالإضافة إلى ما سبق توجد المواصفات الخاصة العالمية لكل منشأة من المنشآت السابقة فعلى سبيل المثال، القواعد العسكرية تكون ذات مواصفات حربية خاصة للحد من خطر الأسلحة الفتاكة، مثل الأسلحة الجرثومية Microbial Weapons إذ أمكن استخدام

كائنات حية دقيقة ذات خصائص وراثية وطفرية شديدة الخطورة، كما أمكن نشر الأسلحة الجرثومية بواسطة الفئران والحشرات والقوارض والذباب والبعوض.

وتعد هندسة النظم البيئية ذات أهمية خاصة لتحقيق الصحة العامة، والحد من التلوث الميكروبي، بالإضافة إلى تقليل الأضرار الهندسية على المنشآت المختلفة مثل تأكل الخرسانة المسلحة، وتدمير معدات التنقيب، والحفر، وتأكل الأنابيب، وتحطم منشآت الصرف الصحي والمسابح ومحطات تحلية المياه المالحة وتهشمها، ونتيجة للتطور العمراني والصناعي في دول الخليج العربي نشأت مشرعات هندسية مختلفة لم يواكب معظمها المتطلب الفعلي للهندسة البيئية عند الإنشاء؛ مما تسبب في ظهور عيوب وأضرار لبعض تلك المنشآت في أماكن مختلفة من دول الخليج العربي، وقد شملت محطات التحلية والصرف الصحي والمستشفيات والمطارات والأسواق والمسابح.

وتظهر الحاجة الملحة إلى الهندسة البيئية في المشاعر المقدسة في المملكة العربية السعودية في أثناء فترة الحج ورمضان نتيجة لضيق المساحة وكثافة الزائرين والمعتمرين، بالإضافة إلى العوامل البيئية الملائمة للنمو الميكروبي، ومنها على سبيل المثال درجة الحرارة العالية، بالإضافة إلى الأعداد الهائلة من الحجاج والمعتمرين والزائرين من مختلف الدول وما يقابله من قلة التوعية البيئية للسواد الأعظم منهم، مما يتطلب تطبيق الأسس العامة لهندسة النظم البيئية لتحقيق السلامة والصحة العامة. لذا فإن على المسؤولين في وزارة الحج والصحة والشؤون البلدية والقروية ووزارة الأشغال العامة والإسكان ومركز الملك فهد لأبحاث الحج ضرورة الاستفادة من هندسة النظم البيئية لتقليل المشكلات والأضرار الناتجة من الكائنات الحية الدقيقة، ومن ذلك التأكد من كفاءة أنظمة التشغيل لجمع النفايات والاستفادة منها، وتطبيق قواعد الصحة العامة على المسالخ، والاستفادة من مخلفاتها، بالإضافة إلى تحسين أوضاع الخيام والحمامات، استناداً إلى أسس الهندسة البيئية، والحد من تطاير الأتربة والغبار عن طريق رصف طرق المشاعر المقدسة ومراقبة توزيع المياه والمشروبات والمأكولات وتقنينها، وتجنب الإسراف لتلافي الكميات الهائلة من النفايات التي تعد بيئات ملائمة للنمو الميكروبي.



الهندسة البيئية تضع نظاماً خاصاً لبناء المسابح

ويجب كذلك الإلمام بالقواعد العامة لصحة البيئة عن طريق توعية الحجاج والزائرين والمعتمرين بالطرائق الخاصة بالنظافة العامة، وباستهلاك المواد الغذائية والمشروبات وحفظها، وتجدر الإشارة إلى أن الاستثمار الجيد للنفايات ومخلفات الحج والمواسم يؤدي إلى نشوء مردود استثماري ذي عائد اقتصادي جيد، بالإضافة إلى الحفاظ على البيئة.

وفي مجال معالجة مخلفات الصرف الصحي وتحلية المياه المالحة، فإن للهندسة البيئية دوراً فعالاً وجيداً للحد من التلوث الميكروبي في تلك المنشآت المختلفة، إذ إن محطات الصرف الصحي تعاني في الوقت الحالي نمو الكائنات الحية الدقيقة وسرعة انتشارها في جميع مرافق الصرف الصحي، فهي موجودة في أحواض الصرف

الصحي وعلى الجدران، كما تُحدث في الأحواض والمعدات تأكلاً وتهشماً، لذا، فقد أمكن عزل كائنات حية دقيقة من أحواض معالجة الصرف الصحي للمعالجة الأولى والثانية (الحيوية) والثالثة ومن تلك الكائنات الحية الدقيقة البكتيريا E. Colli و Arthrobacter sp. و Bacillus sp. و Flavobactetrium. sp. و Mycobacterium sp. و Pseudomonas sp. ومن الفطريات الفطرة Alternaria sp. و Aspergillus sp و cladosporium sp. و Fusarium sp. و Penicillium sp. بالإضافة إلى كثير من لاقمات البكتيريا والأوليات، كما ثبت أنها ذات أضرار خطيرة على منشآت الصرف الصحي، إذ لوحظ - على سبيل المثال - التكثيف الشديد لتكوّن أكسيد الحديديك في أنابيب الصرف الصحي، إذ تؤدي البكتيريا دوراً كبيراً في أكسدة الحديد إنزيمياً ولا إنزيمياً، كما تستطيع تلك البكتيريا التفاعل مع مركبات الكبريت، وتستطيع البكتيريا Desulfovibrio sp. تحت الظروف اللاهوائية تحويل الكبريت إلى كبريتيد الهيدروجين H2s الذي يحدث تأكّلاً وتهشّماً بأحواض ومعدات معالجة الصرف الصحي، وبالذات الأنابيب، وينتج منه كذلك ترسيب لنواتج التأكّل، ومنها كبريتيد الحديدوز FeS الذي يترسب في الأنابيب.

لذا فإنه من الضروري مراعاة الهندسة البيئية عند إنشاء محطات معالجة مخلفات الصرف الصحي لتجنب الأضرار الناتجة من التحولات الميكروبية لمعادن مخلفات الصرف الصحي، والتي أكدت الأبحاث احتواءها على تركيزات عالية من العناصر المعدنية السامة ومنها النحاس والخارصين والمنجنيز والرصاص والكوبالت والنيكل والزرنيخ والزئبق والسلينيوم، إذ تستطيع كائنات حية دقيقة القيام بالتحولات المختلفة لتلك العناصر المعدنية السامة، بطريقة من الطرائق التي تشمل المعدنة والتمثيل والإذابة والتطاير والثبوت والأكسدة والاختزال لتتحول إلى عناصر ذات أضرار صحية وبيئية خطيرة، ولا تختلف محطات التحلية عن ذلك في ضرورة وجوب تطبيق الهندسة البيئية عند استقبال مياه البحر، وضخها إلى محطات التحلية، ثم عمليات المعالجة المختلفة، وأخيراً التوزيع، ثم الاستهلاك الآدمي، وعليه، فإن تطبيق أنظمة الهندسة البيئية عند إنشاء محطات معالجة الصرف الصحي، ومحطات التحلية سوف يؤدي بدرجة كبيرة إلى الحفاظ على البيئة وزيادة العمر التشغيلي لتلك المنشآت.

وفيما يخص المسابح والمنتجعات والاستراحات، فإن تطبيق نظم الهندسة البيئية سوف يزيد من عمر تلك المنشآت، ويقلل من خطر الإصابة بالكائنات الحية الدقيقة، لذا يجب التأكد من تصميم تلك المنشآت وفقًا لأحدث النظم الهندسية المتضمنة حجم المنشأة وكمية المياه وتصريفها وفقًا للنظم الهندسية، والتأكد من عدم تلوثها بالكائنات الحية الدقيقة، مع استخدام المواد الكيماوية الملائمة للحد من النمو الميكروبي والتي لا تسبب أي أضرار على الإنسان.

كما يتطلب عند إنشاء الجامعات والمدارس والأسواق والمطاعم والمخازن تطبيق أسس الهندسة البيئية؛ لأنها أماكن ملائمة لتكاثر الجراثيم وانتشارها، بالإضافة إلى الأخذ بأنظمة السلامة، وإيجاد أماكن خاصة لجمع النفايات، والتخلص منها، مع تكثيف الرقابة الصحية وزيادة الحمامات وتصميمها تصميماً هندسياً بيئيًا لتلافي التلوث الميكروبي.

بالإضافة إلى ما سبق، فإن مخازن المواد الكيماوية والمبيدات والمخصبات الزراعية والأغذية والمنتجات الزراعية والمستحضرات الطبية لابد أن تصمم وفقًا لأنظمة الهندسة البيئية للحد من نمو الكائنات الحية الدقيقة التي ثبت أنها تستطيع النمو في جميع البيئات.

المراجع

١. التلوث البيئي، عبدالوهاب رجب هاشم بن صادق، ١٤٢٠هـ، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٢. الأمن البيئي، عبدالوهاب رجب هاشم بن صادق،١٤٢١هـ، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٣. ميكروبولوجيا التعدين، عبدالوهاب رجب هاشم بن صادق، (١٤٢٢هـ)، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٤. الشؤون الصحية الغذائية، إبراهيم المهيزع و محمد مجدي البحيري، ١٤١٨هـ، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.



عودي

محمد عبدالله الهويمل

الرياض - السعودية

جاءته.. ولكن بعد أن شاخ وبلغ من عمره سبعًا وعشرين سنة

قوافلُ الدمع في صحراء وجنتِهِ
كأنها مُقَلٌ تنصبّ من مُقَلِ
تسيلُ أدمعه سودًا كمُهجتِه
كأنها نزلتْ من عين مُكتحلِ
سبعٌ وعشرون مرّتْ لستُ ألمحها
مرورَ سربٍ من الأطيار في عجَلِ
مرّتْ كخُطوات مَن في البيد تحرقُه
شموسُها وهو يجري غيرَ مُنتعلِ
وأرجلُ الدهر تجري، ليس يمنعها
شوكُ الدروب ولا تخشى من الزللِ

ooo

والآن تأتين؟ يا حسناءُ عاشقةٌ؟
تمشين مَشيَ العروس البكرِ في خجلِ
الآن تأتينني والشمس تحرقني؟
وفوق رأسِك أكداسٌ من الظُللِ
كيف انتقيتِ طريقًا نَبْتُه حجرٌ؟
والأرضُ مفروشةٌ مخضرّةُ السُبلِ
تأتينني إذ تركتِ الروضَ مؤتلقًا
عودي إلى الروض ما تبغين بالطَللِ؟
أما علمتِ بأنّ الأرض قد شربتْ
مشاعري مثلَ شربِ الوابل الهَطِلِ
وصدري اليومَ مهجورٌ فليس به
سوى فؤادٍ بسجن الحزن مُعتقَلِ
إنّ الحياةَ التي كانت تُقبّلني
عادتْ لتَطعنني في موضع القُبَلِ

ooo

أنا الذي قد سبقتُ الريحَ متكئًا
والآن يسبقني من عيٍّ بالشَللِ
وكم فرحتُ لنحلٍ جاء يلدغني
ظننتُه سوف يسقيني من العسلِ
حتى إذا ازدحمتْ في مهجتي عِللٌ
بحثتُ عن عللٍ أشفي بها عِللي
ما زلتُ أنشدُ أشعاري بلا نغمٍ
أحبو، ألمُّ أشلاءً من الأملِ
فملءُ جفني أهدابٌ منعّمةٌ
لكنّها تشتكي من كثرةِ البَلَلِ
لا تعجبي لو رأيتِ الرملَ في شفتي
لأنني طللٌ في هيئةِ الرجلِ
لا تعجبي لو رأيتِ القبرَ يلثمني
والموتُ يكتب لي بيتًا من الغزلِ
عودي .. فلا عُشّ في غصني ولا ثمرٌ
ولَمْلِمي ريشكِ المنثورَ.. وارتحلي

جرح بطعم الحب

فؤاد يحيى العرشي

صنعاء - اليمن

- ١ -

أنا جرحٌ ..
بحجم الكون
مرَّ على أديم الأرضِ
تأخذ من دمي
الأزهارُ
والأعشابُ
رونقها
ندى جرحي
بكل الحبِّ
قبل الشمسِ يوقظها
ويسقيها

-٢-

أنا جرحٌ
كناي الحبِّ
يلقى الريحَ مِنْ جهةٍ
ويبعثها
من الأخرى مُنغَّمَةً
تردِّدها
طيورُ الحبِّ
ترسو
في قلوب الناسِ
نسمعها
وتُسكرنا خوابيها

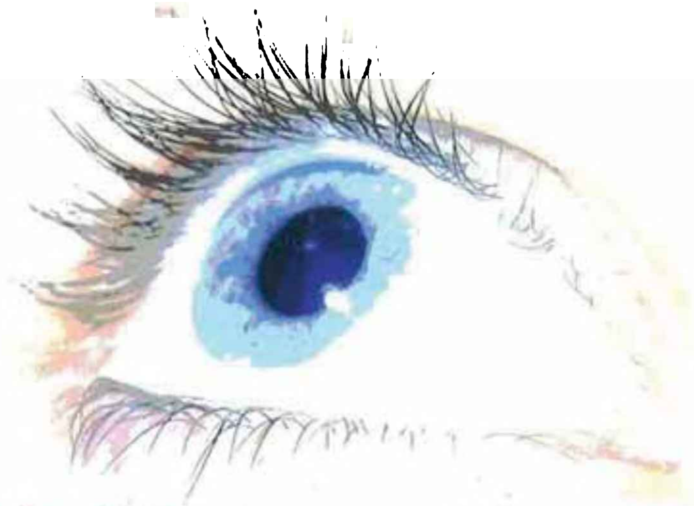
- ٣ -

أنا جرحٌ..
سأمضي دون ما ألم
ولا شكوى
لأن الحبَّ يغمرني
منايَ
أن يدوم الحبِّ
بين الناس مُخْضَرًا
ولو نظروا
إلى قلبي
رأوا عندي
ثمار الحب
قد طابت مجانيها



ما دامت عيناك زرقاوين

بانجو بيترسون
ترجمة: يوسف عبدالعزيز علي
أسوان - مصر



هل ستحبينني يا جميلتي عندما يكون شعري أشيب؟
وعندما تكون وجنتي قد فقدت وضاءتها؟
وعندما تكون فتنة الشباب قد خبت؟
هل سيستمرُ حبُك .. كما كان قديماً؟

ٍ٥٥٥

ولأن النظرات قد تتغيرُ والقلبُ قد يهيمُ بآخرَ،
والحبَ قد لا يصيرُ غراماً - كما كان من قبلُ.
هل ستحبينني بصدق سنوات الشباب،
والسنوات الماضية؟!

٥٥٥٥

إنني أحبُك يا حلوتي، لخصلات شعرك الأشقر،
وللون خديك الوردي،
ولكنني أحبُك أكثر بسبب قلبك الحنون،
الذي أراه يطلُ من عينيك الزرقاوين الجميلتين!
ولأن العينين دليل على الروح التي بالداخل،
وعلى القلب المخلص الصادق؛
فإنني - يا معشوقتي - سأظلُ دائماً أحبُك،
ما دامت عيناك زرقاوين!!

٥٥٥٥

إن خصلات شعرك قد يتغير لونُها، والوجنات الخوخيَة
قد تُسلبُ نضارتَها
لكنني يا - معشوقتي - سأظلُ دائماً أحبُك،
ما دامت عيناك زرقاوين!!!

٥٥٥٥

رثاء

المهلهل*

أهاجَ قذاءَ عينيْ الإذّكارُ
هدوءاً فالدموعُ لها انحدارُ (١)
وصارَ الليلُ مشتملاً علينا
كأنَّ الليلَ ليسَ لهُ نهارُ
وبتُّ أراقبُ الجوزاءَ حتى
تقاربَ من أوائلها انحدارُ (٢)
أقلّبُ مقلتيَ في إثرِ قومٍ
تباينتِ البلادُ بهم فغاروا
دعوتُكَ، يا كليبُ، فلم تجبْني
وكيفَ تُجيبُني البلدُ القِفارُ
أجِبْني، يا كليبُ، خلاكَ ذمٌّ!
لقد فُجِعتْ بفارسِها نزارُ (٣)
وإنّكَ كنتَ تحلُمُ عن رجالٍ
وتعفو عنهمُ ولكَ اقتدارُ
فلا تَبْعَدْ فكلٌّ سوفَ يلْقى
شَعوباً يستديرُ بها المدارُ (٤)



يعيشُ المرءُ عندَ بني أبيهِ
ويوشكُ أن يصيرَ بحيثُ صاروا
كأنّي إذْ نَعى الناعي كُلَيْباً
تطايرَ بينَ جَنبيَّ الشَّرارُ
فَدُرْتُ، وقد عَشيَ بصريَ عليهِ
كما دارتْ بشاربِها العُقارُ (٥)

الهوامش

* المهلهل: هو أبو ليلى عديّ بن ربيعة من بني جشم بن بكر من بني تغلب، من أقدم الشعراء الذين وصلت إلينا أخبارهم وأشعارهم، فهو خال امرئ القيس وجد عمرو بن كلثوم لأمه.
وُلد المهلهل في بيت وجاهة، وقد نشأ على اللهو والتعرّض للنساء حتى سمي الزير (أي زير نساء). ثم رأس قومه وقادهم في حرب البسوس على إثر مقتل أخيه كليب وائل على يد جساس بن مرة البكري.
وتوفيَ المهلهل عام ٩٢ق.هـ(٥٣٠م)، قيل: أسيراً، وقيل: معتزلاً في البادية، بعد أن تقدمت به السن، وخلط في عقله.
١. الادكار: التذكر. هدوءاً: عند هدأة الليل، أول الليل.
٢. اقترب غيابها.
٣. تنزهت عن كل شيء فيه ذم أو عيب، خلوت من كل عيب.
٤. لا تبعد: تعبير يقال للميت، لاتذهب عنا. شعوب: الموت.
٥. عشي البصر: ضعف. العقار: الخمر.

مدينة الفرح الدائم

كامل السعدون
أوسلو - النرويج

من ألف مدينة صغيرة وكبيرة من مدن الإنس والجان.. من مدائن الشرق الغامض، واحدة ليست ككل المدائن.. ليس لها في عالم الشرق نظير.. أسماها أسياد القوافل وتجار التوابل، وشعراء القصور السلطانية.. مدينة الفرح الدائم.. حتى طغى هذا الاسم على أسمائها الأخرى العديدة جميعًا.. أما لمَ هذا الاسم لا غير.. فالأمر جد بسيط، ففي هذه المدينة لا شيء سوى الفرح. كل الأفواه مشرعة بالابتسام، كل العيون ضاحكة.. كل الأجساد مهتزة راقصة، بإيجاز إنها بلا أحزان. بدءُ هذا الأمر جاء عقب تبادل سلمي للسلطة حيث تولى الحكم شاب اسمه فرحة الزمان، فأصدر حال تسلمه السلطة فرمانًا بأن من لا يضحك يعاقب، وقد أوعز لشرطة الضحك بمتابعة المخالفين في الأسواق والأزقة..!

قال فتى من تجار جلود المواشي حين حاذت قافلتنا مدينة الضحك الدائم ولم يكن دخولها واردًا لدينا، بل الالتفاف حولها، كلفني أبي بدخول المدينة لاستعادة دين لدى كبير تجارها، وما كان أبي ولا كنت مطلعًا على ما استجدّ من شؤون في هذه المدينة.

ذُهلت لمرأى الناس.. وذهل الناس لمرآي.. الضحكات تجلجل في كل مكان.. أفواج الناس تسير كالسكارى.. لا أحد يتحدث.. لا طفل يبكي.. لا اثنان يتشاجران.. لا جنازة سائرة لمثواها الأخير.. لا شيء.. إلا الضحك.. صور الحاكم الضاحك تملأ نواصي الشوارع وجدران البنايات والدكاكين.. اقتربت من ناصية شارع عريض، قابلني حشد مهرولٌ من الناس كلُّ منهم مُمسك بطنه من الضحك. عجبي لهذه المدينة ولهؤلاء الناس.. الكل ضاحك، وليس في هيئتهم أو مُجمل أوضاعهم ما يستثير الضحك. لا أرى إلا وجوهًا شاحبة وأسمالاً رثة وأفواهًا جافة حاذاني أحدهم.. لقد جاؤوا (هتف بفزع).. انظر هناك شرطة الضحك.. اضحك.. اضحك.. لم أفهم الأمر.. التفت جهته صارخًا.. ولماذا؟.. ضاع صوتي أدراج الريح فقد ولى المسكين بعيدًا وهو يمسك بطنه.. تابعت مسيري قدمًا نحو بيت التاجر الذي قدمت أصلاً لزيارته وإذ بثلة من الشرطة على خيول أنيقة مطهمة يعترضون طريقي.. «ما هذا.. (وهم يضحكون). رجلٌ عابس في مدينتنا». ساطني أحدهم بسوطه وهو يضحك.. رفسني الآخر بحذائه وهو يضحك.. لطمني الثالث على أم رأسي وهو يقهقه.. اضحك أيها الكلب.. (صرخ بي من كان يبدو رئيسهم وهو يلكزني بطرف سوطه).. سقطت على الأرض والدماء تغمر وجهي والمارة المتراكضون يحدجونني بلا إشفاق وهم يضحكون وأنا أنزف من كل أنحاء جسمي وغبت عن الوعي فما عدت له إلا بعد مدة حين وجدت نفسي في غياهب مكان معتم قميء الرائحة، استنتجت بقليل من الفطنة أنه سجن.

التفت حولي وأنا أئن من الألم، فإذ جمع من الشيوخ والفتية يتحلقون حولي.. بين مستنكر وباك ومتسائل.. نظرت إليهم متسائلاً :«أما من أحد يخبرني عن سر الضحك الإجباري في مدينتكم، أما من أحد يذهب حيرتي، هذا جنون.. أن أضرب لأني لم أضحك.. أن أسجن لأني لم أضحك، هذا ما لا يعقل، لا أحد يستطيع أن يلزم الناس بالضحك.. لا يمكن.. هذا لا يعقل لقد أهنت بلا سبب.. لست من مواطني هذه المدينة، هكذا تكرم مدينتكم ضيوفها...!!!.

ماذا ألم تضحك.. أهذه جريمة تأتي من أجلها يا رجل.. ألم تجد في مدينتنا ما يضحك...

هذا مؤسف والله.. بل هذا عارٌ علينا ألا يجد ضيفنا ما يضحكه.. (قالها شيخ تجاوز الستين، وكان مهيب الطلعة، بدا من مظهره عز سالف)..

يا سيدي لم أجد!.. ثم لماذا يجب أن أضحك؟... ولماذا أعاقب...؟

هكذا هي الأوامر يا ولدي.. لقد أشاعوا بين الناس أن من لا يضحك فسيحل الوبال على بيته وأهله. على الكل أن يضحك وإلا فهذا مصيره، انظر إلى هذا الجمع الغفير حولك، كلهم سيقوا من المدارس والمزارع والمراعي والجوامع حيث وشي بهم بتهمة عدم الضحك. هؤلاء أعداء الضحك حسب ما يسمون، هذا الفتى (وأشار إلى صبي في ميعة الشباب) جاءت به أمه وهي ضاحكة وسلمته إلى قاضي الأفراح، وتلك المرأة (وانتبهت أول مرة إلى جمع من النسوة يفصلهن عنا بابان حديديان كبيران مشبكان بأضلاع



متباعدة والمسافة بين البابين بطول ذراع، وكانت المرأة المشار إليها واقفة عند البوابة تحد جني بنظرات غريبة) هذه المرأة نادبة الحي وعرافته.. منعت من ندب الموتى فامتثلت.. لكن حين قتل وحيدها في الحرب لم تستطع إلا أن تندبه.. فجاء بها زوجها إلى هنا.. يقول: إنه يريد أن يعطيها فرصة البكاء بأمان حتى تموت.

وأنت ياعم..؟ أنا ياولدي تاجر (أستدرك بأسى).. كنت تاجراً كبيراً... سرق أعوان الحاكم مالي، ساقوا أولادي الثلاثة إلى الحرب فقتلوا جميعاً.. وأنا رجل مؤمن لم أشأ التهلكة لنفسي بنفسي فجئت هنا لأموت.

ـ وأنت.. من أنت؟.. وما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ أنا يا سيدي ابن تاجر من مدينة...

ـ ومن أبوك يا ولدي؟

لاحظت عقب ذكري لاسم أبي أن الرجل قد بدا عليه الهم والكرب، بل أكاد أقول: إني لمحت دمعة تتلألأ في عمق عينيه، لكن الألم في جسمي والخوف واليأس في أعماقي أعمى بصيرتي، ولوث نقاء سريرتي، فلم أظهر فهماً ولا تعاطفاً. كنت في غاية الانشغال بنفسي ومصيري، بادرت مسرعاً بالسؤال:

ـ وأنا يا عم.. هل سأظل هنا حتى الموت..؟

ـ هذا يعتمد على (والتفت بحذر إلى الآخرين اللذين فارقانا كل لشأنه، وهمس) على قدرتك على الضحك حين يحين موعد المحاكمة، بل (مستدركاً) منذ لحظة المناداة باسمك واقتيادك إلى قاعة الحكمة، اضحك، اضحك..؛ حتى تصل إلى المحقق... استمر في الضحك وأنت تشرح دعواك، وأنت تغادر بوابة المدينة.. وبهذا تصل يا ولدي إن شاء الله سالماً إلى أهلك.. وفعلت بوصيته.. بل شرعت بالضحك منذ تلك اللحظة، قابلت استهجان زملاء السجن بالضحك، اعتدى علي بعضهم بالضرب فاحتملت ضاحكاً، بل هددني بعضهم بالقتل فلم أرعو، وكان الشيخ الطيب سندي، وصلواته مددي، ولدهشتي لم تطل إقامتي بالسجن، فأخرجت سريعاً وأنا أضحك واختبروا بسياطهم حرارة ضحكي فنجحت في الاختبار، احتضنني الشيخ باكياً.

ـ سلم لي على أبيك يا ولدي، اطلب منه أن يبرئني من دينه فما عاد عندي ما أسدده له!!

ـ أنت.. التاجر.. «قاطعني».

ـ نعم يا بني، اذهب إلى أبيك وليبارك له الله بك ويجعلك من أبناء السلامة، اذهب يا ولدي ولا تكف عن الضحك.. اضحك.. اضحك..!!

ودعته وأنا أضحك، ساطوه سوطاً أوقعه الأرض، وأجزم أنه لن يقوم من مرقده ذاك، لكني لم أكف عن الضحك حتى عبرت أسوار المدينة.. ساعتها بكيت.. بكيت على الهوان الذي عشته، والشيخ الذي مات ليسدد دين أبي من دمه!!

طقوس

عبدالهادي روضي
الدار البيضاء - المغرب

الساعة تشير إلى الثامنة ليلاً حسب التوقيت المحلي.. شوارع منتصف المدينة العتيقة مزركشة بفسيفساء الأضواء.. الأزقة مكتظة بأطفال الحي الذين يتسابقون في كل الاتجاهات.. يمزحون.. يشاركون.. يقهقون ويصرخون «أمر لا يصدق»، أليس ثمة ما يدفعهم إلى رسم هذا المشهد الطفولي الساخر؟!.. في الواجهة المطلة على القيسارية العمومية خلف المرحاض العمومي الذي يستقطب يومياً عشرات الوافدين، أرى حشدا متجمهراً ممن لا وظيفة لهم، يشكلون دائرة تشبه إلى حد ما «الحلقة»، كان إحساسي يومىء أن ثمة شيئًا ما يحيطون به.. حفزني الفضول إلى معرفة الأمر، سرت خطوتين ثم توقفت في مؤخرة الحشد بعد ما اخترقت الحاجز الفاصل بين كشك صديقي الكتبي والقيسارية.. أشرأب عنقي في محاولة لتخطي حاجز القامات الطويلة «روائح نتنة تنبعث من إبطي نساء بدينات»، «عراك بالأجسام المختلفة الأوزان»، الكلّ يريد أن يعرف ما يتوسط هذا الحشد، استمر المشهد حتى منتصف الليل، ومازلت لم أتمكن من معرفة دواعي هذا التجمهر.. تضاربت الأقاويل وتضاعف عدد المحتشدين.. انزويت في ركن بمحاذاة مرآب عمومي للسيارات لأتصفح جريدتي اليومية التي قرأت على صفحتها «حوادث» عنوانًا يلخص مضمون مقالة لمراسل الجريدة من نقطة خارجية.. كتب باختصار قائلاً: «ليلة البارحة شاهدت شيئًا في منتهى الغرابة، طفل ملقى به في كيس بلاستيكي يلفظ أنفاسه الأخيرة.. ما يوحي بالاستغراب أنه يحرك شفتيه.. يداعب حبل الوريد بيديه ويضحك.. أكيد أنه يسخر من أمه التي رفضت احتضانه خوفًا من تفشي القيل والقال، ومن أبيه المتنكر له بسبب البطالة الضارية في القدم.. أو ربما لأنه سعيد بتوديع هذا العالم في هذا الظرف، وبهذه الطقوس، المهم أنه مات قبل ثوان على وصول سيارة الإسعاف المستوردة من الخارج إلى حيث زج به، والضحكة بادية على محياه الشاحبة.

طويت الجريدة، وإن كنت لم أكمل قراءة



الصفحة بعد، مكتفيًا بهذا الحادث، ثم مزقتها في غضب وثورة.. من جديد صوبت عينيّ ناحية الحشد عساني أستقي جدوى تقاطرهم المستمر إلى المكان نفسه.. حتى صديقي الكتبي جذبه التيار وانساق خلفهم يبحث بنفسه عن نواة هذا التجمهر الشبيه بالمسيرة الاحتجاجية التي قادها ساكنو الحي القديم لتعميم الاستفادة من الكهرباء في مارس الماضي.. توغل وسط الحشد بغتة ساعده على ذلك جسده المفتول والقويّ، قبل أن يغادره بعدئذ، ملوحًا بيديه في السماء.. إنه يبدو نافخًا وغاضبًا.. يكاد يدخل في مشادة كلامية مع إحدى النساء.. يصرخ.. يشتم، يقول «كلنا مسؤولون»، وتغادر عيناه دموع تنساب كالحجر البازلتي على خديه.. غادرت مكاني مسرعًا صوبه.. ناديته.. تصافحنا.. تفوه أمامي بكلام قبيح ينم عن سخط عارم.. سألته: ماذا أثار غضبك «عبدالله»؟ ولِمَ أنت منفعل بهذا الشكل؟.. فضل الصمت دون أن يبوح بأي شيء يذكر.. كل ملامحه تومىءأن أمرًا ما أزعجه وهيج مشاعره الرقيقة.

انسحبنا من الحشد في صمت وإحباط، قاصدين مقهى المدينة القديمة.. جلسنا في الركن الأيسر من قاعة الشاي، حيث يجلس بائع السجائر بالتقسيط يعد الدريهمات التي جادت بها أيادي زبائنه..

أحضر نادل المقهى طلباتنا.. استرجع «عبدالله» أنفاسه، وقال في امتعاضٍ عميق: مؤسف يا صديقي ما يحدث في هذه المدينة التاريخية.. ثم مضى قائلاً: لم أتصور يومًا منذ أن وطأت قدماي هذا العالم الماجن، أني سأشاهد حادثًا بهذا الشكل المفجع.. تصور طفلاً لم تمض على ولادته إلا سويعات مرميًا به في كيس بلاستيكي وسط الزبالة.. وهو مازال حيًا يرزق.. هذا هو الأمر الذي يحشد تلك الجماهير التي ودعناها.. ما رأيك في الحادث؟.. فضلت السكوت هنيهة وأردفت: منذ ساعتين على التقائك تصفحت جريدتي اليومية، فاستوقفني سيناريو حادث مماثل.. لا يمكنني أن أقول شيئًا سوى ما رددته في انفعالك.. فكلنا مسؤولون حقًا، ومن غير المعقول أن تظل المدينة العتيقة تعيش الغرائب.. إنها على كل يا صديقي «طقوس زمن التيه».

إنجيل برنابا ومسألة صلب المسيح


تاريخ

نهاية الفيلسوف ديكارت

طالعت مقال الدكتور خالص جلبي نهاية الفيلسوف ديكارت بالعدد ٣١٠ من «الفيصل» وتوقفت عند قوله: «في تقديري كانت حركة القرآن لنفي قصة الصلب وصولاً إلى تحييد العقيدة التي قامت عليها قضية الصلب: أي التثليث وألوهية المسيح أكثر منها لنفي الطريقة التي قتل فيها بسبب ارتباط العقيدة بطريقة القتل».

في الحقيقة إن الانحراف بالأديان هو سبب الصراع بين معتنقيها، ولو سارت الأديان سيرها الطبيعي بوصفها رسالات من عند الله دون تحريف لالتقت جميعاً في أهدافها، وفي كثير من وسائلها ونحن نعتقد أن العقيدة الصحيحة معروفة لكثير من قادة الأديان، ولكن الانحراف وحب الدنيا وزينتها يزينان الباطل، ويدفعان إلى تأييد الانحراف.

قال تعالى: *قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين*. المائدة:٦٨. والقرآن جاء مصدقاً للتوراة والإنجيل وما فيهما من شرائع. والقرآن الكريم هو آخر الكتب المقدسة التي أنزلها الله إلى البشر، ولقد مضى حتى الآن أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان على نزول القرآن الكريم على نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن أي كتاب سماوي قد أنزله الله على أحد من البشر بعد نزول القرآن الكريم، فمن البديهي أن محتوى أي وحي مدعى سيكشف على الفور أكان ذلك الوحي صحيحاً أم كاذباً، ولذلك لم يحدث قط أن رأينا أي كتاب سماوي بحق بعد القرآن الكريم، ولا يعقل أن يدعي أحد مجرد ادعاء نظري أنه يستطيع أن يأتي بكتاب مثل القرآن الكريم، إذ ليست العبرة بالادعاء، ولكنها بالفعل، ولم يمض مثل هذا الزمان الطويل على نزول كتاب سماوي حتى كان الله سبحانه وتعالى قد أنزل غيره على نبي آخر حتى جاء الإسلام خاتماً للرسالات السماوية فلم ينزل أي كتاب مقدس بحق بعد القرآن الكريم دون ريب أو مراء(١) هذا عن القرآن فماذا عن الأناجيل؟

أناجيل مهمة أبيدت

كانت هناك أناجيل متعددة تتكلم على حياة المسيح ودعوته منها إنجيل عيسى عليه السلام نفسه، وقد ورد ذكره في إنجيل مرقص «الإصحاح الأول الفقرة ١٤»؛ وفي رسالة بولس إلى أهل رومية. ومن الأناجيل إنجيل السبعين وإنجيل التذكرة وغيرهما من الأناجيل الكثيرة. وهناك أناجيل ورسائل فنيت في عهد الاضطهادات الأولى التي عانتها المسيحية، ولكن بقي جزء كبير من الأناجيل والرسائل أخفاها ذووها ثم أظهروها عندما غلبت المسيحية أعداءها فقدموها إلى الكنيسة التي قررت مصير هذه الأناجيل(٢).

ومن المعروف أن الأناجيل الأربعة المعروفة الآن «العهد الجديد» وهي: إنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقص، وإنجيل يوحنا. لم تكن في عداد الكتب المقدسة للمسيحية قبل عام ٣٢٥م أي في القرن الرابع الميلادي، إذ تم انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تعد ولا تحصى، وصودق عليها(٣).

كيف وصل إلينا إنجيل برنابا؟

يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي

جلس على الأريكة البابوية عام ٤٩٢م يعدد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا(٤). وهكذا اختفت الأناجيل، وضاعت نسخها، ولم يبق منها إلا هذه النسخة التي وصلت إلى بر السلامة. حينما أخذت مكانها في مكتبة البابا نفسه، وقد احترقت وفنيت نسخ هذا الإنجيل كلها وسلمت هذه النسخة من ظلام العصور الوسطى. وبهذا استطاعت هذه النسخة الفريدة من إنجيل برنابا أن تحيي ما أوشك أن يندثر من معالم هذا الإنجيل(٥).

وصلت هذه النسخة من الإنجيل إلى مكتبة البابا سكتس الخامس بروما، واختفت المكتبة نحو القرن السادس عشر، ويرجح أن الذي اختلسها راهب اسمه فرامرينو وعن طريق هذا الراهب آلت هذه النسخة إلى مكتبة أحد وجهاء أمستردام، إذ بقيت حتى مطلع القرن الثامن عشر، وفي عام ١٧٠٩م كان كريمر - أحد مستشاري ملك بروسيا ينزل في أمستردام، وكانت له بهذا الوجيه صلة، ولما رأى هذه النسخة من إنجيل برنابا استعارها، ثم ذكر للوجيه أنها عظيمة القيمة. وفي عام ١٧١٣م أهدى وجيه امستردام هذه النسخة إلى البرنس - أيوجيني سافوري - الذي كان مولعًا بالعلوم والآثار التاريخية، ثم انتقلت هذه النسخة مع مكتبة البرنس كلها إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا، حيث لا تزال هذه النسخة موجودة حتى الآن(٦).

ويؤكد صحة هذا الكلام ما رواه د. محمود محمد عبدالقادر في كتابه «بيولوجية الإيمان» من أن هذه النسخة إيطالية محفوظة في فيينا - ترجمها إلى الإنجليزية المستشرق سايل، والدكتور منكهوس أحد أعضاء الكلية الملكية في اكسفورد، وقد علق سايل في مقدمة كتابه أن مكتشف النسخة الإيطالية راهب لاتيني يسمى فرامرينو، وقد درس بعمق هذا الإنجيل مما جعله يعتنق الدين الإسلامي بعد ذلك(٧).

وهناك نسخة أخرى لهذا الإنجيل باللغة الإسبانية ظهرت نحو عام ١٧٨٤م، ولكنها فقدت بعد ذلك، وهي نسخة مترجمة عن الإيطالية ويقال: إنها ترجمت عن نسخة الراهب فرامرينو الوحيدة المعروفة حاليًا(٨).

ولقد ترجم هذا الإنجيل إلى اللغة العربية من الإنجليزية في مطلع القرن العشرين وقام بترجمته د. خليل سعادة، وقدم له، ونشره الأستاذ محمد رشيد رضا صاحب المنار.

من هو برنابا؟

بناء على ما جاء بإنجيل برنابا، فإن برنابا من الحواريين الاثنى عشر. فقد ورد في هذا الإنجيل ما نصه: «فلما رأى يسوع أن الجمهور الذي عاد إلى نفسه ليسلك في شريعة الله جمهور غفير، صعد الجبل، ومكث كل الليل بالصلاة، فلما طلع النهار نزل من الجبل، وانتخب اثني عشر سماهم رسلاً، منهم: يهودا الذي صلب. أما أسماؤهم فهي: أندراوس، وأخوه بطرس العياد، وبرنابا الذي كتب هذا مع متى العشار الذي يجلس للجباية، ويوحنا، ويعقوب ابنازبدي، وتداوس، ويهودا، وبرتولومارسي، وفيليبس، ويعقوب، ويهودا الأسخريوطي الخائن»(٩).

الأسباب التي دفعت برنابا إلى تأليف إنجيله

وضح برنابا الأسباب التي دفعته إلى تأليف هذا الإنجيل في مقدمته التي كتبها لهذا الإنجيل بقوله: «أيها الأعزاء: إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين أن المسيح ابن الله، رافضين الختان الذي أمر به الله دائمًا، مجوزين كل لحم نجس. والذين ضل في عدادهم أيضًا بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، **وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد** بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصًا أبديًا»(١٠).

ولا تعترف الكنيسة بهذا الإنجيل، ولا تقيم له وزنًا لما ورد فيه. ويخالف الأناجيل الأربعة الأخرى المشهورة في عدة أمور جوهرية هي:

- أن يسوع - عيسى عليه السلام - أنكر ألوهيته، وكونه ابن الله، وذلك على مرأى ومسمع من جمهور عظيم.. يبين برنابا أن ادعاء ألوهية المسيح بدأ في حياة المسيح بسبب معجزاته واتجاهها في إحياء الموتى وإبراء الكمه، وغيرذلك

مما ليس للبشوية به عهد. فقد أورد برنابا قول عيسى منكراً ألوهيته: «إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أنني بريء من كل ما قال الناس عني من أنني أعظم بشر، لأني مولود من امرأة، وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام»(١١).

- أن الابن الذي عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة لله، إنما هو إسماعيل لا إسحاق.

- أن محمداً - هو البشرى المنتظرة، فقد جاء إنجيل برنابا صريحاً غاية الصراحة في ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتكرر هذا الاسم في عدة مواضع، منها ما جاء في الفصل التاسع والثلاثين «فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها: لا إله إلا الله محمد رسول الله - ففتح حينئذ آدم فاه وقال أشكرك أيها الرب إلهي؛ لأنك تفضلت وخلقتني، ولكني أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات - محمد رسول الله - فأجاب الله مرحباً بك يا آدم وأنا أقول لك. أنك أول إنسان خلقته وهذا الذي رأيته إنما هو ابنك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة الذي متى جاء سيعطي نوراً للعالم»(١٢).

- أن عيسى لم يصلب، بل حمل إلى السماء، وأن الذي صلب إنما كان يهودا الخائن الذي شبه به فقد جاء في الفصل الثاني بعد المئة: «ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال عني هذه الوصمة وسيفعل الله هذا بي لأنني اعترفت بحقيقة - مسيا - الذي سيعطيني هذا الجزاء. أي أن أعرف أني حي وأنا بريء من وصمة تلك الميتة»(١٣). وهذا النص يشهد بأن القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هو الذي برأ المسيح - عليه السلام - من تهمة القتل والصلب، قال تعالى: *وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا*. النساء:١٥٧.

ولا شك في أن هذا الإنجيل - إنجيل برنابا - يتفق في أكثر مسائله مع القرآن الكريم ويزيل الهوة التي ابتدعها بولس، والتي أبعدت المسيحية عن الأديان السماوية «يذكر برنابا في مقدمة إنجيله أن - بولس - انفرد بتعليم جديد مخالف لما تلقاه الحواريون عن المسيح، ولكن تعاليمه هي التي غلبت وانتشرت واشتهرت وصارت عماد النصرانية(١٤).

ولأن اسم النبي صلى الله عليه وسلم ورد صريحاً في إنجيل برنابا بلفظ محمد أو بلفظ رسول الله الذي تشير إليه كلمة - مسيا - فقد شككوا في نسبته، وزعموا عدم صحته. وخلاصة ما جاء في هذا الإنجيل هي أن الله لم يتخل قط عن رسله والمؤمنين في حالات المحن، لقد نجّى نوحاً ومن آمن معه، ونجى إبراهيم من النار، وكذلك موسى ويوسف، ولم يتخل الله عن عيسى، بل رفعه، وأوقع الخائن يهودا في شر أعماله، ونجى المؤمنين. ومما لا شك فيه أن مكتبة الفاتيكان إنما تحتوي على كثير من بقايا الأناجيل التي كتبت والتي منع تداولها في القرون الأولى الميلادية(١٥)، وقد روى بعض الكتاب الإنجليز القدامى قبل ظهور الإسلام أنه اطلع في مكتبة الفاتيكان على نسخة من الإنجيل كتب فيها: «يقول المسيح مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد وذلك يوافق النص القرآني بالحرف»(١٦)، ولا شك فإن تعدد الأناجيل كان مثار جدل، فلا يعرف بالتحديد متى كتبت، ومن هو مؤلفها الحقيقي؟ أو بأي لغة ألفت؟ وهذا ما يدعو إلى الريبة والشك.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي

نواج ٢١٧٣٢ - المستشفى - قسم الأشعة - طنطا - مصر

المراجع

١. مصداقية القرآن الكريم، علي الجوهري، ص٢٠.
٢. مقارنة الأديان، الجزء الثاني: المسيحية، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة، ط ٨، ١٩٨٤م، ص٢٠٧ - ٢٠٨.
٣. إنجيل برنابا، ترجمة خليل سعادة، المكتبة التوفيقية، مقدمة المترجم، ص٣.
٤. مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص٢٩٥.
٥. إنجيل برنابا، مقدمة المترجم، ص ل.
٦. مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص ٢٠١.
٧. إنجيل برنابا، مقدمة المترجم، ص. هـ
٨. بيولوجية الإيمان، أ.د. محمود عبدالقادر، ص٦٢.
٩. إنجيل برنابا، مقدمة المترجم، ص ح.
١٠. إنجيل برنابا، الأرقام ١٤ من ٩ - ١٢.
١١. إنجيل برنابا، مقدمة المترجم ص٥.
١٢. إنجيل برنابا، الإصحاح ٩٤ من ١ - ٢.
١٣. إنجيل برنابا، الأرقام من ١٤ - ٢٢ ص١٢٥.
١٤. إنجيل برنابا، الأرقام من١٧ - ٢٣ ص ٢٢١.
١٥. إنجيل برنابا، الأرقام من ٥ - ٦ ص٨٣.
١٦. بيولوجية الإيمان، مرجع سابق، ص ٦٣.

رحلة
في كتاب

مقاتلون في سبيل الله

مراجعة : بشير العيسوي
الرياض ـ السعودية

بين أيدينا كتاب ضخم في حجمه إذ يبلغ ٧٢٥ صفحة، ومهم في موضوعه ، وهو أكثر الكتب مبيعاً وقراءة في الغرب وأمريكا بصفة خاصة؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي وجده القارئ في الغرب وأمريكا عقب أحداث ١١سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م ليقرأ فيه عن علاقة الإسلام و المسلمين بالمسيحية و المسيحيين، وثالثا فالكتاب شائق في عرضه للحرب الصليبية الثالثة، وهي من أصعب الموضوعات وأعقدها التي يتعرض لها كاتب على الإطلاق، إذا أراد أن يكون منصفاً وموضوعياً.

ظهر كتاب جيمس ريستون الابن، مقاتلون في سبيل الله: صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة James Reston, Warriors of God: Richard the Lionheart and Saladin in the Third Crusade وترجمه إلى العربية الدكتور رضوان السيد، أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة اللبنانية، وأصدرته مكتبة العبيكان بالرياض، المملكة العربية السعودية ليكون بين أيدى القراء العرب بعد خمسة أشهر تقريباً من ظهوره باللغة الإنجليزية.

وتتمثل ضخامة الكتاب في أنه يتناول الحرب الصليبية الثالثة، ويخصصه المؤلف لدراسة العلاقة والحرب بين ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧ ـ ١١٩٩م). و قد حكم إنجلترا في الفترة (١١٨٩ ـ ١١٩٩م)، كما قاد الحرب الصليبية الثالثة في الفترة (١١٩٠ ـ ١١٩٢م)و وصلاح الدين الأيوبي (اسمه الحقيقي يوسف نجم الدين بن أيوب ١١٣٧ ـ ١١٩٣م). و يقع الكتاب في قسمين: الأول عنوانه «الإهانة» و يضم سبعة عشر فصلاً هي: ولادة سلطان، ومملكة السماء، والزناد والشرارة، والأمير ريتشارد، والجهاد، وكانت أسودهم نماذج، والمياه الساكنة، وعشاق وملوك، والعروس والجمل، والرحمن الرحيم، وبيت داوود، ووثنيون في ميراثك، وموعد في فيزلي، والأشرعة الحمراء، ورسائل من الأرض الموعودة، وزيارات في صقلية، وفاكهة أفروديت.



أما القسم الثاني وعنوانه «المبارزة» فينقسم إلى ستة عشر فصلاً هي: الاختبار المقدس، ولاتضيعوا الأجر، والوطن: النار تحت الرماد، وسهل شارون، واليوم الرابع عشر من شعبان المعظم، وذعر واهتياج وسط أشجار الرمان، ولهب مقدس و شيطاني، والخنجر على الوسادة، وحكاية الأعشاب الضارة، وبلاد شمشون، وشجرة الخليل الجافة، والكبش يتأخر لينطح، ولنتصافح، والخيط الرفيع، والنصر الأخير، وليس بالبراعم و الأوراق بل بالثمار.

ويعقب محتويات الكتاب صفحتان يقدم فيهما المؤلف «الشخصيات الرئيسية» ـ وصحتها الرئيسة ـ مقسمة إلى شخصيات «المملكة الصليبية ببيت المقدس»، و«المسلمون

في مصر وسوريا»، و«الصليبيون الآتون من أوروبا» و«آخرون». وليس مألوفا في كتاب التاريخ أن يقدم المؤلف شخصياته هكذا، فهذا هو أسلوب المسرح كما عهدناه عند شكسبير، وعند كل كتاب المسرح حتى اليوم. وكأننا بالكاتب يريد أن يقول: إنه يقدم قراءة درامية للحروب الصليبية الثالثة. وهذا بالفعل ما حدث. فالكاتب يقدم مادة تاريخية جافة الا أنه يطورها لتصبح حكاية، وهو يميل الى أسلوب الحكي، وهذا ما يميزه من آخرين تناولوا أحداث التاريخ بشكل قصص و حكايات. وأشهر هؤلاء ويل وأريال ديورانت في كتابهما قصة الحضارة الذي يقع في أحد عشر مجلداً Will & Ariel Durant. The Story of Civilization. 11 volumes. New York: Simon and Schuster, 1950

وأستطيع القول: إن جيمس ريستون قد تفوق في طريقته السردية على ويل ديورانت. وذلك أن كتاب ريستون قد خلا من التوثيق المرجعي الذى ظل ديورانت محتفظاً به على الرغم من انتهاج الاثنين طريقة الحكي في تقديم الأحداث. لم يدخل جيمس ريستون في كتابه أي هامش يوثق لمقتطفاته، أو يثبت مرجعيتها، والتوثيق في النسخة العربية جاء مساهمة متميزة من عند مترجم الكتاب الأستاذ الدكتور رضوان السيد، الذى استطاع بحكم تخصصه أن يعيد معظم الروايات في كتاب ريستون إلى مراجعها الأصلية في العربية، أو ما ترجم منها الى اللغة الإنجليزية. وهذا جهد كبير للمترجم يذكر فيحمد.

ودراستنا للكتاب تتمحور حول ثلاث نقاط رئيسة هي: «جدل المؤلف حول الحروب الصليبية»، فنحاول فيها بلورة وجهة نظر المؤلف حولها ومدى مشروعيتها ومسوغاتها: أهي أخلاقية فقط؟ أم سياسية فقط؟ أم أنهما الاثنتان معاً؟ والنقطة الثانية حول «شخصية المؤلف» وهذه تعني الكثير بالنسبة إليّ، فهي تطرح أسئلة كثيرة: هل سيكون المؤلف موضوعيا في حكمه على صلاح الدين؟ وهل سيكون موضوعيا بالقدر نفسه عند الحكم على ريتشارد قلب الأسد، وهو من بني جلدته؟ وإذا لم يكن موضوعياً مع قلب الأسد، وكان موضوعياً مع الناصر، فلماذا؟ وهذه الأسئلة تقودنا إلى المحور الثالث في الدراسة وهو «كردية صلاح الدين». وهذا المحور يناقش أسئلة كثيرة منها: إلى أي مدى أثرت ولادة صلاح الدين ونشأته - غير العربيتين - في شخصيته البطولية الأسطورية فيما بعد؟ وما دور الإسلام في تشكيل هذه الشخصية؟ وما دور التربية الإسلامية؟ وما دور القرآن في حياة صلاح الدين؟ وقد حذفت من هذه الدراسة محورين آخرين لهما علاقة بالكتاب المترجم من الناحية الفنية، يتعلقان بالأخطاء المطبعية(٢٦ خطأ) وأخطاء في الترجمة (٥٦ خطأ) آثرت أن أسلمهما يداً بيد لدار العبيكان حتى يتم تلافيهما في الطبعة الثانية، بعون الله، كي تكتمل الصورة الجميلة لهذا الكتاب المتميز في أصله، وكذا في ترجمته.

جدل المؤلف حول الحروب الصليبية

بداية، يقول جيمس ريستون «كانت الحروب الصليبية الثالثة حرباً مقدسة؛ بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. لكن، وكما يحدث في سائر الحروب، فإن كثير مما حدث فيها كان بعيداً عن القداسة. وهذا تناقض يستهل به المؤلف جدله حول الحروب الصليبية هل يريد بهذا التناقض أن يرضي المسيحيين والمسلمين في آن؟ التناقض بين، خصوصاً بعدما يعدد المذابح التي وقعت من المسيحيين في حق المسلمين جنوداً ومدنيين في فلسطين. إلا أنه يستمر كخلاصة لهذا الموقف العجيب في الصفحة نفسها: «وقد كانت في الحقيقة حرباً مسيحية مقدسة، جوبهت من جانب المسلمين بما يعرف بالجهاد. والجهاد في الواقع حرب دفاعية، شرط مشروعيتها العدوان من جانب الكفرة المعتدين».

> مرات كثيرة تلك التي لا يمل فيها ريستون من تكرار أن الأخلاق النبيلة هي سبب انتصار صلاح الدين فمنها مثلاً، الإبقاء على كنيسة القيامة بدل هدمها بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس

وهذا التناقض قد يزول بالخلاصة التي يسوقها على النحو الآتي: «ولهذا فإن من سخرية التاريخ أن تبعث كلمة «الجهاد» الرعب في قلوب بعض الغربيين وحكوماتهم، لأنهم يربطون الجهاد بالإرهاب والتعصب الإسلامي، والحق أنه لا شيء في التاريخ الإسلامي يضاهي إرهاب الصليبيين أو التعصب المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي».

والتمهيد رائع و جذاب وفيه خطة عمل المؤلف، وكذا فيه رؤية موضوعية للحرب الصليبية الثالثة، فيرى صلاح

الدين مجاهداً بقداسة وروحانية تعلو كثيراً قداسة خصمه ريتشارد قلب الأسد وروحانيته. وفي سياق كلامه نلمس أن الموقف الأخلاقي، وأخلاقيات البطل أمر لازم وأساسي لكسبه أي معركة تحت أي ظرف. صلاح الدين رجل أخلاق - في نظره - أما ريتشارد فليس كذلك، وربما هذا هو السبب في النصر الذي حققه الأول على الثاني.

تركز مشروعية الحروب الصليبية التي يتحدث عنها المؤلف مليًا في الصفحات ٣٥ إلى ٣٨ في أن المسيحي يجب أن يحمل السلاح للدفاع عن الأرض المسيحية ضد أعداء المسيح. ويتلاءم ذلك تمامًا مع الدعوة لحماية الأرض المقدسة (بحسبانها أرضًا مسيحية). ويمضي أوغسطين قائلاً: إن الحرب تكون مقدسة أيضًا إذا أقرها المسيح، و الجنود ليسوا إلا خوفًا للرب (تطيعون أوامره)... وقد وضع شارلمان هذا التوجه موضع التطبيق عندما حاول غزو إسبانيا الإسلامية، كما عند إنشاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة في أوروبا.


صلاح الدين الأيوبي

يتبادر إلى الذهن سؤال قد يكون فيه بعض الطرافة، و قد احتلت إسرائيل القدس منذ عام ١٩٦٧م، وهودتها وضمتها رسميًا، ألا يعد المؤلف هذا العمل الإسرائيلي اعتداءً على أرض مقدسة مسيحيًا؟ أم أن الحجج التي يسوقها لتسويغ الحرب الصليبية اعتداء على المسلمين لا تنطبق على اليهود؟ هل يستطيع أي جيش مسيحي اليوم النزول إلى القدس وتحريرها من أيدي اليهود الذين اغتصبوها رسمياً عام ١٩٦٧م؟ أم أن الأمر سفسطة فارغة وترديد لمزاعم تاريخية في شرعية الحرب على الآخر، أي آخر تحت ستار الدين ومصالح الحكام والإمبراطوريات المستغلة؟ ومع ذلك يعي المؤلف أن أوربان Urbanغير محق في فتواه التي عرض فيها «إسقاط ذنوب و خطايا سائر الذين يقاتلون المسلمين...». ويصف حال الصليبيين في عكا على لسان مطرانها قائلاً: «كما أن فيها كثيراً من المومسات، وبيوت الدعارة. ولأن الداعرات يدفعن إيجاراً عاليًا للمنازل؛ فإن المؤجرين ليسوا الناس العاديين وحسب؛ بل بينهم رجال دين، ورهبان أحيانًا، وهم يقومون بتأجير منازلهم للمومسات»؛ أي أن الرهبان والمجاهدين الصليبيين قوادٌ وحماةٌ للمومسات.

إلى ذلك كانت ثلة من الصليبيين مجرمين ينفون إلى القدس لتحرير أرض الميلاد، وهي الطريقة نفسها التي اتبعتها بريطانيا في استعمار أستراليا، فكانت تنفي إليها كل مجرميها والمحكوم عليهم بالإعدام. «وفي محاولة لتحويل اللعنة إلى فروسية، تاب غي Guy، وحمل الصليب، ومضى نحو الأراضي المقدسة».

وقد أصبح غي لوزينان، المجرم القاتل ملكًاعلى أكيتان، وملكًا على القدس. أما ريجنالدشاتيون فقد «جاء إلى الشرق في سنة ١١٤٧م مع الحملة الصليبية الثانية مغامراً، و باحثًا عن حظ وسلطة، وليس من أجل غايات روحية. ظهر شاتيون كشخصية سوداوية كريهة «فقد قادته تصوراته السوداوية إلى رسم خطة لمهاجمة قلب الإسلام - المدينة ومكة، الأكثر قداسة بين المدن في نظر المسلمين - متوعداً بتلطيخهما بالعار والشنار قبل تدميرهما. فقد تباهى بأنه يريد إخراج النبي محمد صلى الله عليه و سلم سائق الجمل

من قبره! ثم أنه يريد أن يهدم الكعبة التي يتجه إليها المسلمون في صلواتهم و حجرها الأسود المقدس، من الأساس». وهذا ما اضطر الناصر صلاح الدين أن ينظر إليه بوجل و تخوف حتى كان أمر قافلة الكرك، التي أخذها شاتيون رهينة وأسراً وقال لهم شاتيون: «دعوا محمداً يأتي فيخلصكم»!، وكان في القافلة أخت صلاح الدين، عندها أقسم السلطان إن مكنه الله من حصن الكرك ليقتلن شاتيون بيده. وهذا ما حدث لاحقاً إذ فصل صلاح الدين كتف شاتيون من جسده وترك البقية لحراسه ليجهزوا عليه. وفي سياق عرضه للموقف الأخلاقي للصليبيين، يرى ريمستون أن الملكات و الأميرات لم تكن أخلاقهن على قدر من القداسة يمكن أزواجهن و أبناءهن من كسب هذه الحرب. فالملكة إليانور، وهي زعيمة الحروب الصليبية المقدسة لم تزد في نظر المؤلف عن عاهرة وزنديقة إبان الحرب الصليبية الثانية «فقد شاع أن إليانور المنصرفة في أهوائها، عندما وصلت إلى إنطاكية، وكانت وقتها في الخامسة والعشرين من العمر، انهمكت في غزل مشين مع عمها ريموند الإنطاكي انتهى بها في سريره. ومن أجل ذلك فإن زوجها البائس لويس دوق أكيتان - وضعها تحت حراسة مشددة طوال ما بقي من شهور الحملة الصليبية». نرى هنا مستنقعاً للقذارة الصليبية: إليانور عاهرة، العم زنديق، أما الزوج فقوّاد وديّوث. وبالطبع انفصلت إليانور عن لويس، وتزوجت من هنري الثاني عام ١١٥٢م، فأنجبت له الأولاد تترى، كان ثالثهم ريتشارد قلب الأسد عام ١١٥٧م. ولتكتمل الصورة أصبح الأمير ريتشارد فيما بعد لوطياً مع حبيبه فيليب ملك فرنسا. أما أبوه هنري الثاني فقد قتل توماس بيكيت أسقف كنتر بري الذي دعا إلى استقلالية الكنيسة ووضعها فوق الولاء للملك. ولهذا فليس من المستغرب أن يقوم الأمير ريتشارد بالتمرد على أبيه و«يحاول أن يجمع جيشاً من طريق إثارة البارونات الصغار على والده، وحصار بعض القلاع التي ما تزال على ولائها لهنري الثاني».

على النقيض من ذلك يرى المؤلف أن صلاح الدين كان فارساً نبيلاً، احترم أسراه وعاملهم أحسن معاملة إن هم قابلوها بالحسنى، أما إذا أساؤوا الأدب فلهم الخنجر والسيف. ومثال ذلك، إنه بعد هزيمة شاتيون وريموند في حطين، أحضر هذان القائدان مكبلين إلى خيمة صلاح الدين الذي ابتدر شاتيون قائلاً له: «لو أنك أسرتني كما أسرتك، يا أمير شاتيون، ماذا كنت لتفعل؟ وأجاب شاتيون بصراحة: لو أعانني الله وأسرتك لسارعت إلى قطع رأسك! و قال السلطان ساخطاً: خنزير! أنت في يدي، وتجيبني بهذه الصفاقة؟!... ثم أتاح له فرصة أخيرة عندما عرض عليه الإسلام فأبى شاتيون اعتناقه. هكذا أخذ صلاح الدين خنجره المعقوف، وضرب به ذراع الفارس فاصلاً يده عن كتفه. وسارع العبيد لقطع رأسه ووضعه أمام السلطان. ثم جيء بالملك غي وهو يرتعد فزعاً، وقد وطن نفسه على الموت، فطمأنه السلطان، وقال: «إن هذا تجاوز حده فجرى عليه ما جرى» فسارع الملك إلى الركوع أمام السلطان فطلب منه القيام و قال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك. ثم عرض عليه كأساً آخر من الجلاب المثلج، وكرر قولته: ما كان شاتيون ملكاً؛ وقد تجاوز حده».

قام صلاح الدين بإعادة شتات اليهود إلى أرض القدس؛ مما استحق أن يمتدحه الشاعر اليهودي يهودا الحريري، شاكراً فضله على هذه النعمة العظيمة

ويعتب المؤلف على صلاح الدين تسامحه مع ريموند و عفوه عنه، ونحن نوافقه على ذلك، لأن الأخير سيخون العهد الذي قطعه على نفسه بألا يرفع سلاحاً في وجه المسلمين، وسيكون ذلك عقبة في وجه صلاح الدين عندما يزحف شمالاً نحو الساحل. مع أنه بعد فتح حطين بيع الجندي الإفرنجي بحذاء، ويدافع ريستون عن الإسلام في أكثر من موقف، ومنها هنا أنه يرى الإسلام ضد قصة الصلب والصليب. فبعد فتح حطين، أخذ صليب وعلق «على قنطاريه منكساً و دخل به إلى دمشق. والواقع أن هذا العمل المعتبر إهانة دينية، ينظر إليه المسلمون نظرة أخرى. فهم لا يقصدون من ورائه إهانة المسيح الذي يعتبرونه نبياً كريماً، بل إنما يريدون التعبير عن إنكارهم لقصة الصلب. لقد كان السيد المسيح رجلاً عظيماً، ولم يكن إلهاً، فلا إله إلا الله، ومحمد رسوله، وخاتم أنبيائه. وقد بعث بدين الإسلام لتصحيح و توضيح التحريف والتشويه الذي نزل بالمسيحية. لذلك يرفض الإسلام قصة موت المسيح باعتبارها غير جديرة بالدين المسيحي الصحيح». ويؤكد المؤلف أن مآسي الحرب الصليبية الأولى لم تغب عن بال


ريتشارد قلب الأسد

صلاح الدين، فما حدث في ١٥يوليو/ تموز ١٠٩٩م من ذبح الصليبين لكل من ليسوا من بني جلدتهم و«أن جثث كثير من القتلى كانت مشقوقة أو مفتوحة لما شاع من أن المسلمين كانوا يخفون ذهبًا في أجسادهم. وبلغت أعداد المذبوحين بالمدينة حسب التقديرات حوالي الأربعين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال. أما كنيسة القيامة، كنيسة الذخيرة المقدسة، أكثر الكنائس قداسة في العالم المسيحي فقد تحولت إلى بركة من الدم» ظل ماثلاً في ذهن صلاح الدين. ويذهب المؤلف الى أن صلاح الدين شخصية تاريخية نبيلة وأنه حينما صالح وسالم ما كان ينبغي لملوك أوروبا أن يقسوا عليه، لأنه بسرعة تحول إلى رافض ومحارب لا تلين له قناة حتى في أحلك الظروف ظلمة، وقال باليان: إن على صلاح الدين أن يذكر شروطه للاستسلام؛ بعد أن قال: إنه مستعد لتسليم المدينة مقابل العفو عن سكانها. وأجاب صلاح الدين: «لا عفو عنكم و لا رحمة لكم! غداً سنصبح سادتكم، فنقتل رجالاتكم، ونبيع نساءكم وفقراءكم في سوق العبودية».

مرات كثيرة تلك التي لا يمل فيها ريستون من تكرار أن الأخلاق النبيلة هي سبب انتصار صلاح الدين فمنها مثلاً، الإبقاء على كنيسة القيامة بدل هدمها بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس، وهنا يعلق ريستون قائلاً: «فالمسلم الصالح هو الذي يحترم الديانات الأخرى وأماكنها المقدسة ومعابدها. وبعد الدخول إلى القدس أقفلت الكنيسة لثلاثة أيام فقط، و سمح للمسيحيين بعد ذلك بالدخول إليها مقابل رسم زهيد»؛ وذلك يناقض ما فعله الصليبيون في المسجد الأقصى حيث حولوه إلى مقر إداري و إصطبل لفرسان الهيكل، كما أنهم حولوا محراب الجامع إلى مستراح ومكان للغائط. ولذا ينهي ريستون تعليقه حول سلوك صلاح الدين بعد فتح القدس قائلاً: «و يبدو أن أفعاله اعتبرت علماً و نموذجاً على كيفية سلوك المسلم الصحيح. فبسبب عفوه، و وجوه الخير المتعددة في طبيعته و سلوكه تجاه أعدائه، سيظل مشهوراً إلى الأبد باللطف والتسامح والحكمة». ويعود ريستون إلى ترديد مقولة أن نصر صلاح الدين كان تكفيراً لذنوب المسيحيين، ولكنه ينتهي إلى رفضها، وهو يعيد فكرة أن صلاح الدين لم يكن ينتصر بسبب قوته و ضعف الآخرين، ولكن بسبب «ذنوب المسيحيين و انحطاطهم». تظل الجدلية المادية للحرب مهيمنة على فكر ريستون حينما يصف نظرة الجنود المسلمين إلى حربهم ضد المسيحيين وقلاعهم. ويقدم ريستون تصويراً غريباً للقلاع الصليبية في نظر المسلمين،

فهو يشبه تلك القلاع بالإناث، والمسلمون يرغبون فيهن، وبذا لا سبيل أمام رجال المسلمين إلا أن يغازلوهن غزلاً عفيفاً أو أن يغتصبوهن. وهذه الصورة تقدم المسلمين بصورتين متناقضتين: الأولى التعامل مع المرأة من خلال الغزل العفيف، وهذا غير محمود في البيئة الإسلامية المحافظة وخصوصاً بيئة جنود صلاح الدين، فالعلاقة الوحيدة تكون الزواج فقط. أما الاغتصاب فهو جريمة يعاقب عليها الإسلام منذ أن نزل القرآن، واستقرت أمور الدولة الإسلامية و عقوبته هي حد الحرابة الذي يصل إلى القتل بحد السيف. فالاغتصاب معروف لدى الجنود الصليبيين لأن مسيحيتهم حللت لهم ذلك وباركته. أما الحرب عند المسلمين فلها أخلاقيات وقواعد، وهذا ما لم يعرفه ريستون، وإن عرفه فهو لم يحاول تقديمه في صورته. فالمسلمون في هذه الصورة إما فاسدون أخلاقياً وإما مجرمون. وهذا ما نرفض أن يكون عليه حال المسلمين، ونعتب على المترجم أن مرر هذه الصورة الغريبة والبذيئة في آن.

أما نهاية صلاح الدين كما يقدمها كتاب «مقاتلون في سبيل الله» فهي مختلفة من كل ناحية عن نهاية ريتشارد قلب الأسد. ويصور ريستون وفاة صلاح الدين وتغسيله ثم دفنه كأبدع ما تكون الصورة التي يموت عليها مسلم عاش وقاتل ومات في سبيل الله، ولم يتطلع إلى ثراء الدنيا والملك الذي كان تحت يديه، وهذه نهاية زاهدة في الدنيا لمؤمن جسور: «غسِّلت الجثة، كما جرت العادة، وشدت ثيابه الخاصة - بما فيها سرواله وصدريته وقباؤه المميز بمعصميه الأسودين - في رزمة محكمة الإغلاق. أتمت إجراءات الدفن بالغرابة فقد تبين أن السلطان لم يكن يملك شيئاً لا عقارات ولا بيوتاً ولا أراضي و لا جنائن ولا ذهباً أو فضة في خزائن ما خلا ستة و أربعين درهماً نصيرياً أي أقل من ليرة إنجليزية. و بالتالي أجبر مساعدوه على استدانة بعض المال لشراء الضروريات واقترضوا ما مقداره نصف بنس لشراء التبن الذي يُلَتُّ به الطين لتبطين قبره. استخدم قماش مقلم لكسوة النعش. ووريت جثته الثرى قبل صلاة العصر في الحديقة القريبة من المقر الصيفي حيث صارع مرضه الأخير».

وفي موضع آخر يرى ريستون أن مادية الموقف المسيحي الصليبي في مقابل تجريدية الموقف الإسلامي وإيمانيته، كانت سبباً للنصر، فما كان ريتشارد يتردد في بيع لندن لو وجد لها شارياً كي يحرر القدس، وهذه جدلية أخلاقية صرف، فكيف يدافع عن بلاد غيره من يبيع بلده الذي تربى فيه؟ ولذا نجد ريتشارد قد عرض للبيع من دون تردد «المناصب العليا في الكنيسة، واللورديات و الإيرليات، ومناصب الشرفاء، والقصور والبلدات، والمزارع، وطلب من كل مدينة في إنجلترا جوادين مسرجين للركوب و حصاناً للشغل من أجل حربه المقدسة». ويعاود ريستون توجيه نقد لاذع لسياسة صلاح الدين في إطلاق سراح أسراه، فهو يرى ذلك ليناً من جانبه، فمرة يلومه حين أطلق سراح المسيحيين الذين تمركزوا في صور، كانوا عقبة في وجه تقدم صلاح الدين فيما بعد، و هو هنا يلومه ثانية حين يقول: «ويعود ازدهار صور بهذا الشكل إلى سلوك صلاح الدين اللين وغير الحكيم تجاه الأسرى والسكان»، وهي فرصة نادرة للطعن في ظهر صلاح الدين. ونسأل المؤلف: ماذا لو قتلهم صلاح الدين جميعاً؟ أما كان أراح و استراح؟

سبق صلاح الدين قادة العالم في زرع جواسيس لمصلحته في قلب مركز صنع القرار لعدوه اللدود ريتشارد قلب الأسد

يفضح ريستون قصة المثلية الجنسية، اللواطية، عند ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، مع فيليب ملك فرنسا، ويرى أنها لا تتفق و أخلاقيات مقاتل في سبيل الله. لذا فقد كان واجباً على ريتشارد أن يتوب عن فعلته تلك، لذلك «جمع ريتشارد رؤساء أساقفته وأساقفته حوله في كنيسة ريجنالد دوموياك Reginald de Moyac في مسينا. و هناك صرح عن خوف عميق لديه من مثل دمار سدوم (سدوم وعجورة، البلدتان اللتان دُمرتا حسب العهد القديم بالغضب الإلهي على قوم لوط، لشذوذهم الجنسي ومعاصيهم الأخرى - هامش للمترجم)، وتجرد من ثيابه واعترف بفحش مثليته الجنسية... رأى أساقفته أن توبته صادقة، ووضعوا قواعد العمل التكفيري، و أعلنوا أن أشواك الفسق زالت من رأسه».) وبالطبع ما كان أمام الأساقفة وكبيرهم إلا أن يقروا بتوبة ذلك اللوطي العربيد وإلا قطع رؤوسهم وخصاهم إن رفضوا توبته. ويقول ناسك مسيحي في سياق توبة ذلك اللوطي: إن صلاح الدين هو المضطهد الأفظع للكنيسة «ومن الضروري أن يهزم. فقد دنس مدينة القدس

المباركة، وضريح ربنا، والأرض التي مشى عليها مخلصنا. لهذا يجب أن يرفع يده عن هذه الممتلكات المسيحية، لن سينعم إلى الأبد بمجد الزمان»، وهذا ضرب من النفاق والإسفاف الصرفين.

يسوق المؤلف بعض الأحداث التاريخية التي صنعتها الحروب الصليبية، أو التي صنعت الحروب الصليبية، دون تعليق يذكر. وهو مطالب بالتعليق، وليس بمجرد السرد الأجوف وإلا ما فائدة درس التاريخ؟ إلا أننا قد نلمس تأييده لريتشارد قلب الأسد في قتل ٢٧٠٠ من أسرى صلاح الدين قبل وصول المفاوضات إلى حل نهائي أو إلى طريق مسدود يستدعي هذه النهاية الدموية لهؤلاء الأسرى. يقول المؤلف: «في ٢٢ أغسطس/آب ١١٩١م طلب الملك الصليبي الذي دفعه ورعه للمجيء واسترجاع الأرض الموعودة للمسيحية وليسوع، جمع إلى ٢٧٠٠ مسلم. و اقتيد هؤلاء إلى خارج المدينة على طريق الناصرة، حيث نظموا في صف منبسط بين موقع الجيش المسيحي الأمامي على تل العياضية وموقع الجيش المسلم الأمامي على تل كيسان. ثم قتلهم واحداً تلو الآخر، وتعليقاً على المذبحة قال كبير شعراء الحملة: هكذا تبارك الخالق!».

إشادته بإيمانية ريتشارد قد تحتمل السخرية وقد تحتمل الجدية المفرطة، وكذا ما أورده على لسان شاعر الحملة. وهنا تورية فريدة في نوعها كان لابد للكاتب أن يحسمها برأي قاطع باتر، هل هو مع أم ضد ما أقدم عليه ريتشارد؟ إلا أنه على ما يبدو آثر السلامة.

يعول المؤلف كثيراً على الأخلاق أساساً لنجاح أي مشروع ديني، فالحروب الصليبية مشروع ديني، وكذا تعيين جيفري الأخ غير الشقيق لريتشارد قلب الأسد أسقفاً مشروع ديني أيضاً. ولا يهتم ريتشارد كثيراً بأخلاق جيفري وأخلاقياته، ويعد أن تعيينه أسقفاً سيزيح هذا الأخ غير الشقيق المجهول الأم عن المطالبة بالملك، على الرغم من اعتراض القساوسة عليه، فقد كان بطبعه محباً لاقتناء السيوف ذات القبضتين، والصقور، و كلاب الصيد الرشيقة، بدلاً من الاقتناع بعباءة رجل الدين وعكازه. وقد أطلقت عليه تسمية القاتل وابن العاهرة (ص ٢٧٤).

تقدم الحروب الصليبية درساً سياسياً مهماً في اقتسام الغنائم سيكون مقدمة للنهاية المأساوية التي سيشهدها ريتشارد قلب الأسد عند عودته إلى بلاده مذموماً مدحوراً.

فبعد اجتياح عكا، كان عليه أن يقتسم الغنائم هو وملك فرنسا فقط، وتنكرا لبقية حلفائهما والنبلاء الذين ساعدوهما على الاستيلاء على حصون صلاح الدين وقلاعه. لقد حدث الشيء نفسه عند انتهاء الحرب الخليجية الثانية عام ١٩٩٠م، وانفردت أمريكا وبريطانيا بالغنيمة، وعاد الحلفاء الأربعة والثلاثون بخفي حنين إلى بلادهم. يقول ريستون معلقاً على اقتسام الغنائم: «لقد تجاهل الملكان حلفاءهما بابتهاج متناسين حقيقة أن الغنائم يجب أن تعود فعلياً إلى من اغتنمها. كما سخر الملكان من مطالبة النبلاء المحليين بمملكة القدس، والذين كانوا قد خسروا ملكيتهم باستيلاء صلاح الدين عليها قبل أربع سنوات. هؤلاء النبلاء كافحوا وبذلوا جهداً كبيراً للحفاظ على موطئ قدم للمسيحيين في الديار المقدسة. لقد صمدوا لمدة سنتين في وجه نزاعات كبيرة قبل وصول الجيوش الأوربية المجهزة». كان الانقسام بين الصليبيين و خصوصاً بين فيليب وريتشارد قلب

يركز المؤلف في كردية صلاح الدين أو أرمينيته، راميًا إلى تأكيد أن عبقرية صلاح الدين تعود إلى كونه ليس عربيًا، وأن عبقريته هي عبقرية أوربية أو غربية هيلينية

الأسد، أساساً لهزيمة الأخير وعودته خالي الوفاض من الأراضي المقدسة. فقد تحالف فيليب مع إمبراطور روما، و كذا مع البابا ضد ريتشارد قلب الأسد. وفي النهاية «أخذ من البابا وعداً بأنه إذا حاول ريتشارد أن يعبر أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدسة خلال عودته من الأراضي المقدسة، سيأمر بتوقيفه فوراً. وهكذا، وقف ريتشارد قلب الأسد الآن، وحيداً تماماً في مساعيه لاستعادة الديار المقدسة» (السابق: ص ٢٩٠).

يقدم ريستون فصلاً فريداً في حياة صلاح الدين السياسية يكون فيه للنساء دور حيوي، ذلك أن الملك العادل سيف الدين سوف يتزوج من جوانا شقيقة ريتشارد ملكة صقلية السابقة. ويدخل هذا ضمن إطار تسوية سلمية شاملة يكون فيها الزواج بديلاً عن الحروب الحالية والمستقبلية، وهو أشد ضماناً من أي اتفاقات سلام. إلا أن عنصر الرهان على خيار الصفر يظل قائماً: فما يدرينا ماذا دار في رأس ريتشارد بعد هذا الزواج؟ هل كان ينوي قتل الملك العادل وبذا يخلص الملك كله لشقيقته دون إراقة مزيد

من الدماء؟ لكن وقد صدم ريتشارد بأن أخته قد تتزوج الملك العادل وهي مسيحية إلا أنها لابد أن تعتنق الإسلام فيما بعد، فهل يظل ريتشارد متمسكًا بهذا الزواج. إن علاقة مشابهة نشأت بين عماد الفايد الذي اشتهر باسم دودي والأميرة الراحلة ديانا، وقيل: إن الأميرة كانت حاملاً من دودي وهذا يعني أن زوجة حامي الكنيسة الأنجلكانية سابقًا، ولي عهد بريطانيا ستلد طفلاً مسلماً، لا يمكن بحال من الأحوال تعميده أو تغيير دينه، ولذا رؤى قتل الأميرة ديانا وعشيقها ـ و تلك مجرد رواية وأحد الأقاويل. ولا نظن أن ريتشارد قلب الأسد كان ليقبل أن تتحول أخته إلى مجرد زوجة مسلمة لملك مسلم، ولذا نجد شقيقته سرعان ما رفضت هذه الخطة إلا أن ريتشارد بحث عن بديلة ألا وهي ابنة شقيقته إليانور أوف بريتاني، إلا أن هذه لاقت رفضاً من صلاح الدين بعد أن وقف ريتشارد مع الملك غي «طرح العادل رسمياً العرض الجديد على شقيقه على النحو التالي. يتقدم الملك العادل الملقب بسيف الدولة لخطبة جوانا شقيقة ريتشارد وملكة صقلية السابقة وبعد الزواج يتشارك العروسان في حكم مملكة أورشليم الجديدة ويكون المركز الملكي في القدس. يسلم صلاح الدين الأراضي الفلسطينية كافة إلى شقيقه، ويسلم ريتشارد كل الأراضي التي يسيطر عليها إلى شقيقته. ينصهر النصفان لتكوين المملكة المهجنة، على الرغم من أنه سيسمح لفرسان الهيكل والإسبتاريين بالاحتفاظ بقلاعهم ضماناً لأمن وراحة الحجاج الوافدين، وتعطى الحرية للمسلمين لزيارة المواقع المقدسة في القدس دون أن تعترضهم أي صعاب. يسترجع ريتشارد الصليب الحقيقي، ويغادر بعدها الأراضي المقدسة... وأمام رفض جوانا، ضمن ريتشارد بديلة لها فعرض ابنة شقيقته إليانور أوف بريتاني. قد لا تكون ملكة إلا أنها بكر مطواعة. وبتقديم هذه الفتاة القاصر، لن يحتاج لموافقة البابا، كما كان يجب أن يحدث في حال ملكة سابقة، كما أن وصول الإذن من روما يستلزم تأخيراً يدوم ثلاثة أشهر على أقل تقدير. ولكن العادل شعر بالإحباط عند وصول هذه الرسالة إليه. لقد اختار قلبه ملكة نصرانية، و لن يرضى إلا بملكة نصرانية. هكذا أظهر اللاعبان أنهما صعبا المراس». وهذا النوع من الزواج يذكرنا بالزواجات التي كانت تقع بين بعض القبائل في الجزيرة العربية بحثًا عن وجاهة اجتماعية أو درءاً لشرور الأقوى، وهي الزواجات نفسها التي حدثت في روما إبان عهد القياصرة لتقوية العلاقة بين الأنداد وكسر شوكة الحرب بينهم. وفي الإجمال، يركز ريستون في هذه القضية ليرمي إلى الربط بين النمط الروماني و نمط صلاح الدين في تناول قصة الزواج هذه و كأننا به يقول: إن عقلية عربية صرفًا لا يمكن أن تتجاسر على التفكير فيمثل هذا مشروع، وما أقدم صلاح الدين، في نظر ريستون، على هذه الخطوة إلا لأنه ليس عربيا، بل هو كردي ولد في أرمينيا. وهذا ما سنعرض له تفصيلاً في المحور الثالث من دراستنا.

ربما يكون عطف صلاح الدين على اليهود سببًا في إعجاب ريستون بشخصيته، لأن مواضع في الكتاب تكشف عن مسحيته الصهيونية

كان الهم الأكبر لكل صليبي، جنديًا كان أو قائدًا أو ملكًا، أن يحصل على الصليب الحقيقي ـ كما يزعم المسيحيون. ولذا جاء مبعوث من إمبراطورية بيزنطة يعرض منتي ألف قطعة ذهبية، يرى ريستون أنه مبلغ هائل قد يستخدمه صلاح الدين في المجهود الحربي، مقابل الصليب، وأن يهب صلاح الدين «للطائفة الأرثوذكسية الشرقية البقعة التي فيها الضريح المقدس» إلا أن صلاح الدين رفض هذا (ص٣٨٢ ـ ٣٨٣).

وهذا الموقف دليل نضج كبير طرأعلى سياسة صلاح الدين وعقليته لما خبره من الصليبيين وحيلهم. ويثني المؤلف على عبقرية صلاح الدين العسكرية، ولكن في هذه المرة في مجال الاستخبارات. ويثبت أن صلاح الدين قد تفوق على جميع أعدائه، وأنه سبق كل قادة العالم في زرع جواسيس لمصلحته في قلب مركز صنع القرار لعدوه اللدود ريتشارد قلب الأسد: «في الخطاب الذي ألقاه ريتشارد على مسامع باروناته، وسلم بإخفاق حملته الصليبية، تمحورت شكواه في أن صلاح الدين يبلّغ بكل تحركات الصليبيين حتى قبل أن يقوموا بها. وبالفعل كان لصلاح الدين جاسوس يعمل لحسابه، ويتبوأ مركزاً عاليًا في صفوف أعدائه. ففي غضون يوم من اتخاذ الصليبيين لقرار الانسحاب من بيت نوبة، لم يكن صلاح الدين على علم بماهية القرار وحسب، بل بكيفية اتخاذه، وبهويات من كان يدافع عن هذا الموقف أو ذاك. ففي رسالة

تبلغه بالنزاع القائم بين الملك و الفرنسيين، نقل الحوار بين الطرفين حرفيًا».

يضرب صلاح الدين مثلاً على نبل أخلاق الفارس المسلم لا مثيل له، ذلك أنه في إحدى المرات سقط ريتشارد قلب الأسد عن صهوة جواده، وبذا كان من السهل جداً على أي فارس على ظهر جواده أن يقتله بسيف أو رمح أو سهم. إلا أن صلاح الدين الذي كان يتابع المشهد عن قرب لم يستسغ هذا فقال لأخيه الملك العادل: «اذهب خذ هذين الحصانين العربيين وقدمهما إليه. بلغه بأني أرسلهما إليه و أنه لا يليق برجل في مستواه العظيم أن يقف مترجلاً مع رجاله في ظروف كهذه». ولم ينسحب ريتشارد من ساحة المعركة، ولكن في نذالة نادرة، أعمل القتل فيمن حوله من الجنود المسلمين بدل أن يشكرهم.



هنري الثاني والد ريتشارد قلب الأسد

ويسطر جيمس ريستون الصفحات الأخيرة في حياة ريتشارد قلب الأسد عائداً إلى إنجلترا، فيصفها في حزن مأساوي شديد: ريتشارد مطلوب في جميع موانئ أوروبا التي سيمر عليها ليحاكم ويعذب ويقتل، أيهما أولاً لايهم الترتيب. وأخيراً يسير ثلاثة أيام في جبال الألب مع خادمه دون طعام حتى يصل إلى فيينا سيراً على قدميه. وعندها أرسل خادمه ليشترى بعض الطعام. كان ريتشارد قد تخفى عن أعين العامة، وسكن في بيت في أطراف ضاحية في فيينا، إلا أن خادمه المتبختر المزهو بنفسه فضح أمر سيده، وعرف الناس بأمره، و«عندما اقتحم القاضي النزل الذي كان ريتشارد قد لجأ إليه محدثًا جلبة أسرع الملك بارتداء ثوب فضفاض متسخ، و توجه نحو المطبخ حيث تظاهر بأنه أحد العاملين فيه مقلبا الدجاج على النار، وهو يبدو كالفلاح المغلوب على أمره». بعدها أخذ ريتشارد إلى قلعة دور نشتاين سجينًا ليساوم عليه، ويعاد إلى إنجلترا ليواجه مكايد وانقلابات صنعها أخوه الأصغر.

شخصية المؤلف

يحاول هذا المحور من الدراسة استجلاء التوجهات الفكرية والعقدية للمؤلف؛ وذلك من خلال مواقفه من أحداث الحرب الصليبية الثالثة، وكذا أحكامه التي يصدرها عليها. أحس أن ريستون خائف وجل من ذكر أي شيء يمس اليهود من قريب أو بعيد، وإن كان يرى أن من حسنات صلاح الدين أنه أحسن معاملتهم. فهنا يصف ريستون حال صلاح الدين والقدس ووفود الحجاج المسيحيين بعد خروج الصليبيين منها، إلا أنه يعرج على الذين صلبوا المسيح، ولا يجرؤ على الإشارة إلى اليد اليهودية في ذلك. «وفي المدينة المقدسة خرج صلاح الدين عن المعهود باستقباله الحجاج المسيحيين. ثم شجعهم على تقبيل صليب سيدهم الحقيقي الذي حمل في معركة حطين، ثم ضاع منهم، كما شجعهم على زيارة جبل صهيون وزيارة مكان الجلجلة والحديقة. فعلى كل حال، ليس المسلمون هم الذين صلبوا منقذهم، حسب رواية الإنجيل، و يسوع نبي من الأنبياء في الإسلام. وقد دعا صلاح الدين هؤلاء الحجاج إلى مائدته حيث أجرى معهم حديثًا وديًا، بعيداً عن الشكليات، وأكرم ضيافتهم».

ونتوقف عند فقرة تنم على علاقة صداقة بين ريستون وأحد اليهود، وبالطبع لا عيب في ذلك، ولكن هذه الصداقة قد تكشف عن تعاطف مع اليهود، وقد تكون فاتحة لمعرفة شيء عن الفكر الديني لجيمس ريستون: قال لي صديقي ديفيد باسوف - أحد المشاركين الأوائل في الصراع الصهيوني على فلسطين، والذي صار فيما بعد أستاذاً للتاريخ بالجامعة العبرية: إن الفرق أننا أنجزنا ذلك، أما هو فلم يفعل! (ص ١٨). قد يكشف هذا عن جانب من صهيونية المؤلف على الرغم من مسيحيته البارزة، فهناك أربعون مليون أمريكي من المسيحيين الصهاينة. ونلمس أنه يميل إلى الانحياز إلى فكرة أن ريتشارد لم يتمكن من طرد

صلاح الدين واحتلال القدس، أما الصهاينة اليهود فقد فعلوها. ونتبين من هنا انحياز الكاتب إلى الصهيونية اليهودية إلى حد ما. وعلى نقيض هذا الغزل لليهود، نراه ينظر إلى المسلمين نظرة تقليدية نمطية. فا لمسلمون في نظر القساوسة «كفرة» و ذلك لعذر عندهم، أما المؤلف فلا يجب أن يقع في خطأ تسمية المسلمين «كفرة» (ص ٣٧)، وإلا كانت تلك ببغاوية مصطلح، لا تعفيه من سوء المقصد و النية، خصوصاً أنه كما أعلن في كتابه «عرفان وتقدير» (ص ص ٤٩٣ ـ ٤٩٧) قد عكف على كتابته أربع سنوات زار فيها وتعرف مسلمين معاصرين، ما كان يجب أن يسميهم بالكفار. و يتكرر الخطأ نفسه في صفحة ٧٣. يقول المؤلف: «أخيراً صعد الجنود المسيحيون على متن سفنهم الحربية في قبرص ليباشروا مهمتهم الحقيقية ضد الوثنيين، المهمة التي من أجلها قدموا حياتهم، وممتلكاتهم و شرفهم». المؤلف يرى المسلمين وثنيين وهذه ببغاوية المصطلح التي أشرنا إليها سابقًا، والمؤلف ينساق للقساوسة المسيحيين الذين عدوا المسلمين وثنيين، وما كان له أن يقع في هذا الخطأ فهو يعرف أن المسلمين ليسوا، وثنيين، و يتكرر ذلك في صفحة ١٤٦. مرة أخرى يتبنى آراء القساوسة، في الصفحة نفسها، حين يقول: «فقلة هم الصليبيون الذين يعودون من تلك الأراضي الوحشية، حيث العرب غدارون» (السابق: ص ٢٣١). ومرة ثالثة، المسلمون في نظر المؤلف «كفار». كما نلمس سخرية غير عادية ـ من المؤلف ـ بالمسلمين حينما انتصروا على المسيحيين في معركة برج الذباب بعكا، فيقول: «وبالطبع عزوا ذلك الانتصار إلى مؤازرة الله عز وجل» (السابق: ص ٢٤١) نعم ذلك النصر من عند الله وكيف لا يكون ذلك؟ أم أن الله ينصر المسيحيين فقط، ألم يتخذ المؤلف عنواناً لكتابه «مقاتلون في سبيل الله» أي صلاح الدين وريتشارد، أو صلاح الدين و جميع خصومه من حملة الصليب؟. مرة أخرى، ينساق المؤلف وراء المصطلح الصليبي الذي يرى أن المسلمين وثنيون أو كفار، فيقول:«لم يسع ريتشارد استيعاب فكرة إمكانية تدنيس الوثنيين لهذا المكان ـ ينبوع عماوسي ـ و لذلك أعدّ العدة لطردهم».

يرى المؤلف أن صلاح الدين قد يكون أداة لتطهير المسيحيين من ذنوبهم: «ألا يجوز أن يكون صلاح الدين هو الأداة التي يستعملها الرب، الذي أغضبته خطايا شعبه؟». وهذا انسياق وراء قدسية الحرب الصليبية، وانقياد لغوغائية مشروعيتها، وما كان لمؤلف يدعي الموضوعية أن يقع في هذا اللبس والخطأ، على الرغم من قوله الحق في كثير من جنبات الكتاب. ومرة أخرى يكرر المؤلف لفظة كفرة واصفًا بها المسلمين، «وقد ارتفعت تقديرات أعداد جيش الكفرة بعد المعركة إلى حدود الثمانمائة ألف». من هم هؤلاء الكفرة؟ هم المسلمون بالطبع. وهذا تكرار لغوغائية المصطلح. يسوق الكاتب، إما عن خبث، وإما عن جهل بمعنى الآيات القرآنية ومغزاها، بعض المواقف التي يردفها بآيات من القرآن الكريم وكأنه يريد أن يسوغ فعلاً ما، بآية ما. ومثال ذلك قوله «لقد أخذت الثروات وصور الذهب و الفضة بكميات كبيرة، وغنمت الخيول و المواشي، وصودرت الزيوت والأقطان»؛ وذلك بعد فتح طبرية. وبعدها يعود المؤلف ليقول: «وعاد صلاح الدين إلى مصحفه: *زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين و القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب*. آل عمران: ١٤»، وهذا ابتسار للمعنى يقصد به إفهام القارئ الغربي أن هذه السورة نزلت خصيصى ـ ربما ـ لتسويغ ما عمله صلاح الدين. وذلك غير صحيح؛ لأن الآية أقحمت خطأ، كما أن الإيحاءات من خلال الاقتطاف الخاطئ غير قليلة. وإذا كانت الاقتطافات من القساوسة والأساقفة هي الأقوى التي وردت في كتاب ريستون، وكان أساسها التحريض على محاربة المسلمين «الكفرة» في الأراضي المقدسة، فإنه بالموازنة يكون القرآن محرضاً على إخراج الصليبيين من بيت المقدس وهذا غير صحيح، وعلى الأقل في الآية التي معنا هنا. ويتأكد هذا اللبس، أو التغرض، على لسان المؤلف جليًا واضحًا في مكان آخر حين يقول نصاً وحرفاً: «أما صلاح الدين فلم يكن لديه شك، حسبما يقول القرآن، أن الشيطان هو الذي أضل الملك في هذا الظرف الدقيق، ودفعه إلى أن يقوم بما هو خلاف الحكمة». وهذا الإقحام للقرآن يفهم منه القارئ الغربي أن الحروب الصليبية كانت ركنًا ركينًا في القرآن، مما يشوه صورة

تنكر ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا لحلفائهما والنبلاء الذين ساعدوهما في الاستيلاء على حصون صلاح الدين وقلاعه

القرآن في نفوس الغرب قاطبة. و ما كان على المترجم أن ينقل هذه الفقرة نقلاً مباشراً دون أن يضع لها هامشاً يوضح ويفسر ويفند، خصوصاً أنه اتبع هذا المذهب في ترجمته عبر صفحات الكتاب. ويقع الكاتب في الخطأ نفسه في مكان آخر، فيقول: «وعندما سئل صلاح الدين فيما بعد عن علة سماحه لريموند بالفرار والنجاة، أجاب بغموض قائلاً: عليه اللعنة، ثم قرأ من القرآن: *وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم أني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب.* **الأنفال: ٤٨**. (ص ٩٨).

يبدي المؤلف تعاطفاً غير عادي مع اليهود المقيمين في القدس خلال الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٩م. ومع إدراكه أن تعدادهم في القدس لا يتعدى المئتين وقتها، وأن مجمل عددهم في فلسطين لا يتعدى الألف، إلا أن تعاطفه معهم يكاد يساوي تعاطفه مع المسلمين الذين أبيد منهم في يوم واحد أربعون ألفاً. وهو هنا يميل إلى تصديق الرواية التي تقول: إن الحروب الصليبية شنت ضد المسلمين واليهود، وهذا نوع من تبسيط الأمور وتسطيح حقيقة الحروب الصليبية وأنها أساساً ضد المسلمين، «كان يعيش في الحي اليهودي زهاء المئتي إنسان على مقربة من برج داود، وينهمك فرسان المسيح الآن بعد قتلهم، باللهو والرقص من حول كنيسهم، وهو احتفال مليء بالضحك والرقص و السخريات الهزلية» - نقلاً عن أحد اليهود الذين شهدوا الحرب الصليبية الأولى. إلا أنه يقول ما ينفي عنه - ربما دون أن يدري - تلك الشبهة حين يعترف بأن «علاقة اليهود بفلسطين وبالقدس وبيهود الشرق كانت عاطفية وليست عملية»؛ ذلك أن اليهود في أنحاء الدولة الإسلامية أعطوا حرية العقيدة، والعبادة؛ ففي سمرقند بلغ عددهم خمسين ألفاً، وفي القاهرة ألفين وفي الإسكندرية ثلاثة آلاف. ثم يعود ليؤكد أن تفرقة ما قد مورست ضد اليهود؛ وذلك بحرمانهم من ركوب البغال و الخيل، رولزريوس ذلك الوقت حسبما يبدو لي من غضب ريستون، «أما وجوه الإذلال التي كانوا يعانونها فليست شديدة الوضوح. ما كان مسموحاً لهم بركوب الخيل والبغال، بل دائماً الحمير».

ولذا يُعد صلاح الدين بطلاً عظيماً في نظر ريستون، لأنه، إلى جانب تسامحه مع كثير من المسيحيين وبخاصة سباياهم من النساء، قام بإعادة شتات اليهود إلى أرض القدس؛ مما استحق أن يتمدحه الشاعر اليهودي يهودا الحريري، شاكراً فضله على هذه النعمة العظيمة. وربما يكون هذا مدخلاً جيداً لسر إعجاب ريستون بشخصية صلاح الدين، أنه عطف على اليهود عطفاً عظيماً، وربما يكون هذا كاشفاً لجانب التعاطف مع اليهود في شخصية ريستون، وربما كاشفاً عن مسيحيته الصهيونية التي قد تساعدنا مواقف أخرى على كشف المزيد منها. ولذا نجد ريستون يقول تعقيباً على موقف صلاح الدين من اليهود: «صار السلطان صلاح الدين بحركته بطلاً لدى اليهود. فمن أجلهم حنّن الله قلب السلطان. وقد كافأه الله على حنانه؛ فهو قد حاصر القدس، والله سبحانه فتحها على يديه»، أي أن الفضل أخيراً لنصرة اليهود، و ليس للمسلمين والثأر لديهم أي قضية أو شأن.

إذا كان ريتشارد لا يتردد في بيع لندن لو وجد لها شارياً كي يحرر القدس، فكيف يدافع عن بلاد غيره من يبيع بلده الذي تربى فيه؟

مرة أخرى نجد اليهودي داخلاً في الحروب الصليبية وذلك من خلال نشيد يهودي يقول في بعض أبياته التي يقتطفها ريستون كاملة: «اعترف بالرب أيها اليهودي... لقد مضى القانون القديم إلى غير رجعة.. والنظام القديم مضى أيضاً لغير رجعة»، إلا أن الأرض هذه المرة هي إنجلترا ولندن تحديداً وليست القدس. وكأننا بالمؤلف يريد أن يقول: إن هؤلاء اليهود مضطهدون منذ فجر التاريخ حتى بين الإنجليز - و هذا صحيح - لكنه لا يسأل عن الأسباب بل يقدم ظواهر فقط، فيقول مثلاً في الصفحة نفسها، «لكن العوام تحركوا على الحي اليهودي بلندن، وبدءوا بإحراق كل مساكن اليهود. وما تدخلت السلطات إلا عندما امتدت النيران إلى الممتلكات المسيحية». ويصل ريستون في تحيزه إلى اليهود إلى اتهام ريتشارد بعداء السامية، وتمثيله باليهود بعد قتلهم «إلى حد أنه كان يتسلى أحياناً بنزع أسنان بعض اليهود». وهذا قد يفسر جانباً من فرحة ريستون للانتصار الذي أحرزه صلاح الدين على ريتشارد قلب الأسد!!.

والعداء الصليبي، مرة أخرى يشمل اليهود بالقدر نفسه الذي يشمل به المسلمين، على الرغم من التفاوت الشاسع في عدد أهل الملتين. لكن العداء هذه المرة في البرتغال

وتحديداً في لشبونة: «فاشتعلت الشجارات بين الحجاج المسيحيين وأهل البرتغال، واستغل النهابون واللصوص الموجودون في الجيش الصليبي هذه المناوشات، وساقوا اليهود إلى خارج منازلهم، وسلبوا ممتلكاتهم، وأحرقوا بيوتهم، و اغتصبوا عدداً من نسائهم». وكأننا بهذا أمام دعاية مفتوحة لليهود وقضاياهم وخصوصاً اضطهادهم، فمن إنجلترا إلى لشبونة إلى من ناصرهم في القدس.

في افتتاحية الفصل الحادي عشر يطرح ريستون عدداً من الأسئلة لا يطلب من أحد الإجابة عنها، لكنها تثير قضايا، كما تلفت الانتباه إلى ميله إلى اليهود ورجوح كفتهم عنده، «كان الصراع الكبير سنة١١٨٧ م صراعاً بين دينين. كان صراعاً بين مبدأ الإيمان بالإله الواحد القادر، الله - في مواجهة الأب ذي الأقانيم الثلاثة، الثالوث المقدس. بين تمثال الصليب، والصخرة، من حيث عرج بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء - وبين كنيسة القيامة والمسجد الأقصى. لكن: ماذا عن اليهود؟ أليست القدس مقدسة بالنسبة لهم أيضاً؟ إنها قدس الأقداس. إنها الجبل، موطن الهيكلين النورانيين الأول والثاني. إنه المكان الذي أعده إبراهيم ليفي فيه نذره، بذبح ابنه، إسحق فيه. وهو صهيون قلب أو وسط دائرة إيمانهم. وهو المكان الذي كانت فيه السكينة، أي الحضور الإلهي واقعة محققة عندهم».

وهذا يناقض تماماً ما يقوله في صفحة ١٤٢ من أن العلاقة بين اليهود وبيت المقدس علاقة عاطفية فقط، وليست عملية. ومع أن المترجم أستاذ في الدراسات الإسلامية، ومع أنه قدم ملحوظة في الهامش تقول: إنه لا علاقة لليهود في الصراع الصليبي الإسلامي، إلا أنه كان عليه تعليل هذه الحماسة من ريستون لليهود وقضيتهم التي يختلقها المؤلف من لا شيء، وهذه القضية تصب في تيار تعاطفه مع اليهود، وتبرز جانباً من مسيحيته الصهيونية. قد تكون الفقرة التالية دليلاً قوياً على تحيز ريستون إلى اليهود، أو اتباعه المسيحية الصهيونية التي أشرنا إليها: «وللمفارقة الساخرة، تعدّ سباير واحدة من ست بلدات تقع على ضفاف الراين شهدت مجازر ذهب ضحيتها يهود على أيدي عصابات مسيحية منذ مائة سنة، قبل أن يطلق الصليبيون حملتهم المجيدة نحو الديار المقدسة». وفي التحليل اللغوي نرى كلمة «مجازر» «وذهب ضحيتها» تدلان على تعاطف الكاتب مع اليهود، ثم أردف بكلمة «عصابات مسيحية»، وهنا نراه يخرج عن مواقفه السابقة في أكثر من موقف حول احترامه الشديد للكنيسة المسيحية، ثم الرابعة حين نلمس السخرية في قوله: «قبل أن يطلق الصليبيون حملتهم الأولى المجيدة نحو الزيارة المقدسة»، فيضع كلمة «المجيدة» بين فاصلتين ليلفت انتباه قارئه إلى أنه يسخر من كون هذه الحروب الصليبية مجيدة أو لها علاقة بالمجد السماوي. وكأننا به يقول: إن الصليبيين الذين ذهبوا إلى الحملات الصليبية آثمون ومجرمون، وعليهم أن يتطهروا من ذنوبهم قبل الذهاب إلى الديار المقدسة. والتطهر في المسيحية له شأن آخر ومقام لا يتسع الحديث عنه هنا. إلا أننا نصدم عندما نرى ريستون يقتطف من الإنجيل ما يلي: «الآن علمت يقيناً أن الرب قد أرسل ملاكه وأنقذني من يد هيردوس ومن كل ما تربصه بي شعب اليهود». و تأتي هذه الآية في سياق احتفال الكنيسة بخروج ريتشارد قلب الأسد من سجنه في كولونيا. وأظن ريستون، الذي ظهر مناصراً للمسيحية الصهيونية، و متبنياً لقضايا اليهود، لم يع خطورة هذا الاقتباس، وهو كاف لاتهامه بمعاداة السامية. وفي النهاية، فإن هذا الاقتباس يتناقض تماماً مع المسار الذي انتهجه ريستون في تبني قضايا اليهود والتعاطف معهم، ولا يعد من بعيد أو قريب محاولة منه لنفي هذا التوجه أو الزعم.

يرى المؤلف أن صلاح الدين كان فارساً نبيلاً، احترم أسراه وعاملهم أحسن معاملة إن هم قابلوها بالحسنى، أما إذا أساؤوا الأدب فلهم الخنجر والسيف

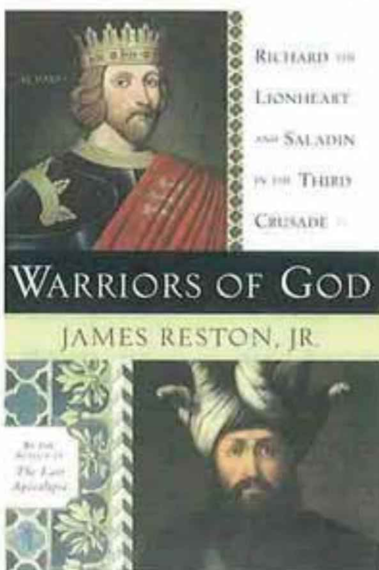
على الرغم من كثير من المواطن التي ظهر فيها ريستون موضوعياً وباحثاً عن الحقيقة في تنزه لم نعهده في كثير من كتاب الغرب حينما يتناولون قضايا العرب والمسلمين، فإننا نجده في موقفه من القافية العربية والقصيدة العربية متحيزاً لفكرة نمطية الشعر العربي والقصيدة العربية. و كان عليه أن يقرأ المزيد قبل أن يصدر حكماً في حقل معرفي يجهله بالكامل. وكان له أن يقرأ في «موسوعة الشعر و الشعراء» التي تصدرها جامعة برينستون حتى يعرف شيئاً عن الشعر العربي بدل أن يصدر الحكم الآتي ويؤخذ عليه «والقصيدة من أصعب الأبيات الشعرية نظماً، ولطالما ألقت قافيتها المحصورة بقيود صعبة الرعب في قلوب الشعراء

العرب وشلّت أقلامهم في أيديهم طوال قرون». وحتى المترجم الفاضل لم يكلف نفسه عناء جهد الرد سوى أن بحث عن هذه القصيدة التي يقول شاعرها إن صلاح الدين هو ملك العالم، لكنه لم يجدها. «وموسوعة الشعر والشعراء» هي موسوعة عالمية تصدرها جامعة برينستون باللغة الإنجليزية، وهي تستعرض بموضوعية مراحل تطور القصيدة العربية، وتعرض لمشكلة القافية، وكذا تعرض للثورات التي قامت عليها من الموشح إلى قصيدة النثر إلى يومنا هذا [Alex Preminger, et.al., editors, The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics (New Jersey: Princeton University Press, 1993), pp.82-94]. ولذا، نقول ثانية: إن ريستون اكتفى برأي نمطي عن الشعر العربي ،ولم يبذل أي جهد في التحقق مما يقول.

كردية صلاح الدين؟ العرقية الكردية لصلاح الدين

خصص الفصل الأول «ولادة سلطان» وعدد صفحاته ثمان للحديث عن نشأة صلاح الدين وولادته، وفيه يركز المؤلف في أن صلاح الدين قد ولد في مدينة توفين Tovinبشمال أرمينيا، ثم يحكي قصة انتقال والده مع أسرته إلى بغداد.

هذا التركيز في كردية صلاح الدين أو أرمينيته ليس مجرد سرد تاريخي. لقد أحسست أن المؤلف يرمي إلى أن عبقرية صلاح الدين تعود إلى كونه ليس عربيا، وأن عبقريته هي عبقرية أوربية أو غربية هيلينية، ذلك أن أرمينيا جزء من أوروبا، وأن الإسلام استغل هذا العبقرية التي كان يفترض أن تخدم أغراض الحضارة الهيلينية، وهذا ما دعاه في تمهيد الكتاب أن يقول: إن جميع من لبسوا عباءة صلاح الدين أخفقوا، وسمى منهم جمال عبد الناصر وصدام حسين، وفي حديثه مع الجزيرة «آخر حروب القرن» (٢٧ شباط/ ٢٠٠٢م) أضاف إليهم أسامة بن لادن. وكأنما هو يخلص إلى أن صلاح الدين ليس ابن الحضارة العربية إطلاقا؛ ولذا فلن تصلح عباءته لجنس من غير جنسه، على الرغم من نشأته في تكريت وانتقاله منها إلى الموصل ثم القاهرة (ص ٢٧). ويرى المؤلف أن نشأة صلاح الدين كانت نشأة مجون وترف حين يقول: «وقد شارك أنداده الفتيان في البداية في المقامرة وصحبة النساء، لكن حراجة الموقف التاريخي آنذاك سرعان ما صرفته عن وجوه الإغراء تلك». ومع اعترافه أنه عرف عن صلاح الدين التقوى والورع بعد ذلك، فنحن نسأل: هل يريد الكاتب القول: إن صلاحا ركب الموجة الجهادية ضد المسيحيين؟ ولذا يرى ريستون أن تعيين صلاح الدين خلفا لعمه كان مصادفة «فما كان نور الدين، في الواقع، يريد منافسا قويا بالقاهرة. وكان واثقا من إمكان ضبط الشاب الخجول و المؤدب. وقد أخطأ نور الدين التقدير في ذلك كله كما يتبين فيما بعد». ونرى ترسيخ المؤلف كردية صلاح الدين وهذه العرقية في اختيار صلاح الدين لرجاله وجيشه، فيقول: «فالشوام والعراقيون والمصريون شكلوا معظم قوات صلاح الدين، و من ضمن تلك القوات عناصر كردية كانت تحظى بالإعجاب الشديد باعتبار أفرادها من أفضل الجنود على الإطلاق؛ ومن بينهم كانت القيادات تأتي غالبا». أي أن القيادة الكردية بعناصرها وعرقيتها هي المسؤولة عن انتصارات صلاح الدين وليس إسلامية هذه العناصروإيمانها. ونلمس أن المؤلف يرمي إلى القول: إن صلاح الدين قد جامل الأرمن، الذين تربى بينهم في أرمينيا، فقط لكونهم أرمنا، وذلك بعد أن فتح القدس وبدأ غير المسلمين يجلون عنها، «وقد أطلق سراح خمسمائة أرمني لمجرد أنهم أرمن».



غلاف الكتاب باللغة الإنجليزية

يرى المؤلف أن أحدا من رجاله لم يكن قادرا على مصارحته وإبداء الرأي الصادق إلا ذلك القائد الكردي الملقب بالسمين، الذي رفض أن يدافع عن عسقلان، وقال لصلاح الدين اذهب: «لها بنفسك أو ابعث أحد أبنائك. دع آنذاك القذرين يقومون بهذه المهمة. لن يرافقهم أحد، فنحن لا نستسيغ مصيرا كمصير عكا». وحقا هذه صراحة يحمد عليها ذلك السمين الذي - كما نفهم من المؤلف - لولا كرديته ما تجرأ على قولة الحق ساطعة بهذا الشكل. وثانية الأثافي أن هؤلاء الأنذال القذرين يقصد بهم جند صلاح الدين وهم عرب، لأن الأكراد كانوا قادة فقط. إذن ما دون الكردي فهو نذل و قذر. وصحيح أن صلاح الدين غضب من هذه

الصراحة الفجة واستنكرها من بني جلدته، إلا أنه قبلها في النهاية، وكانت أساساً لنصره في عسقلان حيث دمر المدينة، وخربها وفكك كل قلاعها وحصونها، حتى إذا جاء الصليبيون وجدوها خربة، فلا يستطيعون أن يعسكروا فيها، ثم أنهم قد ينشغلون بإعادة بنائها وتعميرها؛ مما يشغلهم عن اللحاق بصلاح الدين وجنده، وهذا ما حدث بالفعل فكان أن انشغل الصليبيون بإعادة إعمار المدينة المخربة وبذا أدخلهم صلاح الدين في ما يمكن أن نسميه مصطلح اليوم «حرب استنزاف» لقوة الخصم. يقول ريستون معلقاً على نصيحة السمين لصلاح الدين: «كادت هذه العبارة الوقحة أن تسبب عصياناً. واختار صلاح الدين تجاهل هذا التمرد في الوقت الحالي، لعلمه أن التفرقة تكشف حالة الضعف التي آل إليها وضعه. ولكنه ينعت رجاله بـ «الأنذال القذرين؟» انعدام الاحترام هذا أوقع الكآبة في نفس السلطان، فانسحب وحيداً وعزل نفسه داخل فسطاطه ليوم كامل: كيف يمكن لرجل ينتمي إلى عرقه الكردي الأبي أن يتفوه بهذا الكلام؟ وأقام الصلاة لعله يجد فيها ما يرشده متخطياً نصيحة قادته. «استخار الله تعالى، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة خرابها - أي عسقلان - لعجز المسلمين عن حفظها من الفرنج». وبعد عذاب طويل، قرر تخريب عسقلان وهجرها».

يصور ريستون صلاح الدين في موقف خطير لا مثيل له، ويقدم لنا أتباع صلاح الدين وأعوانه وأقاربه الأكراد منقذين له من هذا الخطر الداهم. وهو بهذا يغفل عشرات الألوف من الجنود المسلمين الذين التفوا حول صلاح الدين باذلين النفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة الله. وها هو ذا أحد المواقف كما يصفها ريستون، «أطلق صلاح الدين إنذاراً حاداً بالخطر. كالملسوع أصدر أوامره للدفاع عن أسوار المدينة، وأمر بتكثيف الهجوم على خطوط التموين الصليبية من البحر. عزاؤه الوحيد تمثل بوصول قادة رفيعي المرتبة. ووقف أخيراً إلى جانبه رجله الحكيم الكردي المشطوب الوجه بعد أن وقع أسيراً شخصياً في يد ريتشارد عقب سقوط عكا، وكلف تحريره ثلاثين ألف قطعة ذهبية. قدم بدر الدين دول درين، سيد تل باشر التي كانت سابقاً قلعة صليبية قريبة من نهر الفرات، على رأس كتيبة ضخمة من الأتراك. ووصل أيضاً أبو الهيجاء السمين.. وما ينطوي على أهمية أكبر الإرسال في طلب ابن صلاح الدين الأفضل من حلب».

كما هو واضح فالقادة المخلصون الأوفياء ليسوا عرباً، بل أكراداً وأتراكاً. مرة أخرى نرى الجنود الأكراد في موقع الوصي والحارس والمحظوظ. فبعد سقوط القدس يصف لنا ريستون المشهد الآتي، «دخل الجنود المسلمون المدينة، وأطلقوا العنان لأنفسهم في النهب والسلب. لم يستطع صلاح الدين كبحهم، فقد كان جنوده يعانون من الكبت لفترة طويلة؛ فهم لم يستولوا منذ زمن على مدينة مسيحية. ووقف عند بوابات المدينة أقوى جنوده الأكراد الذين كانوا يجردون الجنود من الغنائم عند خروجهم بها، مستأثرين بها لأنفسهم!» (السابق: ص ٤١٦).

ويرى ريستون أن المسلمين شيء والأتراك شيء آخر. وهو أميل إلى التركيز في العنصر غير العربي في جانب صلاح الدين لإعلاء شأن كرديته وأجنبيته عن الجنس العربي، وفي الوقت نفسه إبعاد الإسلام عن ساحة الأخلاق التي كونت صلاح الدين. لذا نرى ريستون ينقل عن مؤرخ الملك ريتشارد نقلاً عشوائياً، حين يصف المؤرخ جنود صلاح الدين بأنهم «أتراك»، «لقد كان الملك عملاقاً ضخماً في وسط المعركة تجده في كل مكان - تارة هنا و طوراً هناك أينما حمي وطيس هجوم الأتراك». ويركز ريستون في كردية صلاح الدين حتى عندما مرض الأخير مرض الموت. فحينما يبايع المسلمون الملك الأفضل، ابن صلاح الدين البكر، نجد أن الأكراد على رأس المبايعين، وكأن دولة الإسلام قد خلت من أي عرق إلا منهم. ونجد أن مطالبهم أساس لصحة البيعة: «سارع حاكما دمشق وصهيون (القلعة الضخمة شرق اللاذقية) لمبايعته، وتبعهما آخرون بمن فيهم ثلاثة أمراء أكراد. وافق المشطوب نديب الوجه على مبايعته شريطة حصوله على هبة كبيرة من الأراضي. واشترط أمير آخر ألا يطلب إليه محاربة أي شقيق من أشقاء الأفضل».

وخلاصة القول أن هذا الكتاب يقدم صورة موضوعية للحروب الصليبية وأعلامها و فرسانها، كما أنه ينصف - على الرغم من غربية مؤلفه - صلاح الدين على ريتشارد قلب الأسد، إلا أننا أثبتنا أن هذه الموضوعية في طرح موقفه من صلاح الدين لا يسوغها إلا موقف الناصر من اليهود حين أنصفهم وناصرهم على المسيحيين أنفسهم بينما مثل ريتشارد قلب الأسد بأجساد قتلاهم.

الكاتب الإسباني خوان غويتيسولو
جذوره في العصور الوسطى

حاورته: ماريا ـ ليز جازارين جيتار
ترجمة: حسين عيد
الجيزة ـ مصر



قابلت خوان غويتيسولو في باريس، وقد استقبلني في مكتب، ينفصل عن شقته بممر ضيق، وله مدخل خاص. ضغطت على جرس الباب الخاطئ، فأرشدتني زوجته مونيك لانج إلى الطريق. يبدو غويتيسولو كراهب من القرون الوسطى، وهو جالس في حجرته بشكل صارم مع سرير وكرسيين، وحقيبة كتب، ومكتب صغير. عرض عليّ بعض مسوداته، وأوضح أنه يكتب دائمًا بيده. يمكنني أن أشعر أن الأشياء لا تتوقف عنده، وبالأحرى هو شخص خجول منطو، يتحدث بصوت خافت، ولوهلة كنت مهمومة بأن المسجل قد يفقد بعض كلماته. كنت قد طرت من نيويورك، وكان اليوم عيد مايو، إجازة قومية في فرنسا، وكان الجو دافئًا جدًا. مضى غويتيسولو عبر الصالة، وأحضر مشروبًا، ومع تقدم الحوار، بدأ ينفتح. تحدث حول عزلته عن إسبانيا القرن العشرين، وروابطه القوية مع إسبانيا ما قبل النهضة.

ـ أوضحت في ذكرياتك «أرض محظورة» لماذا تركت إسبانيا عام ١٩٥٧م، واستقررت في باريس. هل تريد أن تحدثنا حول ذلك؟

أردت أن أهرب من بيئة ثقافية مغلقة، ورقابة مضادة؛ كي ألتحق بمجتمع يكون أكثر انفتاحًا، حيث يمكنني أن أكون، حقيقة، على اتصال بكل أنهار الثقافة الجديدة. لذا فإن مغادرة إسبانيا كانت سياسية وثقافية. كنت ضد عصر فرانكو وثقافة إسبانيا المعزولة الخانقة، وهي مشاعر كان يجب أن تثبت مع الوقت.

ـ ألم تفكر في العودة إلى إسبانيا الآن، مع وجود الديموقراطية؟

لقد أمضيت معظم وقتي خلال السنوات الخمس عشرة الماضية بين باريس والمغرب، وقد اعتدت أشياء معينة، مثلما اعتدت الناس.

- لماذا فضلت المغرب؟

بسبب صلتي واهتمامي بتلك الثقافة. حين كنت أكتب في باريس، كنت أغلق على نفسي المنزل مضحيًا بكل حياتي الاجتماعية، بينما في المغرب يمكنني أن أعمل وأعيش. يوجد شيء ما في تلك المدينة الكبيرة يسمح لي أن أكتب ويحفّز حياتي الشخصية في الوقت نفسه.

- هل أكون مخطئة حين أقول أنك جسر بين الحضارتين الأوربية والإفريقية؟

قد لا أضع الأمر بهذا الشكل، ففي إسبانيا يجري الحديث حولي عادة كمعبّر عن الأدب الطليعي الحديث. أقول دائمًا إنني أكثر كاتب يستحضر الماضي (الماوراء)؛ لأنني تعلمت الكثير من مؤلفي القرون الوسطى. ولا تنس أن إسبانيا كانت ذات مرّة قطرًا وقف في مفترق الطرق، وكان موطنًا لثلاث حضارات. خرج رهبان الـ «كلوني» سالمين من سنتياجو، وأحضروا لنا حضارة أوربا البازغة. وفي الوقت نفسه نقل مترجمو «توليدو» من اليهود كل الأدب الذي ألفه وكتبه العرب.

في تلك الأزمنة، كانت إسبانيا مركزًا ثقافيًا. أنا أهتم كثيرًا بتراث الآخرين، ولا أومن بقومية ثقافية - فلا يمكن أن يوجد شيء مثل ثقافة فرنسية، إسبانية، إنجليزية، ألمانية، إيطالية، أو حتى ثقافة أوربية. ما علمنا التاريخ الإسباني، هو أنه حين يكون مجتمعًا مفتوحًا، فإنه ينتج بعض قطع أدبية بارعة صادقة، ولكن حين ينغلق على نفسه، فإنه ينهار، مع وجود بعض استثناءات.

- هل تعتقد أنك تمثل أداة ربط بين إسبانيا والأمريكتين، بسبب روابطك مع الكتاب الذين يطلق عليهم جيل «الازدهار»؟

أنا لا أحب كلمة «الازدهار» إلا أنني يمكن أن أقول: إنه توجد بعض صلات بيني وبين بعض كتّاب أمريكا اللاتينية، وهي صلات أقوى موازنة بصلاتي مع زملائي الإسبان، وذلك على الرغم من أنني وُلدت في إسبانيا. مثال ذلك، حين أشعر أنني أقرب إلى كابريرا انفانتي، وسيفيروا سارداي، وكارلوس فوينتس، من غالبية زملائي من إسبانيا. وبالأسلوب نفسه، يمكنني أن أقول أيضًا: إن علاقتي مع كتّاب إسبانيا من الماضي مثل: كبير كهنة «هيتا»، فرانسيسكو دليكادو، وفرناندو دي روخاس، أو سان خوان دي لا كروث، هي علاقة أكثر قوة من تلك التي مع رفقائي الحاليين من الإسبان، لذلك أجدني عرضة لقليل من الشك حول فكرة: ما السبب الذي مع أي شيء، يمكن أن يوجد في اعتقادي أنّ كاتبًا من القرن السادس عشر، مثل ديلكادو، يمكن أن يكون زميلي، بينما لا أعد كذلك عددًا من الكتاب الذين أجريت معهم حوارات في هذا الكتاب؟ مع استثناء خوليا رواز، لأنني أوجد على الوجه المقابل لتوجههم، فأنا منعزل بوضوح.

- حين أجريت حوارًا مع كارلوس فوينتس، أخبرني أن جماعة «الازدهار» قد قاربت نهايتها كجماعة محدّدة في بيتك؟

نعم، كان هناك تجمع في بيتي، بحضور فارجاس ليوسا، وكورتاثار، ودي نوسو، وكارلوس فوينتس، إلخ... حين بدأنا مجلة أدبية، وعندما توقفت طباعتها، اختفت الصداقة بين البعض منا. إنها حالة الكاتب الكوبي «باديًا» والثورة الكوبية هي التي أفرزتنا. وقد دعمت الثورة في الستينيات حين ظننت أنها تحتاج إلى الدعم، وأوقفت مساندتها حين شعرت أنها أصبحت قوية.

- أوردت في «أرض محظورة» أن جدك الأكبر صنع ثروة في كوبا، وأن جدك وُلد هناك؟

نعم، يوجد موروث كوبي عظيم في أسرتي. لقد شعرت بقرابة شديدة لذلك القطر.



فرانكو باللباس العسكري

ـ في عام ١٩٨٤م، جعلوا منك ابناً شرفياً لمدينة «نيخار» الإسبانية في «آلميريا». هل يمكنك أن تشرح ما وراء ذلك؟

قبل مغادرة إسبانيا بوقت قصير، في عام ١٩٥٥م اكتشفت منظراً طبيعياً في «آلميريا» أعجبت به كثيراً جداً، وللمرة الأولى في حياتي، شعرت بي قريباً من شيء إسباني. وكان غريباً بما فيه الكفاية، أن «آلميريا» هي المقاطعة الأكثر عزلة في إسبانيا. على أي حال، كتبت كتابين: «حقول نيخار»، و«الغدير» على التوالي، حول «نيخار» وحي للفقراء هناك؛ وبسبب هذين الكتابين، عدتني السلطات المحلية شخصاً غير مرغوب فيه.. ولم أستطع أن أعود إلى هناك خلال فترة حكم فرانكو. ومع ذلك، حين مات فرانكو، فإن بعض أفراد من «آلميريا» الذين قرؤوا الكتابين وأصبحوا مهتمين بالثقافة والواقع الاجتماعي بسببهما، حين تقلدوا مناصب في السلطة، منحوني ذلك الشرف الذي قبلته، ليس كمسألة تكريم بل كواقع؛ فأنا لم أقبل أبداً أي عمليات تكريم أو جوائز، وحين أهداني الفرنسيون وسام شرف، ضعفت إلى حدّ ما؛ لأنني لم أكن أريد أن أشارك المسؤولين الفرنسيين، الذين وصموا أنفسهم بقتل الجزائريين الأبرياء منذ عدة سنوات.

حين أهداني الفرنسيون وسام شرف، ضعفت إلى حدّ ما؛ لأنني لم أكن أريد أن أشارك المسؤولين الفرنسيين الذين وصموا أنفسهم بقتل الجزائريين والفيتناميين الأبرياء منذ عدة سنوات

ـ كيف رتبت صلاتك مع الحياة خارج إسبانيا، إلى حدّ أن أوقفت حياتك للكتابة باللغة الإسبانية؟

أعتقد أن هذا شيء عادي في فرنسا؛ لأن هناك كثيراً من المؤلفين الذين يعيشون خارج أوطانهم لأسباب سياسية أو غيرها. أن تكون منفياً، يمكن أن يكون صعباً فقط بسبب انتزاعك من مشهد أليف أو روابط عاطفية معينة، لكنه يمكن أن يكون مفيداً أيضاً، حين يمدك بمسافة ومنظور كي تشاهد ثقافتك الخاصة على ضوء ثقافات أخرى، وهو ما قد يبدو إثابة بشكل معين. مثال ذلك: إذا كنت منغمساً في الثقافة الإسبانية، فربما لن تتأكد أن ما تراه اعتيادياً ليس كذلك، وأن ما تراه مكاناً شائعاً هو في الحقيقة مكان فريد بالنسبة إلى مجتمعك؛ لذلك فإن جدول قيمك يتغير حين تقابل ثقافات أخرى. وللمثال، فإن قيمي قد حدث لها منذ زمن طويل أن تواءمت مع التراث الإسباني.. وحين أبعدت نفسي عن إسبانيا، وكانت القيم التي أتمسك بها حقيقية، كنت قد كسبت حقيقتي الخاصة، وأسلوبي في النظر إلى العالم.

ـ ألم تضعف إقامتك بالخارج من قدرتك على الكتابة باللغة الإسبانية؟

حين تكون اللغة أداة عمل، فإنها تكون أعمق كثيراً في مدى قوتها عمّا لو كانت مجرد شكل للاتصال. ومنذ أن عشت حياتي محاطاً بأناس يتحدثون اللغة الإنجليزية، والفرنسية، والعربية، أو التركية، أصبحت اللغة الإسبانية ببساطة أداة عمل فقط بالنسبة إليّ، فهي تمتلك في حدّ ذاتها لوناً خاصاً لن يمكن أن يوجد تحت ظروف أكثر من اعتيادية.

ـ هل تعني أن اللغة التي تتحدث وتكتب بها، ليس لديها ما تفعله مع اللغة كما يُتحدث بها في إسبانيا؟ وهل توافق كابريرا انفانتي حين قال: إن لغته هي من ابتكاره، وليست حقيقة كوبية؟

للمؤلف الحق في أن يبتكر لغته حتى مدى معين، وقد قلت دائماً: إن على الكاتب التزاماً أخلاقياً فقط في أن ينتج لغة أصيلة من اللغة التي بدأ منها. إذا فعلت ذلك أكون حينئذ راضياً. إذا ما حولّت اللغة وتطلّب ذلك بعض فضاء جديد لها ـ بالأسلوب نفسه الذي تسترد به ألمانيا أراضي من البحر ببناء سدود ـ فإن ذلك هو ما يعنيه الأدب بالنسبة إليّ من أجل ذلك، فإن هؤلاء الكتّاب الذين لم يعدلوا لغتهم يمكن أن يختفوا من العالم الأدبي، ولا يمكن لأحد أن يعرف الفرق.

ـ ماذا تعني الكلمة المكتوبة بالنسبة إليك؟

إن أحد الأشياء التي لطمتني بقوة حول كتّاب القرن العشرين، هو قلة الاهتمام التي أظهروها حول ما أسماه جاكوبسون «الشعرية»، وهو ما قد نصطلح على أنه «لغويات» وأنا واحد من قلة كانت حقيقة مبهورة بهذا الموضوع منذ عشر سنوات، وقد قرأت كل ما نشر حوله من فرديناند دي سوسير إلى شومسكي. وقد ساعدتني تلك الكتب على أن أرى بوضوح أكثر، كما أنها لم تؤثر بشكل مباشر في كتاباتي.

ـ لماذا لا تستخدم في عملك حروفاً كبيرة أو فترات توقف؟

لأن إيقاع كتابتي يتطلب ذلك، فلا تصلح معه فترات التوقف، وفصلات، وانقطاعات. ومن أجل ذلك، كان مستحيلاً أن أكتب «فضائل الطائر الوحيد» بأي أسلوب آخر؛ لأنه نص يتطلب هذا الشكل من الكتابة. كما أنه لم يكن اختياراً شعورياً. وفي البداية، لم يكن القرّاء مغرمين بندرة وضع علامات الوقف، لأنها كانت تتطلب من الفرد قدراً من المشقة كي يقرأها. وهذا هو السبب في أنني أفضل دائماً القراءة بصوت عال. وحين درّست مقررات تعليمية في الولايات المتحدة وإسبانيا أمكنني أن أقدّم محاضرات عامة؛ كي أعلّم الحضور كيف يقرؤون عملي، وبهذه الطريقة يمكن لأي شخص أن يتحقق من أن فيها إيقاعاً.

ـ تشبه قراءة عمل لك تنفساً للتجربة. ألا تعتقد أنه يجب على كل شخص أن يقرأها بصوت عال؟

أنا لا أطلب من أي شخص أن يقرأ أعمالي بصوت عال، لكنني أعتقد أن ذلك قد يساعد. ولا تنس أنه قبل اختراع حروف الطباعة قام التراث الشفهي بدور أساسي. مثال على ذلك، فإن «روخاس لاسيليستينا» حين تُقرأ بصوت عال تكون حكاية خرافية، بسبب ما توحى به من إيقاع. وقد رجعت، من هذا المنطلق، إلى انفتاح أدبنا وأصالته قبل حلول عصر النهضة، الذي اعتقدنا أنه أنهك لغتنا بشكل كبير. لقد حاول عصر النهضة أن ينتشل الشرائح الأدبية والنموذجات التي أمكن أن تكون ثابتة على حالها، بينما كان المؤلفون قبل ذلك أحراراً في أن يفعلوا ما يسعدهم. وباستثناء «أرض محظورة»، فليس هناك أيٌ من كتبي منذ «كونت دون خوليان» قد بدأ بخطة، بل فقط بصورة متجمعة. إنني أدع النصوص تنمو كيفما تشاء، غير متأكد إلى أين تقودني. وقد نمت تلك الأعمال بصورة منتظمة.

ـ ربما لذلك السبب لا توجد فترات توقف أخيرة في عملك، لأننا يمكن أن نستمر مع النص؟

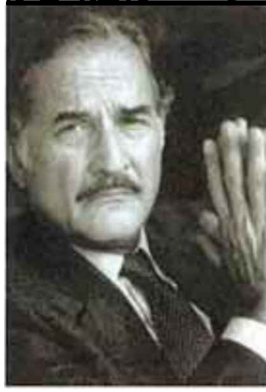
أو يمكن معاودة البدء من جديد مرة ثانية.

ـ أي أن يتخذ عملك شكلاً دائرياً، وهو ما قد تتضمن تأثراتك الأدبية بكبير كهنة «هيتا» وسانت خوان دي لاكروث؟

إنهما معلماي الخصوصيان، بطبيعة الحال. وقد ترى بعض كتبي كمحاورات مع أعمال آخرين، مثال ذلك، فإن رواية «مقبرة» مأخوذة عن «كتاب الحب الطيب» لـ «هيتا»، و«كونت دون بليا» مستمدة من «جونجورا»، و«فضائل الطائر الوحيد» تنتمي إلى «أنشودة ملهمة» لسانت خوان دي لاكروث.

ـ هل أنت متدين؟

لست متديناً بالطبيعة، لكنني عرفت أول مرة التعبير الأدبي للتجربة الدينية، خلال السنوات القليلة الماضية، وانبهرت به. قرأت أعمال سانت خوان دي لاكروث، وأولئك المتصوّفة الكبار. فأدهشني فيهم جسارتهم في تسمية ما لا يُسمى، وما لا يُحاط به. لقد تدبروا ابتكار لغة حديثة جداً، لدرجة أنها لم تُجار حتى رامبو. يمكن أن يبدو بعض نثرهم كأنه كُتب بواسطة شاعر سيريالي، جاء بعد رامبو، ويرجع ذلك إلى الطريقة التي ستخدمون بها اللغة كإشارة إلى التجربة الدينية.


كارلوس فوينتس

ـ يقال: إنك قد سحبت وقطّعت اللغة. هل كان ذلك أسلوبك في مهاجمة إسبانيا فرانكو؟

ينتمي فرانكو الآن إلى الماضي، يجب أن تضعه في منظور تاريخي. لقد حاولت منذ «كونت دون خوليان» أن أحافظ على بقاء علاقة حيوية مع عنصر الثقافة الإسبانية، الذي يمكن أن نطلق عليه شجرة الأدب. لست على اتصال مع أنماط مولعة بها ونزعات حالية، أو مع ما يمكن تقويمه في إسبانيا اليوم، مع أن مدريد قد تختلف قليلاً عن بقية القطر. لذا، فإنني حين أبقى على علاقة مع شجرة الأدب، تكتمل بذلك عزلتي عن دائرة إسبانيا السياسية، سواء أكانت تتعلق بفرانكو أم بالاشتراكيين. ومع أنه ليست لدي البغضاء نفسها للاشتراكيين، كتلك التي كانت لدي تجاه فرانكو، فإنني أشعر كما لو كنت نابذاً لها. كما أنه

خوان غويتيسولو

وُلد عام ١٩٣١م في برشلونة، لأسرة برجوازية. كان أبوه مالك أسهم رئيسًا في شركة السماد والعلف. وكان أكثر من رجل صارم. وكانت أمه قارئة شديدة التوق إلى ثقافة قيّمة. وقد قُتلت بقنبلة «جمهورية» عام ١٩٣٨م، خلال غارة جوية. وقد استعاد غويتيسولو في رواية ذات نمط مثير للمشاعر هي «منطقة محظورة» ١٩٨٥م، كيف ذهبت الأم للتسوق، ولم تعد ليلتها أبدًا، وظلت في حقيبتها اللعب والكتب التي اشترتها لأطفالها. وهو يحكي في ذكرياته عن الأذى الذي جلبته الحرب المدنية، والتعصب، والنفاق، الذي ظهر في إسبانيا بعد الحرب، في وطنه نفسه. وقد قاده كل ذلك إلى أن يمقت ذلك المجتمع بشدة، وأن يشعر أنه خارج عنه.

تعلّم غويتيسولو في مدرسة جيزويت، ثم درس القانون بعد ذلك. لكنه، مثل أخويه خوسي أجستين ولويس، كانت الكتابة هي هدفه. وحين كان في العشرينيات، عام ١٩٦٢م، نال جائزة جاني الأدبية للشباب عن قصة قصيرة بعنوان «عالم من مرايا».

بعد قضاء عدة أيام في باريس، قرر أن يجعل منها وطنًا، ومازال منذ عام ١٩٥٧م يعيش بين باريس والمغرب. وقد منحته هاتان الإقامتان مكانًا يتنفس وينمو فيه، وهو ما كان مشتاقًا إليه حين كان فتى يافعًا، وكان يمكن لعودة الديموقراطية إلى إسبانيا أن تضع نهاية لنفي فرضه بنفسه، لكنه اختار ألا يعود ثانية.

يعد غويتيسولو واحدًا من أكثر الكتّاب الإسبان ترجمة إلى الإنجليزية، كما يتمتع بنوع شعبية كتّاب أمريكا اللاتينية. وقد دعاه كارلوس فوينتس «أعظم روائي إسباني حي». مثل كتّاب مرحلة «الازدهار». على الرغم من أنه لا يحبّ ذلك المصطلح. فهو يحاول محرّضًا، بكتابات محظورة، أن يقوم بهجوم مستمر على اللغة الإسبانية؛ كي يعطيها بعدًا جديدًا وحيوية.. إنه يتعقّب إسبانيا، التي أرهقت، ويكشف عن إسبانيا التي يحبها عند كتّاب مثل: كبير كهنة «هيتا»، فرانسسكو دليكادو، وفرانسسكو كويفيدو الذي أشار إليه في أكثر من مناسبة على أنه جويس إسبانيا.

من بين كتبه «ألعاب اليدين» ١٩٥٤م (ترجمة إنجليزية)، و«القاتل الشاب» ١٩٥٩م، و«حداد في الجنة» ١٩٥٥م، و«أطفال الفوضى» ١٩٥٨م، و«السيرك» ١٩٥٨م (ترجمة إنجليزية ١٩٦٠م)، و«حقول نيخاز» ١٩٥٩م، و«الغدير» ١٩٦٢م (ترجمة إنجليزية)، و«معالم هوية» ١٩٦٦م (١٩٦٩م)، و«كونت دون خوليان» ١٩٧٠م، (ترجمة إنجليزية) و«كونت خوليان» (١٩٧٤م)، و«خوان بلا أرض» ١٩٧٥م (١٩٧٧م)، و«مقبرة» ١٩٨٠م (١٩٨١م)، و«مشهد بعد المعركة» ١٩٨٢م (١٩٨٧م)، و«أرض محظورة» ١٩٨٥م (١٩٨٩م)، و«فضائل الطائر الوحيد» ١٩٨٨م (١٩٩١م).

ليس لدي أي علاقة مع أجهزة السلطة أو ممثليها - قد أكون الشخص الوحيد الذي لم ير أبدًا الملك أو رئيس الوزراء - وأعيش في عزلة تامة عن النظام، فأنا لست سلعة في مخزون السوق.

- لكن إسبانيا ظلّت همًا مركزيًا في عملك، دائمًا وأبدًا؟

طبعًا، لكن إسبانيا على إجمالها، فمنذ بداية العصور الوسطى حتى الحاضر. يعدني كثير من الناس إسبانيا، ولا أعرف أي مؤلف معاصر فكر مليًا بثبات وعمّق جذور ثقافته الإسبانية، كما فعلت.

- إذن أنت تناضل كي تعود إلى الجذور؟

لا، بل فقط لأنني أعتقد أن على كل كاتب أن يعرف النسب الأدبي. يريد كل الكتاب في الأزمنة الحديثة، أن يُعاد تعريفهم، وأن يكون لهم حواريون. لكن ذلك لم يثر أبدًا اهتمامي، وما أردته فعلًا هو أن أحدد نسبًا يمكنني من استعادة أسلافي الأدباء العظام، مثل كبير كهنة «هيتا»، وسرفانتس، وسانت خوان دي لاكروث.

- من أيضًا تودّ أن تضيفه إلى نسبك؟

فرناندو دي روخاس، وجونجورا، وفرانسيسكو ديليكادو، دون ذكر أفراد من ثقافات أخرى.

- هل تود أن تضيف جان بول سارتر إلى قائمة مؤلفيك من ثقافات أخرى؟

إنه أكثر من مجرد صلة، فنحن معاصران - ولدي أشياء مشتركة مع مؤلفين آخرين، مثل كارلوس فوينتس، وأكتافيو باث، وسيفيرو ساردي، وكبريرا إنفانتي، وأحيانًا مع روا باستوس. لكن حين أتكلم عن مسار، فأنا لا أتحدث فقط عن إسبانيا، لكن عن آخرين أيضًا مثل المتصوفة الذين ذكرتهم. ووفقًا لشروط القرن العشرين، فإن المؤلفين من الثقافات الأخرى، الذين أشعر بالقرب منهم، أود أن أذكر جويس وسيلين، الذي كتب «رحلة إلى نهاية الليل».

- لقد جرت موازنتك بجويس. هل توافق على وجود تشابه بينكما؟

أعتقد أن المؤلف الذي هو أكثر شبهًا بجويس -

بمواصفات ما فعل مع اللغة الإسبانية كما فعل المؤلف الأيرلندي مع اللغة الإنجليزية - هو خوليان رويس، فأنا أعدّ جويس على النسق نفسه، مثل آرنو سكيمدت وكارلو اميليو جارا؛ لأنهم قد فعلوا جميعاً أشياء ثورية مع اللغة.

- أنت تحب أيضاً اللعب بالكلمات، أم أن ذلك أكثر من مجرد لعب؟

يلعب كبريرا إنفانتي وخوليان رويس بشكل أفضل مني بالكلمات، بينما يظهر إتقاني في تعديل تركيب جملة ووضع جمل معاً. لقد سمح هذان الإسبانيان بكثير من مرونة اللعب بتركيب الجملة.

- ما أكثر ما يمنعك من التجريب مع تركيب الجملة؟

لقد أصبح ذلك حاجة إلى الابتكار بعد جريان الجمل المصنوعة، التي تسببت في إثارة اهتمامي. وكقاعدة لا يمكنني أن أقرأ روايات القرن العشرين؛ لأنها كُتبت وفقاً للشريعة الأدبية للقرن التاسع عشر.

وهذا لا يعني أنني لا أحب روايات القرن التاسع عشر، التي أحبها، لكنني لا أستطيع ببساطة أن أقرأ عدة أعمال معاصرة؛ لأنها تتبع حكماً أدبياً للقرن التاسع عشر.

- هل تستمتع بإعادة تشكيل التاريخ؟

نعم، فإذا عدنا إلى ما سبق أن قلته آنفاً، فإن اهتمامي بنصوص ما قبل عصر النهضة يرجع إلى أنها لا تتبع أي معايير. ويمكن أن تُقرأ أعمالي الأدبية وغير الأدبية، كقصائد، وروايات، أو نقد أدبي، كيفما يشاء القارئ.

- لكنك لم تكتب شعراً أبداً؟

كل شيء كتبته منذ «كونت دون خوليان» يعدُّ شعراً.

- ما الأكثر أهمية بالنسبة إليك إيقاع اللغة،أو الشخصيات، أو الكتاب ككل؟

الكتاب هو دائماً الشيء الأكثر أهمية. أما بالنسبة إلى الشخصيات، فإنني لم أستخدم أياً منها منذ «كونت دون خوليان»، ويأتي سرفانتس أيضاً على ذلك الامتداد، إذ لا توجد شخصيات يستخدمها المؤلفون كتدابير للحبكة. وبمثل ذلك، فإن شخصياتي كتلك هي مخلوقات لغوية نقية. إنها تبعث بثبات، وتموت، ويعاد ميلادها، ويتغير عمرها وجنسها تبعاً لإيقاع المرد.

وأعترف أنه سيكون صعباً على شخص اعتاد أن يلتصق بمبدأ ثابت للرواية - مع شخصيات ومواقف، وكل ما إلى ذلك - أن يكون مهتما بأعمالي.

- من هم رواتك؟ إنها تتغير من «أنا» إلى «أنت» إلى «نحن»؟

إنه نظام متآلف من أصوات موسيقية إذا جاز التعبير. إنه من الجلي من هو الراوي في «كونت دون خوليان»؛ لأن المرجع الأساسي في ذلك الكتاب يعود إلى «جونجورا»، وينبغي أن أضيف «ليزاماليما» إلى قائمتي لعظماء مؤلفي هذا القرن. لقد رأى ليزا ماليما ذلك، بينما كان جونجورا شاعراً صعباً. إنه ليس غامضاً مثل سانت خوان دي لاكروث. وهكذا، عندما كتبت ليندا ليفين دراسة نقدية حول «كونت دون خوليان» لم يكن لديها أي متاعب في تعرّف كل الإشارات التي صنعتها، صفحة صفحة، وعلى الجانب الآخر، حين كتبت «فضائل الطائر الوحيد» حاولت أن أبتكر أيضاً نصاً مشابهاً لنص سانت خوان دي لاكروث «أنشودة ملهمة»، لكنني لن أكون قادراً على أن أخبرك عن ماهية بعض تلك الإشارات. إن «أنشودة ملهمة» هو العمل الأكثر غموضاً في مجموعة الأدب الإسباني.

غادرت إسبانيا لأسباب سياسية وثقافية، فقد كنت ضد عصر فرانكو وثقافة إسبانيا المعزولة الخانقة

- ولذلك تسعى أعمالك إلى أن تعود إلى الماضي؟

نعم «تماماً» كما قلت، لقد تعلمت كثيراً من كتاب مثل روخاس وديليكادو. أتذكر أن ناقداً قال ذات مرة: إن إشارة صغتها في «مشهد بعد المعركة» جعلته يظن أنني أصبت بعدوى بدع بنائية باريسية، لم أعتن بأن أرد عليه، لكن ينبغي أن أشير إلى أن «كتاب الحب الطيب» لكبير كهنة «هيتا» قد كُتب بالضمير الأول، وكان الكتاب نفسه يتكلم. لذا فإن ما يعدّونه في مقدمة الأعمال الطليعية كان قد كُتب فعلا في القرن الخامس عشر.

- أثار كتابك «فضائل الطائر الوحيد» ردود أفعال مختلفة من القرّاء؟

إنهم يخططون الآن لمحاورة حول ذلك الكتاب، وهناك ستوجد - دون شك - تفسيرات مختلفة، ليس بينها ما سأكون قادراً على أن أثبت صحته؛ لأن مرجع الأمر إلى القراء كي يقرروا، فالنص لا يزوّد نفسه بتجليات حول ووراء ما يقول.

- هل تظن أن القارئ، الذي قد يكون أحياناً ناقداً أيضاً، يمكن أن يرى في العمل أكثر من المؤلف نفسه؟

قد توجد أشياء في كتاب لم يرها الكاتب. فإذا لم تكتشف تفسيرات أخرى دون تعريف للنص، أعتقد حينئذ أن الأمر سيكون سليماً حتى لو لم أرها. هناك، بطبيعة الحال، تفسيرات مجانبة للصواب. لكن حين تكون قراءة شخصية مؤسسة على النص، حينئذ أعتقد أنها تصلح.

- بماذا تشعر بالنسبة إلى النقاد؟

لقد دافعت دائماً عن الخيال النقدي، لأنني أراه مهماً. وقد كتبت بنفسي عدة أعمال نقدية، وقد استخدمت بالمناسبة، مؤلفين مثل فرناندو دي روخاس لحساب نهاياتي الأدبية.

- هل تفكر في القارئ حين تكتب؟

إنني أفعل بشروط عامة، ولكن ليس أبداً بقارئ خاص مميز في ذهني. ويمكن أن يكون القارئ المثالي هو من يفهم نص المؤلف. وفي أيامنا هذه، يجب أن نعد ملاحظات نقدية حول سرفانتس بشكل خاص؛ لأننا لسنا معاصرين له، ولم نعايش عالمه. كانت الناس في زمن سرفانتس يفهمون بشكل كامل حسن تهكم دولسينيا القادمة من «التوبوسو»؛ لأنها كانت مدينة «مغربية».

كان سرفانتس، بطبيعة الحال، ينتقد نظام الطبقات، لذا نحتاج الآن إلى ملاحظات نقدية؛ حتى نضع ذلك قرينة من أجلنا. لذلك فإن القارئ المثالي هو الذي يشارك المؤلف كل معارفه، ويفهم كل إشاراته. وفي حالتي، فإن كثيراً من القراء سألوني حول حادثة موصوفة في عدد من الصفحات الأولى من «كونت دون خوليان»، التي وقعت حين كنت أعيش في «تانجيرز» في أثناء عملي في ذلك الكتاب. لقد وضعت إشارة في ذلك الكتاب حول متنبئ جوي كان قد تعهد بحلق شاربه إذا لم يصبح اليوم مشمساً، وذلك من أجل مباراة كرة قدم. وحين أمطرت فعلاً، حلق شاربه، وأصبح بطلاً قومياً بسبب استقامته. وقد فهم الناس الذين كانوا في «تانجيزز» في ذلك الوقت، الإشارة. ولكن إذا لم أشرحها للقراء الآخرين، فلن يمكنهم أن يلتقطوا ما كنت أتحدث بشأنه. ومن أجل ذلك، فإن النقد التاريخي لا بد منه؛ كي يعطي سياقاً لعمل بعينه.

- هل تعد الكتاب بالنسبة إليك خليطاً من الخيال والواقع؟



شومسكي

لا أستطيع أن أتعرف - حقيقة - إلى أحدهما من الآخر.

- لذلك لن تستطيع أن تدين الناس إذا ما أخطؤوا في تمييز الواقع من الخيال في عملك؟

لا أدري.. ولا أمانع في هذه الحالة، من شرح ذلك بالإحالة إلى الواقع؛ لأن النص نفسه لا يتغير بالنسبة إلي، وتكون تلك التفسيرات لأولئك القراء الذين يريدون، على - الأغلب - قراءة مضبوطة، والذين يحتاجون إلى أن يعرفوا كل تلك التفاصيل.

- بماذا تشعر حين تكتب؟

من الصعوبة بمكان أن أشرح ذلك. إنها تجربة قوية سارة، على الرغم من أنها قد تسبب لي أيضاً توتراً، لأنني لم أقل ما كنت أريد أن أعبر عنه.

- لماذا تكتب؟

لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر.

- متى أصبحت معنياً للمرة الأولى بتلك الحاجة؟

منذ سن السابعة أو الثامنة، لم أعد قادراً على أن أفكر بعمل أي شيء آخر عدا الكتابة.

- لقد ختمت «فضائل طائر وحيد» بهذا المقطع: «عاش وحيداً / ووحده صنع عشه / كانت العزلة مرشده وحياته / أودع المكان أيضاً من جديد حبه الجريح». هل الكتابة نشاط متوحد؟

ذلك النثر من سان خوان دي لاكروث، وقد ضمّنته كأسلوب يلخص عملي. ولا تنس أن «الطائر الوحيد» هو إقرار بالفضل لمؤلف «أنشودة ملهمة». قد يعرف بعض الناس أن سان خوان دي لاكروث قد كتب رسالة بحثية حول فضائل طائر وحيد، وأنه أجبر على أن يأكله حين جاؤوا كي يقبضوا عليه. ماذا كان في ذلك العمل؟. الشيء الوحيد الذي يمكن أن نقوله هو أنه أعد رداً للحن الديني ليومه، وهو ما يسوغ لماذا أكله. إن اقراري بالفضل قوامه استعادة العمل الذي أجبر على أن يأكله إلى الأدب الإسباني مرة أخرى.

- ماذا هناك حول الرمز عن الطائر الذي تحبه؟

هو تعبير ملتبس. وفي الشعر الصوفي يعد الطائر رمزاً للروح، لكن في كتابي «للطائر» أيضاً ظلال جنسية شاذة.

- هل تحتاج إلى أن تكون وحيداً حين تكتب؟

أحتاج إلى أن أكون شديد التركيز، حين أكتب؛ فأنا

مسكون بعملي، ويكون صعبًا جدًا عليّ أن أتواصل مع آخرين في أثناء الكتابة؛ لأنه يبدو أن الحوار يسلب مني طاقتي التي أحتاج إليها ككاتب. ويجب أن أشكر زوجتي، مونيك لانج؛ لتفهمها إياي تحت هذه الظروف.

- هو ما يجعلك سعيدًا أن تنهي عملاً عندئذٍ؟

أعتقد أنني حققت ما خلقت كي أفعله، لذلك يُسرى عني حين أنتهي.

- قبل أن تكتب عملاً، هل تعرف ماذا سيكون: رواية أو قصة أو سيرة ذاتية؟

أنا لا أعرف. وبما أنني لا أضع خطوطًا عريضة، أو استخدم شخصيات، أو أطور مشروعات، فإن الظمأ إلى الكتابة نفسها يكون هو فقط ما يحركني، ويكون كله رافدًا لي إذا كان لدي شيء لأقوله، وهو ما احتاج إلى أن أعبر عنه. حين كتبت «فضائل طائر وحيد» عرفت شيئين بوضوح تام: أنه يحب أن يرتبط بـ «أنشودة ملهمة»، وأنه يجب أن يسكن في مقام الموت. ذلكما العاملان هما فقط ما كانا في رأسي، ولم أعرف إلى ماذا سيؤول الأمر.

- هل ترى ارتقاءً في عملك؟

أفترض أنه يوجد.

- في «خوان بلا أرض» تقول إحدى شخصياتك بالفرنسية: «أنا لا أبحث عن مصداقية. أنا أرسم ما أرى، ثم ابتكر، وأحمّل المواقف. ما أسباب نجاحك؟ عدم إملال الجماهير، هذا هو قانون الرواية الوحيد. يجب أن تكون لديك قصة مبنية جيدًا لروايتك، يجب أن يحدث شيء ما طوال الوقت. تموت الروايات الأوربية الحديثة من فقر الدم. يجب أن نعود إلى المنبع، مثل الأمريكيين». هل كنت تتهكم حين قلت ذلك؟

إنها فقرة تهكمية ساخرة. إن ذلك معين لطيف يبلور الحالة الحالية للرواية. إنها تعكس تفكير أولئك الكتّاب المتوسطين، الذين يظهرون غالبًا في التلفاز، والذين يُعد أهم شيء بالنسبة إليهم أن يكون الكتاب جيد البناء. إن إحدى المشكلات التي نواجهها اليوم مع الأدب، هي بشكل دقيق عدم القدرة على تمييز الشكل الأدبي من محتوى الكتاب. هناك كتّاب يبنون أعمالهم جيدًا، لكن لا يمكنني أن أقول إنهم ينتجون أدبًا. ومع كل ذلك، فإن هؤلاء الكتاب هم المفضلون عادة من النقاد والجمهور، وتُستقبل أعمالهم بشكل جيد؛ لأن لديهم جمهورًا، بينما يكون على الكتب الأخرى أن تخلق جمهورها. مثال ذلك، فإن «أغاني مالدورو» للوتريامون لم يكن لها جمهور حين ظهرت للمرّة الأولى، وكان عليها أن تجتذب بنفسها.

- ماذا حدث في حالتك؟

أعتقد، بكل تواضع أن أعمالي تخلق جمهورها، وبرهاني على هذا هو أنه حينما صدرت كتبي للمرة الأولى، فإنها سُطحت بواسطة نقاد كانوا شديدي الارتياب كلية، وعندما كانوا يقرؤون صفحة ولا يفهمونها، كانوا يزعمون أن يصرفوا العمل بعيدًا عن الاهتمام.

- كيف تتوصل إلى عناوين كتبك؟

أحيانًا يكون لدي العنوان قبل أن أبدأ، بينما في أحوال أخرى لا أتوصل إليه حتى النهاية، وهناك أوقات لا أجده فيها أبدًا.

- ماذا عن «خوان بلا أرض»؟

كان «خوان بلا أرض» اسمًا منتحلاً؛ لأن بلانكو هوايت استخدمه متتبعًا منفاه إلى لندن. وقد نُشرت يومياته في إسبانيا تحت ذلك الاسم الرمزي، الذي أعجبت به فورًا، لذلك استعرته.

- هل أعجبت به أيضًا، لأنه اسمك الأول؟

نعم. كانت تلك مصادفة، لكنها لم تدخل في الاختيار.

- هل يمكن أن تحدثنا عن العنصر السيري في كتبك؟

حين تدخل الحياة إلى الأدب، تصبح أدبًا، أود أن أعرض فيه كنه تلك الحياة. حين يكتب مؤلف سيرة ذاتية، يكون عليه - مع ذلك - أن يتكلم عما حدث فعلاً وليس عمّا ينبغي أن يحدث. لقد كتبت عملين للسيرة الذاتية، وكانت تلك خبرة كبيرة. وقد حاولت أن أحصر نفسي وفق ذكرياتي، ومع أي وثائق مكتوبة من الزمن الذي قد يتقابل مع ما أعيد تجميعه. لذا حاولت أن أعطي نظرتي الموضوعية، محافظًا في ذهني على الصورة الأكبر. فحين تتعامل مع طفولتك، تجد أنك محدد بذكرياتك الخاصة طبعًا. وقد يحبط ذلك مؤلفًا مثلي اعتاد على أن يعمل مع ألف إمكانية أو طرح في أعمال مثل: «خوان بلا أرض» أو «عصفور وحيد». مع مثل تلك الكتب، كان لدي حرية هائلة، بينما كان

ما يعلمنا التاريخ الإسباني، هو أنه حين يكون المجتمع مفتوحًا، فإنه ينتج قطعًا أدبية بارعة صادقة، وحين ينغلق على نفسه، فإنه ينهار

يتوجب علي مع نصوص سير ذاتية أن أتحرك خلالها مع حدود محددة جداً.

ـ بما أنك استخدمت مصطلحات دينية، هل تعد السيرة الذاتية شكلاً للاعتراف؟

لا، ليس لدي ما أعترف به. يمكن أن أعد ذلك تفحصاً حراً لشعورك. هذا هو ما يطلقون عليه في أقطار بروتستانتية، حيث استمر ذلك التقليد منذ القرن السادس عشر. وهو ما لا يوجد في الأمم الكاثوليكية، حيث يحاصر الناس بالاعتراف. وهذا هو السبب في وجود تلك النصوص الكثيرة من السير الذاتية في الأدب الإنجليزي، بينما لا أعرف نصاً إسبانيا مثيلاً. وقد كتبت «أرض محظورة» لهذا السبب البسيط وحتى الأخلاقي، وهو أنه ليس هناك مثل ذلك العمل في الأدب الإسباني.

لماذا اخترت ذلك العنوان؟

بالتحديد؛ لأنه في إسبانيا، وبحكم ما جرت عليه الأمور، فقد وجد قدر عظيم من المقارنة لتناول موضوعات حميمة، ويميل مؤلفو الذكريات الإسبان إلى أن يشتركوا في حديث صغير حول الآخرين، بينما يبقون هادئين مع أنفسهم؛ لأنهم لايريدون تدمير صورتهم الذاتية. وهذا هو السبب في أنهم إسبانيا كانوا دائماً منافقين أكثر شيوعاً، أو مستعرضين. وأنا لا احتمل كلا النوعين. لقد قلت الأشياء التي احتاج إلى أن أقولها، بقدر عظيم من التواضع، وبشكل لا تظاهر فيه.

ـ ما المصطلحات التي تستخدمها لتصف عملك؟

من المستحيل أن يعرف الفرد عمله بعدة كلمات. ولكن ربما يمكن أن أذكر مبدأ التقصي، الذي يمكن أن يرى بين أشياء أخرى مثل ثقافة، وأخلاق، وتقص شخصي. هل وجدت بعض متشابهات بين ملاحظتك عن التقصي و تلك الخاصة بجيل ١٨٩٨م؟

لا، لأنهم بدؤوا من فرضيات مختلفة تماماً. وأنا أفكر حين أتحدث بشكل خاص عن ذلك الجيل، في ماشادو وأنامونو، وكيف أنهما كانا يبحثان دائماً عن جذورهما من خلال مخطط ضيق جداً لإسبانيا و«كاستيل» Castile. كنت ضد ذلك الجيل بشكل كبير، و«كونت دون خوليان» هي مواجهة من الأمام لذلك. حين نتحدث عن الجذور، يجب ألا ننسى أن الرجال ليسوا أشجاراً، وأن لدينا أقداماً حتى نستطيع أن نمشي. لذلك، فإن مبدأ الحركة يكون أيضاً مهماً في تقصي الفرد؛ فنحن لا يمكن أن نُقيّد إلى نقطة واحدة ـ يجب أن تكون رؤيتنا للعالم كلية.

ـ لذا فإن شعورك بالنسبة إلى الثقافة ليس محوطاً بحدود دولية، بل يحتوي العالم؟

نعم، لأنه من المستحيل أن نختزل الثقافة في شيء محدد، ونسمي ذلك تطهيراً، فأنا لا أومن بالعنصرية، والدولية، أو النقاء الأدبي. وإذا حللنا جيداً نوعاً من الأدب، يمكننا أن نرى أن هناك قدراً من تأثيرات إجمالية قد تمّ استقبالها. إذا استبعدنا تلك التأثيرات، فإن الأدب يكفّ عن أن يوجد. وبما أن الثقافة الإسبانية قد استوعبت تأثيراتها كلية، فإنها تكون عظيمة، ولكن حين تغلق على نفسها، وتحاول أن تتبع عقيدة سياسية أو دينية معينة، فإنها تموت، وقد حدث الشيء نفسه تماماً للحضارة العربية، والتوازي حقيقة مهمة، فحين انفتحت الحضارة العربية، فإنها التهمت كل التأثيرات مدة ثلاثمئة وخمسين عاماً، ولكن حين رفضت تلك التأثيرات، مفضلة العقيدة الإسلامية، انهارت على نفسها.



جان بول سارتر

ـ يبدو عملك مراوحاً بين تحرير رافض للثقافة الإسبانية ومسكون بها. كيف يمكنك أن توفق بين هاتين العاطفتين المتناقضتين؟

إن كل علاقاتنا، سواء كانت مع ثقافة، أو حياة، أو مع أناس آخرين، فهي دائماً غير واضحة الدلالة، ملتبسة، وهذا الالتباس بالتحديد هو العنصر الحاكم للأدب. يجب على السياسيين أن يعرضوا حلولاً واضحة، بينما لا يفعل الكتّاب ذلك؛ لأن الأدب لا يبحث عن أصوات الناخبين، أو يحاول أن يفوز في الانتخابات. إنه يتوجه إلى قراء معينين، يكونون مبهمين، مثل المؤلف الذي يقرؤون له، والذي ينبغي عليه أن يراهم منعكسين في عمل بعينه، يفسّر إبهامهم.

ـ ماذا تقدّم الكتب لك، بكلمات ملموسة؟

أحبّ الطبعات الجميلة من أعمالي، لكنني لست عابداً وثنياً، فأنا لست جامع كتب أو محباً لها، والدليل على هذا أنني حين أحتاج إلى كتاب لعملي، أجد أنني قد أضعته. إذن، الكتب كموضوعات لا تخصني، لكن ما يهمني فعلاً هو أن أعرف أنها أغنتني.

ـ إذا منحت عملك شكلاً هندسياً، فماذا يمكن أن يكون؟

لكل عمل شكله الخاص.

- هل تعتقد أنه ليس مهماً كم كتاباً كتبت؛ لأنك منغمس أساساً في هذا العالم نفسه؟

لا، لا أعتقد ذلك. وللمثال، فإن «كون دون خوليان» يمكن أن يكون عملاً دائري الشكل؛ لأنه يبدأ من حيث ينتهي، بينما كتبت «خوان بلا أرض» على شكل نمط التعرجات Zigzag Fashion.

- هل تصحح أو تراجع عملك كثيراً؟

فصلا وراء فصل، ولا أتحرك أبداً إلى الأمام، حتى أكون قد صقلت تماماً ما انتهيت من كتابته.

- بماذا تشعر حين تقرأ كتبك المترجمة؟

أقرأ ترجماتي باللغة الإنجليزية والفرنسية؛ لأن المترجمين يستشيروني. وقد أساعدهم أحياناً باقتراح مصطلح معادل. مثال ذلك، ما حدث في نهاية «كونت دون خوليان» حين كانت هناك محاكاة ساخرة لموت خوليان، وقد ذكرت مقطعين نثريين كانا معروفين جيداً لأبناء جيلي، كان لهما ترتيلة «الجيش الإسباني»، وكان في نصّه الأصلي «أنت تستظل بدمك الغالي، أيها المحارب العجوز الجسور». فإذا ترجمت ذلك إلى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، فإنه لن يعني أي شيء. أخيراً اقترح مترجمي الفرنسي آلين سكولمان، فكرة أن أمزج مقطع نثر من «المارسليز» مع مقطع أغنية «جندي في فرقة متطوعين» لأديث بياف، التي يعزفها الجميع. وبذلك، ظل أثر المحاكاة باقياً.

- لكن من الصعب جداً أن تنجز هذا، أليس كذلك؟

نعم، هو كذلك. لكنني أستطيع أن أتصرف مع اللغات التي أعرفها قليلاً أو كثيراً. كما أنه من المثير للاهتمام أن أرى عملية الترجمة من لغة إلى أخرى. وللمثال، فإن عملي يترجم بسهولة أكثر إلى اللغة الإنجليزية، لأنها لغة مرنة ويمكن أن تُشد دون أن تنكسر. وليس الأمر كذلك مع اللغة الفرنسية، التي هي لغة متصلبة أكثر لدرجة أنها في الكلام تتفتت بسهولة أكثر. وللّغة الإسبانية مرونة اللغة الإنجليزية نفسها، لذلك يمكن أن تترجم «كونجورا» إلى اللغة الإنجليزية بشكل جميل، ولكن لا يمكن لأحد أن يترجم ذلك العمل إلى الفرنسية. وقد يمكن أن تترجم «تريسترام شاندي» لستيرن إلى الإسبانية، وستكون أجمل كثيراً من أن تترجم إلى الفرنسية. وقد كان لي معرفة شخصية بالرواية عبر الترجمة الفرنسية، وذلك قبل أن أقرأها باللغة الإنجليزية. كانت رواية جميلة بما فيه الكفاية، لكن كان هناك القليل الذي يجب أداؤه مع عمل ستيرن. ذلك هو السبب في أن تكون شاعراً فرنسياً عظيماً، سيكون ذلك مثيراً للاعجاب أكثر من أن تكون شاعراً إنجليزياً أو إسبانياً.

- ما علاقتك مع أخويك، اللذين يعدّان كاتبين أيضاً؟

أنا لا أراهما كثيراً؛ لأننا نعيش كل على حدة. وقد اعتدنا أن نكون قريبين خلال ثلاثين عاماً، ولكن ليس كثيراً الآن. لكنني أقرأ كتبهما بطبيعة الحال.

- هل ترى تشابهاً بين عملهما وعملك؟

لا؛ لأن لعملي شخصيته الخاصة.

- إذا أعطيت نصيحة لبعض الكتّاب الشبان، فماذا يمكن أن تكون؟

من المستحيل أن أعطي نصيحة؛ لأن تجارب كل مؤلف تختلف عن تجارب الآخرين. وقد أشاركهم خبرات معينة أكون قد اكتسبتها عبر السنين.

- هل أحببت أن تعيش في القرون الوسطى؟

لا، لأنني أحب أشياءكثيرة من القرن العشرين.

- إذن، فأنت رجل من القرن العشرين مع عناصر كثيرة من القرون الوسطى. ربما تكون حتى من القرن الحادي والعشرين؟

لم، لا؟ قد يمكن أن يكون ذلك، فهذا هو ما تعنيه الحداثة بالنسبة إليّ. وقد كتبت كثيراً حول هذا الموضوع، شارحاً بالتفصيل لما يعد كبير كهنة «هيتا» حداثياً، ولماذا أعده معاصراً.

- هل هناك كاتب أو فنان آخر، يشاركك منظورك عن الفنون؟

محّصت عمل «غاودي» في الفن المعماري، واكتشفت أنه قد رفض أيضاً شرائع عصر النهضة وعصر الكلاسيكية الحديثة. أراد أن يعود إلى منطقة الفن المعماري في إسبانيا التي تُعد متّسمة بخصائص الطراز القوطي. لقد عنت الأصالة بالنسبة إليه العودة تحديداً إلى المنشأ. وذلك ما يعجبني في «غاودي». وبالنسبة إليّ، هو مثال يُحتذى فيما يجب على الشخص الخلاّق أن يكونه في وقتنا الحاضر.

- تقول في «طائر وحيد» «من أكون؟ ومن أشبه؟». أحب أن أسألك من يكون خوان غويتيسولو؟

أنا أسوأ شخص في العالم يمكن أن يعطيك إجابة عن ذلك السؤال. اسألي أي شخص يعرفني، أو ربما أفضل أن تسألي شخصاً لا يعرفني؛ لأنه كلّما قلّ ما يعرفونه عني، كانت إجابتهم أفضل.

الملف الثقافي

انطلاق الجامعة العربية المفتوحة في أكتوبر

دارة الملك عبد العزيز وبرنامج المحافظة على الموارد التاريخية

سويسرا تحتفل بـ (هيسه) ودوما في مقبرة العظماء

توثيق الأكاذيب الإسرائيلية

نايبول لا يستحق نوبل

أكسفورد وغرائب الفنون



خاتمة المطاف

صناعة التجليد والترميم في الغرب الإسلامي

انطلاق الجامعة العربية المفتوحة

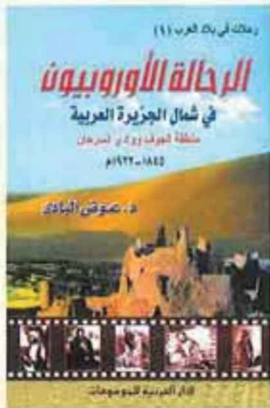

الأمير طلال بن عبد العزيز

أعلن صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبدالعزيز - رئيس برامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية «أجفند»، رئيس الجامعة العربية المفتوحة، أن شهر أكتوبر/تشرين الأول القادم سيشهد انطلاق الجامعة العربية المفتوحة، مشيرًا إلى أن قضايا التعليم والحصول على مقعد دراسي بالجامعات من أهم المشكلات التي تواجه العالم العربي اليوم؛ إذ يتدفق الطلبة على الجامعات بالآلاف؛ مما يجعل أعدادهم تفوق بكثير الطاقة الاستيعابية التقليدية لهذه الجامعات.

وتسعى هذه الجامعة لاستيعاب نحو ٣٠ مليون عربي لم يحصلوا على مقاعد دراسية في مؤسسات التعليم العالي. وقال الأمير طلال بن عبدالعزيز : إن الإحصاءات والأبحاث التي أعلنت توضح أن هناك حاجة أساسية إلى نظام تعليمي مفتوح في العالم العربي، ففي العام الدراسي (١٩٩٧-١٩٩٨م) بلغ عدد خريجي المدارس الثانوية الذين لا تتوافر لهم مقاعد في الجامعات التقليدية أكثر من ٦٢٣ ألفًا في ٢٠ دولة عربية، وخلال الـ ١٦ سنة الماضية، قُدر عدد خريجي الثانوية الذين لم يلتحقوا بأي نظام تعليمي عال بنحو ٣٠ مليون طالب من ١٠ دول، وإذا لم تتم زيادة الطاقة الاستيعابية للجامعات التقليدية بشكل كبير فإن عدد الطلاب الذين لن يجدوا أماكن في الجامعة سيتزايد كثيرًا.

والجدير بالذكر أن تكلفة هذا المشروع بلغت حتى الآن ١١مليون دولار، وتقرر أن يكون المقر الرئيس للجامعة في دولة الكويت، وقد تم هذا الاختيار - كما قال سموه - للمزايا والتسهيلات التي قدمت للجامعة، وبناءً على المعايير التي وضعتها الجامعة للدول العربية الخمس التي طلبت استضافة المقر، إضافة إلى أن الكويت تساهم في موازنة برنامج الخليج العربي (أجفند) الذي يمول الجامعة المفتوحة.

الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية



غلاف الكتاب

صدر مؤخرًا عن الدار العربية للموسوعات كتاب جديد بعنوان «الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية، منطقة الجوف ووادي السرحان: ١٨٤٥م - ١٩٢٢م»، للباحث السعودي الدكتور عوض البادي، وقد هدف المؤلف إلى إعداد كتاب علمي وثائقي عن التاريخ السياسي الحديث لمنطقة الجوف ووادي سرحان اللذين يشكلان القسم الشمالي للجزيرة العربية، ويمثلان البوابة الرئيسة التي عبر منها الأوروبيون إلى وسط الجزيرة العربية.

ومن أجل ذلك قام المؤلف بعملية مسح شاملة جمع خلالها كل ما كتبه الرحالون الأوروبيون الذين زاروا هذه المنطقة خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٠٨م و١٩٢٢م،

وقد شملت كتاباتهم كل جوانب الحياة العربية في هذه المنطقة.

بدأ المؤلف بتعريف الرحالة والرحلة التي قام بها، ومن ثم أورد نص ما قاله كل واحد منهم، دون تدخل أو تعديل أو تبديل، إلا ما تطلبته عملية تحرير النص، بهدف تصحيح معلومة أو كلمة أو تاريخ، وتقديم النص بالأسلوب نفسه الذي انتهجه الرحالة، مع مراعاة عدم تكرار بعض المعلومات أكثر من مرتين إلا إذا اختلف الأسلوب أو جوهر المعلومة؛ لأن كثيرًا ما يقتبس الواحد منهم من الآخر. يتناول هذا الكتاب، الرحالين الذين زاروا منطقة الجوف ووادي السرحان خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والذين خصوها باهتمام خاص في كتاباتهم وهم: جورج أوغست والن، وجيفورد بلغريف، وكارلو غوارماني، وتشارلز هوبر، والليدي آن بلُنت، وجوليوس أويتنغ، والبارون إدواردنولده، وآرتشيبالد فوردر، واس.اس بتلر، والويس موسيل، وسانت جون فيلبي.

يقول المؤلف: إنه لا يقدم هذه المعلومات التي أوردها الرحالون الأوروبيون في هذا الكتاب على أنها حقائق لا تقبل المناقشة، ولا يوافق على كل ما جاء فيها، ولكن «معرفة ما قالوه هم بالتأكيد أفضل من تجاهله كثيرًا»، متفقًا في هذا الشأن مع رائد أدب الرحلات في الوطن العربي الشيخ حمد الجاسر الذي يقول: «إن القارئ العربي كثيرًا ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة (الحكمة ضالة المؤمن التقطها أنى وجدها)، لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، فالحق يجب قبوله، أيًا كان مصدره، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره، وأولئك - بحكم بعدهم عنا، وجهلهم لأحوالنا في الماضي - تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما يكتب عنا، عن بلادنا وتاريخنا لنقبل الحق وننتفع به، وننفي الزيف ونأباه».

وأورد المؤلف في غضون الكتاب بعض الصور الفوتوغرافية والرسومات لبعض الشخصيات، وأيضًا لبعض الأماكن التاريخية.

ذكرى الأديب هيرمان هيسه

احتفلت سويسرا وعدد من الدول الأوربية مؤخرًا بالذكرى السنوية لميلاد الروائي هيرمان هيسه، أحد أشهر الأدباء الألمان في القرن العشرين الذين قرأ العالم لهم باللغة الألمانية.

أحب هيسه سويسرا، وفضلها على بلده الأصلي ألمانيا، وبدأ حياته الأدبية في بازل قريبًا من الحدود الألمانية، ثم عاش في مونتاكنولا في جنوب البلاد، وقد بادله السويسريون هذا الحب، وظلوا يدينون له بالعرفان ، وتجيء هذه الاحتفالات، التي تشمل كل أنحاء سويسرا، دليلاً على حبهم لهذا الكاتب الذي بيعت أكثر من ١٠٠ مليون نسخة من مؤلفاته حتى اليوم.

ولد هيسه في مدينة كلاف الألمانية في ٢ يوليو/تموز عام ١٨٧٧م من أب ألماني وأم سويسرية، وعاش طفولته في المدارس الداخلية، وانتقل إلى بازل وعمره ١٩ عامًا، وفيها كتب أول كتبه peter Camezind الذي نشر عام ١٩٠٤م. وتعد أكثر أعماله شهرة الذي كتبه عام ١٩٢٢م، Shddhart وSteppenwolf عام ١٩٢٧م، وThe Gead Game التي عدّها النقّاد من أروع أعماله.

وتعرض لهجمة شرسة من الأدباء الألمان

إبان الحرب العالمية حين هاجم النزعة العسكرية الوطنية الألمانية، وفي عام ١٩٢٣م تخلى عن جنسيته الألمانية، وأصبح مواطناً سويسرياً. ونال هيسه جائزة نوبل للآداب عام١٩٤٦م تقديراً «لكتاباته الملهمة الراقية التي اتسمت بالجرأة، وعبرت عن المبادىء الإنسانية العامة»، وتوفي في مونتاكنولا عام ١٩٦٢م عن عمر يناهز ٨٥ عاماً.

حقوق المؤلفين في دولة الإمارات

أصدر سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة قانوناً اتحادياً لحماية مؤلفي المصنفات وأصحاب الحقوق المجاورة ضد أي اعتداء على حقوقهم داخل الدولة، ويقع هذا القانون في ثمانية فصول تنظم نطاق الحماية، وحقوق المؤلف، وحماية أصحاب الحقوق المجاورة، ومدة الحماية، والترخيص باستخدام المصنفات، والأحكام الخاصة ببعض المصنفات، والإدارة الجماعية لحقوق المؤلف، والحقوق المجاورة، والإجراءات التحفظية، والعقوبات، والأحكام العامة.

وقد ألغى القانون الجديد القانون الاتحادي السابق رقم (١٠) لسنة ١٩٩٢م، وكل حكم آخر يخالف أحكام هذا القانون. وقال السيد علي البلوشي - رئيس قسم حماية المصنفات بوزارة الإعلام والثقافة الإماراتية: إن القانون الجديد يفي بالالتزامات التي وقّعت عليها دولة الإمارات العربية المتحدة في مجال حقوق المؤلف والحقوق المجاورة، ولا سيما التزاماتها تجاه منظمة (الوايبو) ، ومنظمة التجارة العالمية، وأضاف أن القانون شدد في مواده على حماية أصحاب الحقوق المجاورة، وهم المؤدون، ومنتجو التسجيلات الصوتية، وهيئات البث الإذاعي، وفرض حماية قوية على برامج الكمبيوتر سواء أكانت مخزنة أم محملة بشكل دائم أو مؤقت.

موت ناقد


مارتن فالزر

أثارت رواية الكاتب الألماني مارتن فالزر التي صدرت مؤخراً في ألمانيا تحت عنوان «موت ناقد»، جدلاً واسعاً في الأوساط الأدبية والسياسية، وقد سجلت الرواية مبيعات ضخمة في أول أيام طرحها في الأسواق بلغت ٥٠ ألف نسخة.

وكان أول الانتقادات التي وجهت للرواية قد صدرت عن المسؤول عن الملحق الأدبي في صحيفة «فرانكفورتر الجماينة» الواسعة الانتشار، إذ رفض نشر مقتطفات من الرواية في حلقات معللاً رفضه أن الرواية «معادية للسامية»، مما حدا بناشر الصحيفة فرانك شيرماخر إلى إرسال رسالة لفالزر معلناً رفض النشر، وواصفاً الرواية بأنها «وثيقة للكراهية» و«عمل معاد للسامية».

وتدور أحداث الرواية حول كاتب تدور الشكوك حول مقتله، وتأتي أحداثها على لسان راوية يحقق في مقتل الكاتب، ويحاول تقصي ظروف القتل، ليكشف في النهاية أنه هو الكاتب الذي يحقق في مقتل نفسه، وأقر الكاتب أنه اختلق هذه الفكرة حتى يمضي بعض الوقت في تخيلاته وأوهامه.

وكان الناشر الذي رفض نشر الرواية قد ذكر في خطابه المفتوح الذي وجهه إلى فالزر: أن أحداث الرواية تدور حول شخصية حقيقية

مازالت حية، هو الناقد الأدبي الألماني الشهير مارسيل رايش رانيتسكي الذي يبلغ من العمر ٨٢ عامًا، وهو يهودي كان قد نجا من المجازر النازية في بولندا بعد أن فقد كل عائلته في هذه المجازر، ولم يعلن الناقد الذي تدور حوله الرواية أي معارضة لها، وترك الحكم للجمهور ليقول رأيه بعد أن يطلع على الرواية، بينما هدد الكاتب باللجوء إلى القضاء لإنصافه من هذه الادعاءات.

والجدير بالذكر أن هذه ليست المرة الأولى التي يصطدم فيها فالزر باليهود، فقد سبق له أن اشتبك مع الجالية اليهودية عام ١٩٩٨م في ألمانيا عند ما ألقى كلمة دعا فيها إلى «وضع حد لاستخدام الهولوكوست وسيلة لابتزاز ألمانيا»، مما عرضه حينها إلى حملة واسعة من اليهود انتهت بمصالحة مع رئيس الجالية وقتها إجناس بوبيس.

ويعد فالزر، الحاصل على جائزة السلام في معرض الكتاب الألماني عام ١٩٩٨م، أحد ألمع الروائيين الألمان في النصف الثاني من القرن العشرين، وتعد أعماله من أهم الأعمال الأدبية في العصر الحديث، ومنها: «منتصف الوقت» ١٩٦٠م التي مثلت مع رواية «الطبل والصفيح» لغونتر غراس، و«تخمينات حول يعقوب» لأوفهر يونسون، الذروة الأولى في أدب ما بعد الحرب، وقد عرف عن فالزر أنه يصور في أعماله حياة البرجوازيين، وغالبًا ما يكون أبطال رواياته من المخفقين في الحياة الذين يشعرون بالنقص، ويعانون من مشكلة الهوية، حتى سماه النقاد «مؤرخ الحياة اليومية».

وكان الكاتب الألماني الحائز على جائزة نوبل في الآداب غونتر غراس قد أعلن تضامنه مع زميله فالزر، وقال: إن فالزر ليس معاديًا للسامية، وفي كل أعماله ليس هناك حرف واحد تُشتم منه رائحة معاداة السامية، وأضاف: «رواية كهذه لم أكن لأكتبها في حياتي قط؛ لأن الناقد رايش رانيتسكي لا يستحق رواية».

الوقف الإسلامي



غلاف الكتاب

صدر حديثًا عن دار الفكر المعاصر في بيروت كتاب «الوقف الإسلامي: تطوره، إدارته، تنميته» للدكتور منذر قحف، تناول فيه الوقف الإسلامي وتطوره وإدارته وتنميته وتطور تاريخه في الإسلام خاصة في عهد الصحابة الذين أوجدوا المفهوم الذري، وتوسعوا في معناه الاستثماري الذي يقصد إلى تحقيق التنمية الاقتصادية البحت بصورة تعود إيراداتها على وجوه البر والخير في المجتمع مما جعل الإسلام يعد أول من أقام في التاريخ البشري مؤسسات اقتصادية بحتة طويلة الأمد.

ويقع الكتاب في أربعة أبواب تضم ثلاثة وعشرين فصلاً، جاء الباب الأول عن دراسة مفهوم الوقف وتطوره عبر العصور، وناقش فيه تطور الوقف قبل الإسلام وفي عصر النهضة الإسلامي، وتعرض للوقف في العالم الغربي اليوم، ثم عرّف الوقف ومفهومه الاقتصادي، وشروط استعادته لصحته ودوره الاجتماعي.

وجاء الباب الثاني من الكتاب، والذي يعد أطول أبوابه، عن دراسة فقه الوقف، ومدى الحاجة الكبيرة إلى تجديده لكي يتناسب مع طبيعة الحياة الجديدة وتطورها، والقضاياالتي

أفرزتها، وخصص الباب الثالث لقضية تنمية الوقف، ناقش فيها المبادئ العامة في تنمية الوقف من وجهتي نظر اقتصادية واجتماعية، بالإضافة إلى دراسة الصيَغ الإسلامية لتمويل الوقف وتعزيز دوره سواء من خلال مؤسسات التمويل، أو عن طريق العون المباشر من الأفراد، كذلك تناول كيفية دراسة إدارة الأوقاف وبشكل خاص منها الأموال الاستثمارية، وما يتطلبه ذلك من تطوير لكي يواكب الاساليب الحديثة في إدارة المؤسسات التي يديرها غير المالكين لها.

وختم الكتاب بالباب الرابع الذي تعرض فيه لأساليب الإدارة التي نشأت منذ منتصف القرن التاسع عشر ممثلة بتجربتين لإدارة الوقف في كل من السودان والكويت، وقدم نموذجًا اداريًا جديدًا لكل من الأوقاف الاستثمارية والجهاز الحكومي المشرف على الأوقاف الرسمية.

توثيق الأكاذيب الإسرائيلية

عُقدت مؤخراً بمركز زايد للتنسيق والمتابعة بأبوظبي ندوة بعنوان «يهود الوطن العربي»، وقد دعت الندوة في ختام أعمالها المراكز البحثية والعلمية العربية إلى الاهتمام بتقديم دراسات وأبحاث تتعلق بما كانت تتمتع به الطوائف اليهودية في ظل الحضارة العربية والإسلامية من حريات وحقوق وحسن معاملة لم يلق اليهود لها مثيلاً في أي مكان في العالم.

وقد ناقش المشاركون في الندوة أوضاع اليهود العرب الموجودين حاليًا في إسرائيل، ومواقفهم من الصراع العربي الإسرائيلي، موازنة بأوضاعهم التي كانوا عليها في الأقطار العربية عبر مراحل تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، والتي كانت نموذجًا للتسامح والتفاهم والعيش في أمن وسلام.

وأوصى المشاركون في الندوة بالآتي:

ـ الدعوة إلى صياغة خطاب إعلامي فاعل يوجه إلى الشعب الإسرائيلي، ومن ورائه الغرب.

ـ المطالبة ببذل جهود عربية منسّقة لبث روح التسامح بين جميع البشر على اختلاف أعراقهم وأديانهم من خلال مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة.

ـ حث المراكز البحثية ذات التوجه القومي والإسلامي على الحصول على مصادر التاريخ العربي الإسلامي (الجنيزاه) ونقلها من العبرية إلى العربية في إطار رؤية واضحة تساهم في وضع التاريخ العربي الإسلامي في إطاره الصحيح.

ـ الدعوة إلى تشكيل فريق عمل من الباحثين والمحققين والمترجمين لنقل (التلمود) الذي يعد مصدر الشريعة اليهودية من العبرية إلى اللغة العربية، بقصد كشف مرجعية الموقف اليهودي تجاه الآخرين، من المصادر اليهودية نفسها.

ـ الدعوة إلى متابعة ما ينشر عن علاقة المسلمين باليهود على شبكة الإنترنت وفي غيرها من وسائل المعرفة الأخرى، واستخدام تقنيات الاتصال الحديثة في تصحيح صورة العربي والمسلم، الذي يسعى إلى تحقيق السلام العادل والشامل الذي يعطي لكل ذي حق حقه، وفقًا لمرجعيات الشرعية الدولية.

وأكد المشاركون أن ما تبثه آلة الدعاية الصهيونية العالمية لتعميق حالة الكراهية بين العرب والمسلمين من جهة وبين اليهود من جهة أخرى، لن يخدم هدف التعايش السلمي العالمي المنشود.

وشهدت الندوة نقاشًا واسعًا وعددًا من المداخلات.

عودة أكسوم

وافقت الحكومة الإيطالية أخيرًا على إعادة مسلة أثرية إلى أثيوبيا، كانت القوات التابعة

للديكتاتور الإيطالي الفاشستي موسوليني قد استولت عليها عام ١٩٣٧م.


المسلة الأثرية

وجاء في بيان صادر عن مجلس الوزراء الإيطالي أنه بعد ورود تقرير من رئيس مجلس الوزراء، والوزير المؤقت للخارجية، الإيطالي سيلفيو بيرلسكوني، قرر المجلس البدء في إجراءات إعادة مسلة أكسوم إلى أثيوبيا.

وكانت أثيوبيا قد صعدت حملتها منذ مدة لاستعادة هذه المسلة الأثرية، ووجهت نداءً عالميًا لهذا الغرض.

وكانت الفيصل قد أوردت في عددها رقم (٣١١) خبر تعرض هذه المسلة، التي كانت تُزّين مشارف مقر منظمة الأمم المتحدة «الفاو»، للاصابة بصاعقة تناثرت على إثرها إلى نحو أربعين قطعة حجارة، من بينها كتل كبيرة، من دون أن تصيب أحدًا بسوء، وقد توقفت حركة المرور خوفًا من عدم ثبات هذا النصب الذي يبلغ ارتفاعه نحو ٢٤ مترًا ويزن نحو ٢٠٠طن.

فرنسا تحتفل بدوما

احتفلت فرنسا في الرابع والعشرين من شهر يوليو /تموز الماضي بمرور الذكرى المئوية الثانية لمولد الأديب الفرنسي المعروف ألكسندر دوما، وسيصاحب هذه الاحتفالات نقل رفات الأديب الراحل إلى مقبرة العظماء (البانتيوم) ليرقد إلى جانب صديقه فيكتور هوغو الذي نقلت رفاته إلى مقبرة العظماء في الأول من يونيو/حزيران عام ١٨٨٥م. وقد تقرر أن يتم هذا النقل - كما أعلنت جمعية أصدقاء دوما - في الثالث من أكتوبر/تشرين الأول القادم من قريته فيليه - كوتيريه بعد أن سحب سكان القرية اعتراضًا قدموه إلى مجلس الدولة على المرسوم الرئاسي الذي يسمح بالعملية.

وكان دوما يتمتع بشعبية كبيرة، وله كثير من الأعمال الأدبية، أشهرها: «الفرسان الثلاثة»، و«الكونت دي مونت كريستو»، وغيرهما، وقد تم إنتاج نحو مئتي فيلم من أعماله الأدبية خلال الفترة من ١٩٠٣م إلى ١٩٩٤م، وترجمت رواياته إلى كل لغات العالم تقريبًا، وقد وصفه صديقه هوغو قائلاً: إنه «أكثر من فرنسي، إنه أوروبي، بل إنه أكثر من أوروبي، إنه عالمي، إنه من أولئك الرجال الذين يمكن أن نعدهم زارعي الحضارة»، كما وصفه كلود شوب المتخصص في سيرته الذاتية بأنه «نهر خرق من السرد».

الأعمال المتكاملة لفاضل السباعي

توالي دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع إصدار مجلدات جديدة من الأعمال المتكاملة لصاحب الدار الكاتب فاضل السباعي، وقد صدر من هذه المجموعة القصصية مؤخرًا عدد من المجلدات في طبعات جديدة، والمجموعات هي: «حزن حتى الموت»، و«رحلة حنان»، و«الابتسام في الأيام الصعبة»، و«الألم على نار هادئة»، و«اعترافات ناس طيبين».

والجدير بالذكر أن هذه المجموعة قد صدر منها حتى الآن: «الشوق واللقاء»، و«حياة جديدة»، و«ثم أزهر الحزن»، و«حزن حتى الموت (بالفرنسية)»، و«الطبل»، و«بدر الزمان»، و«بدر الزمان (بالإسبانية)»، و«آه

الفكرية التي كانت سائدة بين المسلمين في الماضي، وتساءل عن سبب غيابها الآن، وقال: إنه لا يجب أن نلوم الغرب؛ بل يجب أن نلتفت إلى ثقافتنا التي يجب أن تكون مرنة، وتتحرك إلى الأمام، مؤكداً أن ذلك لا يتحقق إلا بقبول الرأي الآخر.

أكسفورد وغرائب الفنون

دفعت جامعة أكسفورد البريطانية مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه إسترليني ثمناً لأطلس عربي أثري يتجاوز عمره ٨٠٠ عاماً، كما جاء في صحيفة التايمز البريطانية، ويحتوي هذا الأطلس، الذي جاء تحت عنوان «كتاب الفنون الغربية والمتع البصرية»، على خرائط ومعلومات جغرافية. ويقول المؤرخون: إن أهمية هذا الكتاب تكمن في إبرازه لما وصلت إليه الحضارة العربية والإسلامية من تطور، وهو يتكون من مجلدين يبلغ مجموع صفحاتهما ٩٦ صفحة، وفيهما نحو ١٧خريطة، اثنتان منها للعالم، وواحدة لصقلية، وأخرى لقبرص، وهما أقدم خريطتين لهاتين الجزيرتين.

ومما يتميز به هذا الكتاب الذي قد يكون أهم مخطوط علمي إسلامي وصل إلى الأسواق في القرن الماضي، أنه يضم نصّاً يصف الصور، وهذا نادر في أي مادة إغريقية أو لاتينية أو عربية محفوظة حتى الآن، ويعتقد أن هذا المخطوط الأصلي تم تأليفه في أواخر القرن الحادى عشر، وأن هذه النسخة من المخطوط، وهي الوحيدة الموجودة، قد كتبت على الأرجح بعد ذلك بقرن .

أشارت ايميلي سافاج سميث من المعهد الشرقي في أكسفورد إلى أن هذا المخطوط يعد حلقة مفقودة في تاريخ علم رسم الخرائط بين أواخر العصور القديمة والعصور الوسطى.

التراث الفلسطيني



القدس

دعا المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو) المنجي بوسنينة في رسالة وجهها إلى السيد كويشيروا ماتسورا الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونيسكو) إلى التدخل فوراً من أجل إيقاف الأعمال الهمجية التي يقوم بها جيش الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة، والتي تستهدف معالمها التاريخية والثقافية. كما دعا إلى اجتماع لجنة التراث العالمي فوراً لكون الأعمال المرتكبة ضد تراث الأراضي المحتلة الفلسطينية تمثل جريمة ضد التراث المشترك للبشرية.

وأكد بوسنينة أن المجموعة الدولية، وعلى رأسها اليونيسكو، مدعوة للرد بسرعة وصرامة على عمليات تدمير التراث الفلسطيني في الأراضي المحتلة مطالبّا المجموعة الدولية بالضغط على سلطات الاحتلال للامتثال التام للتشريع الدولي، وخاصة اتفاقية لاهاي عام ١٩٥٤م حول حماية الممتلكات الثقافية في حال النزاعات المسلحة، وكذلك اتفاقية جنيف الرابعة عام ١٩٤٩م وبروتوكولاتها التكميلية.

مطبوعات ممنوعة

أقيم مؤخراً في قاعة المتحف الوطني التشيكي معرض «الثقافات البديلة في أوربا الوسطى والشرقية: الستينيات - الثمانينيات من القرن العشرين»، ويضم المعرض أكثر من ٨٠٠ مطبوعة مما كان يعرف في الماضي «بـ «ساميزدات» وهي كلمة روسية تتكون من جزأين (سام أي ذات) و(ايزدات) أي إصدار وبما أن المطبوع لم يصدر رسمياً، وإنما صدر دون موافقة الرقابة، فإنه معرض للملاحقة من أجهزة الأمن الشيوعية. وكانت هذه المواد قد جمعت من عدة بلدان أوربية، منها الاتحاد السوفييتي السابق، وتشيكيا، وسلوفاكيا، والمجر، وبولندا، وألمانيا الديمقراطية السابقة.

وتضم هذه المطبوعات مؤلفات بأقلام كثير من المشاهورين مثل مسودات مسرحيات ومقالات كتبها رئيس الجمهورية التشيكية الحالي فاتسلاف هافل في أيام النظام الشيوعي، ومخطوطات الكاتب الروسي إلكسندر سولجينيتسين، ونشرة «الحركة السوفييتية من أجل حقوق الإنسان».

أجمل الحكايات الشعبية


يعقوب الشاروني

أعلن رئيس اتحاد الناشرين العرب إبراهيم المعلم عن فوز كتاب «أجمل الحكايات الشعبية» للكاتب المصري يعقوب الشاروني والصادر عن دار الشروق المصرية، بالجائزة الأولى لمعرض بولونيا الدولي لكتب الأطفال من بين ١٢٠٠ كتاب منافس من مختلف بقاع العالم.

وقال المعلم: «إن لجنة التحكيم الدولية استندت في قرارها منح الجائزة للكتاب إلى تضمنه رسومات ولوحات تستمد أسلوبها من تراث فني وتقني شهير في الحفر على الخشب والطباعة»، وقد رأت اللجنة أن «الرسومات والشخصيات تتضمن تساؤلات فورية عن الثقافة الثرية والمتنوعة التي تمثلها صور الشرق التي اخترعها الغرب بنظرة مصطنعة».

وعدّ المعلم فوز الكتاب في أكبر معرض لكتب الأطفال في العالم نجاحاً كبيراً لكتاب الأطفال العرب، وأكّد أن الكتاب «يعيد بصورته الحالية تقديم نظرة جديدة للقارئ العربي الصغير من دون تحويرات وتشويهات».

والجدير بالذكر أن دار الشروق المصرية، التي يملكها إبراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب، كان قد سبق لها أن فازت قبل عامين بجائزة المعرض عن كتاب «حياة محمد»، للكاتب عبدالتواب يوسف ورسوم صلاح الدين بيصار.

اتفاق إليكتروني

اتفقت شركتا أمازون - كوم للتجزئة على الإنترنت، وبارنز اند نوبل لبيع الكتب على الإنترنت على تسوية خلافهما القضائي حول حقوق الملكية الفكرية، ويرجع سبب هذا الخلاف - الذي يعد الأكبر بين شركات الإنترنت - إلى الدعوى القضائية التي قامت برفعها شركة أمازون ضد شركة بارنز اند نوبل في عام ١٩٩٩م تتهمها فيها باستخدام تقنية ابتكرتها أمازون تساعد المتسوقين على طلب مشترياتهم من الموقع الشهير بمجرد الضغط على فأرة الكمبيوتر بدلاً من اضطرارهم إلى إدخال بياناتهم الشخصية

عن كل مرة يتسوقون فيها من الموقع.

وكانت هذه الدعوة قد أثارت عاصفة حادة من الانتقادات من جماعات تجارية تنتقد وجود ملكية فكرية للأساليب والأنشطة التجارية على الإنترنت؛ حتى إن بعضهم دعا إلى مقاطعة موقع أمازون حتى تتراجع عن حماية براءة اختراعها، ودعوا أن تكون هذه التقنية متاحة للجميع؛ لأنها لا تعد منافسة حقيقية داخل السوق.

ودافع جيف بيزوس الرئيس التنفيذي لأمازون عن الدعوة التي رفعتها الشركة، واقترح أن تستمر براءة الاختراع ملكًا للشركة مدة تراوح بين ٣ و ٥ سنوات بدلاً من الانفراد بها مدة ٢٠ عامًا.

أول صورة فوتوغرافية في العالم

بلغ السعر الذي بيعت به أول صورة فوتوغرافية في العالم ٢٧٨ ألف جنيه استرليني، وهي صورة التقطها المصور الفرنسي الجنسية جوزيف تايسفور نيبسي في صيف عام ١٨٢٥م ـ لطفل يقود حصانًا. ويبلغ طول الصورة ست بوصات وعرضها أربع بوصات.

وبيعت الصورة للمكتبة الوطنية الفرنسية بواسطة بيت (ثوسبي) في باريس، إلى قسم (ميري تيريزا) الذي درج على جمع الصور الفوتوغرافية النادرة منذ عام ١٩٥٠م.

مثلث الرواية الخليجية

«جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية» هو عنوان الدراسة التي أعدها الدكتور عبدالحميد المحادين، وصدرت في كتاب عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت بالاشتراك مع وزارة الإعلام في البحرين، كما جاء في صحيفة الزمان في عددها رقم ١١٨٤.

استخلص المؤلف أن الإقليم الذي يسمى الخليج العربي جغرافيًا وسياسيًا هو إقليم متجانس إلى حد بعيد، وأن التفاعل الأزلي ببيئة البحر شكّل ما أسماه الباحثون «جدلية البحر والصحراء»، فقد تشكلت عناصر التركيبة البشرية أفرادًا وجماعات بين البحر والصحراء، وقد توارث الخليجيون المؤثرات الحادة التي شكلها البحر والصحراء معاناة وتحديًا «فجاء هذا التأثير الحاد ظاهرًا في الفن الروائي».

وحين تفجر النفط من أعماق الرمال والبحر في المنطقة شكّل هذا انقلابًا جذريًا أصاب المنطقة، وبدأ معه تطور اقتصادي واجتماعي وعمراني رافقته تغييرات جذرية في الوعي اليومي للحياة «وانحسر العمل في الغوص في قاع البحر بحثًا عن اللؤلؤ إلى الغوص في قلب الرمال بحثًا عن الذهب الأسود»، وانعطفت الرواية مع هذه الثروة المفاجئة.

وبفضل تدفق الثروات تغيرت الحياة، وانتشر التعليم، ووجدت مؤسسات الحياة الحديثة، «ونظرًا للقضايا الملحة في مثل هذه التطورات الحديثة صارت المدينة فضاء للحياة وفضاء للرواية».

وقال المحادين: إنه بعد ثنائي الصحراء والبحر أصبح من الممكن أن نتابع في الرواية الخليجية «مثلثًا أضلاعه: الصحراء .. البحر .. المدينة .. بكل تفاصيل وإيحاءات كل ضلع بذاته، وإيحاءات كل ضلع بعلاقة طرفية بالضلعين الآخرين»، وعلى الرغم من التفاوت فالإنسان الخليجي في كل الحالات ـ كما صورته الرواية الخليجية ـ «مرتبط بأضلاع هذا المثلث، وبالفضاء المحصور بينها».



هنلي، مارتن (وآخرون)/ خصائص التلاميذ ذوي الحاجات الخاصة وإستراتيجيات تدريسهم، تعريب: جابر عبدالحميد جابر.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٦٢٥ ص. (سلسلة المراجع في التربية وعلم النفس؛ ١٨).

هذا الكتاب أساس لطلاب المرحلة الجامعية الأولى وطلاب الدراسات العليا الذين يُعدّون لتدريس ذوي الاضطرابات السلوكية، وذوي التأخر العقلي، وذوي صعوبات التعلم، كما يستهدف مدرس المستقبل في التعليم العام والتربية الخاصة، ويوفر الكتاب نظرة شاملة للممارسات التربوية للتعرف إلى التلاميذ ذوي الحاجات الخاصة وتدريسهم، ويعرض للتطورات التاريخية والفكرية للتربية الخاصة، كما يتضمن تحليلاً عميقًا للتأخر العقلي والاضطرابات السلوكية وصعوبات التعلم.

ويبين سبل تنمية التعاون بين المربين في التعليم العام وفي التربية الخاصة والآباء لرعاية هذه الفئات، كما يقدم الكتاب إستراتيجيات التعليم والتقويم وضبط الصف التي تلائم هذه الفئات الثلاث.

يحتوي الكتاب على ثلاثة أجزاء رئيسة:

يتناول الأول أسس التربية للتلاميذ ذوي العجز الخفيف، أما الجزء الثاني فيقدم تحليلاً عميقًا لكل فئة من فئات العجز الخفيف والاضطرابات السلوكية وذوي صعوبات التعلم.

بينما يناقش الجزء الثالث استراتيجيات تدريس التلاميذ ذوي العجز الخفيف، من خلال التمدرس في التيار الرئيس أو الدمج والتعلم والتعليم وإدارة السلوك ومشاركة الوالدين.



العتيقي، عماد محمد/دليل إنشاء وتحقيق سلاسل الأنساب.- الكويت: المؤلف، ٢٠٠١م، ١٥٧ص.

تعد دراسة الأنساب من الدراسات المتخصصة في البحث العلمي، وتحتاج إلى مهارات وتقنيات تمتد إلى أكثر من علم كالتاريخ، والاقتصاد والإحصاء والحساب وشيء من فقه المعاملات لتفسير بعض الأحكام الواردة بالوثائق المختلفة. ولصعوبة جمع كل هذه المهارات في شخص واحد، وضع الكاتب في هذا الكتاب «قواعد مختصرة تستخلص ما يحتاج إليه في كل علم من هذه العلوم فيما يتعلق بتحقيق الأنساب وإنشاء شجرة العائلة».

جاء الكتاب في سبعة فصول: تناول المؤلف في الفصل الأول التعريف بأهمية الأنساب وأنواعها في الإسلام، وتطرق في الفصل الثاني إلى مدخل علم القرابة من الناحية الأنثروبولوجية والمصطلحات الأساسية اللازمة لإنشاء سلاسل الأنساب، واستعرض في الفصل الثالث الأدوات التي يحتاج إليه الباحث في دراسة سلاسل الأنساب، وخصص الفصل الرابع للتفصيل في مراتب الأدلة المختلفة وحجيتها في الدلالة.

وتناول في الفصل الخامس مناهج إنشاء الشجرة. والمنهجية التي يحتوي عليها هذا الفصل هي لب هذا الكتاب فقد فصّل فيها الخطوات المختلفة التي تمر بها عملية إنشاء سلاسل النسب بأسلوب علمي متكامل.

وعرض في الفصل السادس المقاييس الإحصائية التي صممها وعرضها لاختبار مصداقية النتائج، ودعمها بالأمثلة العملية من أجل توضيح طريقة استخدامها، وختم بالفصل السابع

الذي استعرض فيه دراسة تطبيقية لمناهج تحقيق الأنساب لتوضيح الأبدال المختلفة التي تواجه الباحث وكيف يفاضل بينها؟.

وذيل البحث ببعض الملاحق التي يحتاج إليها الباحث لقراءة الوثائق من مصطلحات الترقيم الدارجة قديماً، والعملات وما استعمل كنقد، لما لذلك من أهمية في فهم النصوص القديمة.

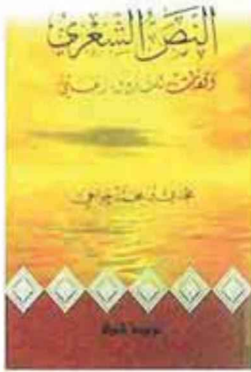




الوشمي، عبدالله بن صالح/البحر والمرأة العاصفة (ديوان شعر) - بريدة: النادي الأدبي بالقصيم، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٩٦ص.

ليتهم علموا
أنني القبلة الواحدة!
قدري قدرُ النخلة الصاعدة
وأن خطاي التي بدأت
وحدها...
وحدها تعرف الجنة الخالدة
وأن الذي يعشق الأرض لابد أن
يكسر القاعدة
وأني إذا عدت ياوطني
أعود كما قطرة عائدة
إنني شاعر البدء. ماعدت أعرف
أي المراحل خلفي
وأي المراكب أحرقها الخائفون لأن بصدري
جنون الشتاء
وفي شفتي الزلزلة
مثقل بالحروف أنا سيد الكلمات

هذا مقطع من إحدى قصائد ديوان الشاعر االسعودي عبدالله بن صالح الوشمي، البالغ عددها إحدى وعشرين قصيدة، والتي كتبت بين عامي ١٤١٨ و١٤٢١هـ، وقد حصل هذا الديوان على جائزة الأمير فيصل بن فهد للإبداع الشعري.



خواجي، مجدي بن محمد/ النص الشعري: وقفات للتذوق الفني.- بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ١٨٢ص.

إن القراءة التحليلية الجيدة هي التي تمتلك رؤية متوازنة نحو العمل الأدبي بأركانه الثلاثة (النص ـ المبدع ـ المتلقي)، وتتفاعل معه ضمن عملية ديناميية حركية، قوامها العقل والذوق والوجدان، وفي ضوء الأدوات النقدية الجيدة التي تسعى إلى اقتحام النص وتجلياته، وتحقيق وظيفته الجمالية، وقيمته الفنية المنتجة، لذا تسعى هذه الدراسة إلى استثارة الذوق الأدبي والفني لدى المتلقي من خلال النصوص الشعرية المختارة، بدءاً من التعريف بقائل النص، والتأمل في الرؤية اللغوية بوصفها بوابة المتعة والتذوق، ثم القراءة الأدبية التي تتحاور مع النص وتسكن معطياته المتعددة، وكذا النظرة الفنية التي تؤصل قيمة النص وتحدد روعته الإبداعية الجمالية من خلال نصوص مختارة من القديم والحديث مثل معلقة امرئ القيس، وعمورية أبي تمام، وبردة البوصيري. وهناك قصائد أخرى كاملة لحسان بن ثابت وابن هتيمل، والسنوسي.



حكمي، حسين صديق يحيى/ من مشاهير الحكميين.- جازان: نادي جازان الأدبي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٢٢٤ص.

يتناول الكتاب تاريخ إحدى الأسر العلمية التي كان لها أثر كبير في نشر العلم والأدب ونهضتهما، وهي أسرة الحكميين المنتسبة إلى جدهم الأعلى: الحكم

ابن سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان.

ولما كان الإلمام بأعلام هذه الأسرة أمراً لا يستطاع، فقد ترجم المؤلف للمشهورين منهم، وحدُّ الشهرة عنده أن يكون له ذكر في التاريخ، وفيما صنف من المؤلفات.

واقتصر على الأموات، وترجم لمن عثر له على ترجمة من لدن عهد صدر الإسلام إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري.

جاء البحث في ستة أبواب جاءت تحت عناوين «الصحابة من الحكميين»، و«التابعون من الحكميين»، و«مشاهير العلماء من الحكميين»، و«في المشاهير من العباد والزهاد»، و«مشاهير الأدباء من الحكميين»، و«مشاهير القادة من الحكميين».

وقد سبقت هذه الأبواب نبذة من نسب الحكميين، وإيماضة سريعة إلى ذكر مساكنهم، وذكر في الخاتمة المحاسن التي خرج بها من البحث في هذا المجال، ثم فهارس البحث.



السميري، نشوان محمد/التعددية السياسية في اليمن: أسس التجربة وحدود الممارسة ـ صنعاء: مكتبة الجيل والمركز اليمني للدراسات الإستراتيجية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٤٠٦ ص.

أبرزت عملية التحول الديمقراطي في اليمن في بداية التسعينيات واقترانها بالوحدة الوطنية، أن النموذج اليمني قد تمكن بنجاح من تجاوز الجدل التقليدي القائم بين ثنائية الوحدة والديمقراطية في الوطن العربي. فقد ظلت الديمقراطية عقوداً طويلة تقايض بالوحدة الوطنية أو القومية وتتم التضحية في سبيل الوحدة على الرغم من ترسيخ واقع التجزئة بالتطور الديمقراطي، والحريات العامة، والمشاركة السياسية.

وفي هذا الكتاب يسعى المؤلف إلى تحليل الكيفية التي تمت بها عملية التأسيس للتعددية، وتنظيم واقعها في إطار النظام السياسي اليمني، وفي وقت مازالت فيه الشروط الاقتصادية والاجتماعية للانتقال الديمقراطي أو (الدمقرطة) في المجتمع اليمني متواضعة قياساً بمجتمعات عربية أخرى، إضافة إلى اتسام تركيبته الاجتماعية بالطابع القبلي بشكل رئيس. وعمد المؤلف في محاولة للإسهام في تأصيل تجربة التعددية في اليمن إلى تحليل معمق ومنهجي للأسس التي انبنت عليها التعددية خلال السنوات الأولى من نشأتها، مبرزاً بالخصوص طبيعة التعايش بين القبيلة والديمقراطية والأسباب التي أمّنت تفضيل الخيار التعددي لربطه عضوياً بعملية الوحدة ومدى متانة الأساس الدستوري المعد لحماية التجربة وتجذيرها مجتمعياً، كما يقدم الكتاب في جزئه الثاني تحليلاً موضوعياً لحدود تركيز التعددية وتقنينها وعوائق الممارسة في الواقع اليمني وفق رؤية تمزج بين النظرية والتطبيق بحيث يمكن لصفحات الكتاب أن تصبح مرجعاً للمهتمين بدراسة التجارب الديمقراطية في الوطن العربي.



البقاعي، محمد خير/ الباقيات: قراءات تراثية.ـ الرياض: دار ابن حزم للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٢٩٦ ص.

تستخدم كلمة «الباقيات» للتعبير عن التراث، وقال المؤلف: إنه اختار هذه الكلمة عنواناً للكتاب حتى «يستطيع القارئ من خلاله تلمس استمرارية التراث فينا، وكونه عنصراً فاعلاً في معاصرتنا».

يحتوي الكتاب على قراءات تراثية تناولت

موضوعات شتى جمعت في هذا الكتاب ليسهل الاطلاع عليها، بدل أن تكون متفرقة في مظان نشرها المتباعدة زمانًا ومكانًا. وقد جاء في هذه القراءات تعليق على عدد من الكتب التراثية، وعلى بعض أعلام التراث؛ فهي تصحح هنات وقعت في أعمال تراثية، وتُعرِّف ببعض قضايا التراث المتنوعة في اللغة والأدب والفن.



البيليوغرافيا الوطنية الأردنية ٢٠٠٠: السجل السنوي للنتاج الفكري في الأردن/دائرة المكتبة الوطنية ـ عمان: دائرة المكتبة الوطنية، ٢٠٠١م، ٣١٩ ص.

تشمل هذه الببليوغرافيا الكتب التي صدرت في الأردن لمؤلفين أردنيين وغير أردنيين، والكتب التي نشرها أردنيون سواء داخل الأردن أو خارجه خلال عام ٢٠٠٠م، وأودعت فعليًا لدى مركز الإيداع في دائرة المكتبة الوطنية الأردنية. وقد أُعدت هذه الببليوغرافيا وفق نظام MINISIS الذي عرّبه مركز التوثيق والمعلومات في جامعة الدول العربية.

وتضم الببليوغرافيا كشافات بالمؤلفين والعناوين والواصفات، وقد رُتبت موضوعات الببليوغرافيا حسب التقسيمات الرئيسة في تصنيف ديوي العشري، ثم رُوعي ترتيب المداخل الرئيسة هجائيًا تحت تلك الموضوعات، ثم وصف كل كتاب وصفًا «ببليوغرافيًا» مع ذكر رقم الإيداع والواصفات ورقم التصنيف.

وجرى تطبيق التقنين الدولي للوصف الببليوغرافي الذي يفرض مجموعة من العناصر التي يجب تثبيتها عن كل كتاب، مع استخدام علامات الترقيم للفصل بين كل عنصر.

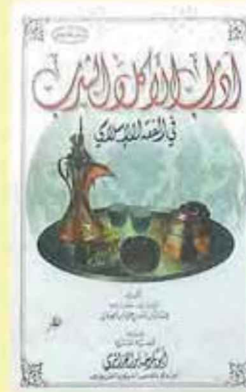
ووردت في مقدمة الببليوغرافيا جداول تحمل معلومات إحصائية عن توزيع الكتب حسب اللغة، والموضوعات، ومكان النشر، ونوع المسؤولية.



تيزيني، الطيب (وآخرون) /الواقع العربي وتحديات الألفية الثالثة ـ عمان: مؤسسة عبدالحميد شومان والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٢٩٦ص (حوارات في الفكر العربي المعاصر؛ ٣).

يتضمن هذا الكتاب ثمانية حوارات قسمت ثلاث مجموعات: تضم الأولى منها ثلاثة حوارات تدور بصورة رئيسة حول العولمة وموقف العرب منها، وتضم الثانية حوارين يدوران حول التنمية والنهضة اللازمتين للشعوب العربية في العقود الآتية، وتضم الثالثة ثلاثة حوارات عن قضايا ملتبسة في الثقافة العربية الراهنة، ففي المحاضرة الأولى يتناول الطيب تيزيني موضوع الواقع العربي وتحديات الألفية الثالثة، وفي الثانية يحاول الحبيب الجنحاني أن يلقي نظرة نقدية على التصورات القائمة في الفكر العربي عن ظاهرة العولمة، ويتناول جلال أمين في محاضرته موضوع «العرب في عصر العولمة وما بعد العولمة»، ويقدم رمزي زكي اقتراحاته لصياغة «رؤية تنموية بديلة»، بينما يناقش مسعود ضاهر «تجديد المشروع النهضوي العربي».

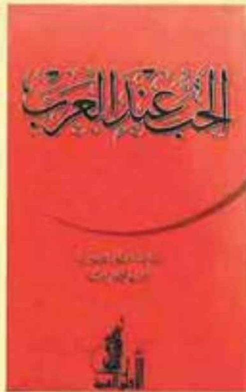
أما القسم الأخير من الكتاب فيدور حول قضايا تنتمي إلى المجال الثقافي، ففي محاضرة بعنوان «رؤية في الفكر العربي المعاصر» يثير أحمد ماضي أمثلة تتعلق بمعنى (فكر)، ومعنى (عربي) في محاولة للتمييز بين (الفكر العام) و (الفكر الخاص). وتحت عنوان «الخطاب الثقافي العربي بين الماضي والمستقبل» جاءت محاضرة الدكتور عزالدين عمر موسى. واختتمت المحاضرات بمحاضرة للدكتور محمد عمارة بعنوان «الإسلام والغرب وحوار المستقبل».



الجدعاني، حامد بن مدّه بن حـمـيـدان/آداب الأكل والشرب في الفقه الإسلامي ــ جـدة: المؤلف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٢١٦ص.

يرى الشيخ أبوبكر الجزائري الواعظ بالمسجد النبوي الشريف «أن هذا الكتاب خير كتاب في موضوعه الذي هو: الأكل والشرب في الفقه الإسلامي، إذ حوى الكتاب كل مايتعلق بالأكل والشرب من واجبات، وسنن، وآداب، ومباحات، فكان كالقاموس في هذه الأحكام الشرعية المتعلقة بالأكل والشرب».

قدّم المؤلف كتابه بتمهيد اصطلاحي عن تعريف الأكل والشرب، ثم قسّمه فصلين رئيسين: الأول عن آداب الأكل والشرب؛ ويشمل الآداب قبل تناول الطعام، وخلاله، وبعد الانتهاء من تناول الطعام، وفي الثاني تناول آداب الشرب وأحكامه، إضافة إلى خاتمة للدراسة بيّن فيها أهم الاقتراحات والتوصيات في مجال بحثه.



باشا، أحمد تيمور/الحب عند العرب ــ القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٠م، ١٦٠ص.

الكتاب هو أحد مخطوطات أحمد تيمور باشا قامت بنشره لجنة نشر المؤلفات التيمورية، وكانت اللجنة قد عثرت على أكثر أصوله بخط المؤلف بين ما خلّف من مخطوطات لم يقدر لها أن تطبع في حياته، وكان المؤلف قد ترك جذاذات أشار فيها إلى موضوعات أخرى كان ينوي أن يضمها إلى أصل هذا الكتاب، وقد تولت اللجنة إكمال هذه المهمة كما أراد المؤلف.

ويتناول الكتاب الحب في أسمى نزعاته، ويقدم تحليلاً لهذه العاطفة الرقيقة من حيث بواعث الحب ومظاهره ومعانيه وأنواعه، ويكشف عما يختلج في نفوس المحبين من شوق وحنين، ولقاء وفراق، وحيرة واستقرار.

ويتناول الكتاب كذلك التغني بالجمال، ووصف سماته، وعرض صفاته، ويقدم صوراً جميلة من ألوان التشبيب عند العرب أخصّها في وصف العيون وما فيها من السحر والمعاني.

ويشتمل الكتاب على عشرة أبواب: في «صفات الحب وأوصافه»، و«أنواع الحب»، و«الحب والجمال»، و«العيون»، و«الغزل ووصف النساء»، و«حب الأزواج»، و«تعدد الزوجات والأزواج»، و«الشعراء العشاق»، و«عداوة النساء»، و«طرائف عن الحب».



دليل مكتبات المخطوطات في الوطن العربي/ تحرير: محمد محمد عارف، تقديم: فيصل الحفيان.. القاهرة: معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتراث والثقافة والعلوم)، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٢٩٤ص.

يبلغ عدد المكتبات التي رصدها هذا الدليل ٢١٩ مكتبة، موزعة على النحو الآتي: جامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم): ١، الأردن: ٧، الإمارات: ٤، البحرين: ٤، تونس: ٩، الجزائر: ١٠، جزر القمر: ٤، السعودية: ٢٣، السودان: ٧، سورية: ٩، العراق: ٨٤، عمان: ٢، فلسطين: ٢١، قطر: ١، الكويت: ٤، لبنان: ٨، ليبيا: ٦، مصر: ١٠،

المغرب: ٣، موريتانيا: ١، اليمن: ١.

واعتمد الدليل منهجًا معينًا جاءت فيه المادة التحريرية بداية باسم المكتبة، ومقرها، وعنوان مراسلتها البريدي، وهواتفها، وناسوخها، ثم وزعت المادة في عدة فقرات رئيسة؛ الأولى فيها لمحة سريعة عن إنشاء المكتبة وتأسيسها، ومعلومات تتصل اتصالاً مباشراً بذلك، والثانية عن المخطوطات والمجاميع التي تمتلكها، ثم المصورات سواء أكانت على ميكروفيلم أم على ميكروفيش أم على ورق، ثم عناوين أهم المخطوطات، ونموذجات لأخواتها، والثالثة عن الفهارس الصادرة والسجلات، سواء أكانت في شكل قوائم أم بطاقات، وعدد المفهرسين - إن وجدوا.



لال، زكريا يحيى/ الإنترنت في التعليم وواقع البحث العلمي ـ الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ١٦٠ص.

هذا البحث محاولة محاولة لمعرفة أهمية استخدام شبكة المعلومات «الإنترنت» في العملية التعليمية؛ وذلك لأن شبكة المعلومات من التقنيات التي بدأ استخدامها في جميع الأغراض والأنشطة في مختلف دول العالم، ومن بينها المملكة العربية السعودية التي لم تحظ إلا بقدر يسير من الاستفادة، غير أن الفكرة لاتزال تراود المسؤولين للاستفادة من هذه التقنية في العملية التعليمية.

يتكون الكتاب من دراستين محكمتين، الأولى بعنوان «أهمية استخدام الإنترنت في العملية التعليمية»، وذلك من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس بالجامعات السعودية، والثانية بعنوان «واقع البحث العلمي في مؤسسات التعليم العالي»، وقد ركّز فيه المؤلف في مجال البحث العلمي، وأهم ما يعانيه من مشكلات.

استعان المؤلف بعدد من الجداول والرسوم البيانية لتوثيق المعلومات الواردة في الكتاب، وختم كل دراسة بعدد من المقترحات والتوصيات.

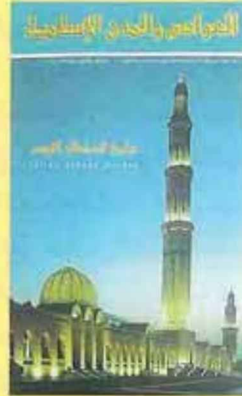


مصطفى، فهيم/ مشكلات القراءة من الطفولة إلى المراهقة: التشخيص والعلاج ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٢٠٤ص.

يتناول هذا الكتاب عدداً من القضايا التي تعوق الطفل في القراءة وأسبابها وكيفية علاجها. وقد استندت الدراسة إلى نتائج البحوث العربية التي تناولت هذه القضية.

جاء الكتاب في تسعة فصول، تناول المؤلف في فصله الأول «خصائص نمو الطفل والمراهق»، وتتبع في الثاني «الطفل يستعد للقراءة»، وتناول في الثالث «مهارات القراءة عند الأطفال»، وحدد في الرابع «الميول القرائية»، وناقش في الخامس «مشكلات القراءة»، وعدد في السادس «أسباب مشكلات القراءة»، وتناول في السابع «التلميذ المعاق في القراءة»، وشرح في الثامن «تشخيص وعلاج حالات التأخر في القراءة»، وختم بالتاسع الذي تناول فيه «القراءة الحرة ومشكلاتها في المدرستين الابتدائية والإعدادية».

ويرى المؤلف هذا الكتاب دليلاً ومرشداً لكل من يحرصون على تحسين مستوى أبنائهم في القراءة بهدف مساعدتهم على التحصيل، ومحاولة لتنبيه المعلمين واختصاصيي المكتبات وأولياء الأمور على أهمية القراءة وضرورة علاج حالات الضعف فيها.



العواصم والمدن الإسلامية (ع٣٢، المحرم ١٤٢٣هـ/ مارس ٢٠٠٢م)

مجلة محكمة نصف سنوية تصدرها منظمة العواصم والمدن الإسلامية من مكة المكرمة.

جاءت موضوعات هذا العدد من الدورية في مجال اهتماماتها التي تدور حول تنمية العواصم والمدن الأعضاء بالمنظمة وقضايا التخطيط والعمارة والمرافق العامة والإسكان ونظم الإدارة والصيانة والقوانين المحلية والمحافظة على التراث وغيرها من الاهتمامات التي تصب في مصلحة المدن والعواصم الإسلامية.

بدأت الدورية بافتتاحية استعرض فيها المهندس عمر عبدالله قاضي الأمين العام للمنظمة أهم إنجازات المنظمة في الفترة الماضية، ثم تناولت المجلة أخبار (العواصم والمدن) والتي شملت «إعادة ترميم مسجد الأمير منصور عساف ببيروت» و «ندوة التراث العمراني في المدن العربية بحمص»، و«تزايد المساجد في ديترويت»، و«افتتاح أكبر دار لطباعة المصحف الشريف في العالم»، وغيرها من الأخبار.

وفي باب مدينة إسلامية أوردت المجلة استطلاعًا بعنوان «العمارة اليمنية تحافظ على تراثها: صنعاء نموذجًا»، وجاء بعد ذلك استعراض لـ «أخبار وأنشطة المنظمة» وردت فيه أخبار عن «مشاركة المنظمة بمؤتمر الأمم المتحدة (استانبول + ٥)» الذي عقد في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية في يونيو/تموز عام ٢٠٠١م، و«الإعداد لمؤتمر الأمم المتحدة (ريو +١٠)» الذي سوف يعقد في جوهانسبيرج في جمهورية جنوب إفريقية في سبتمبر/أيلول من هذا العام، ثم جاء بعد ذلك استطلاع بالصورة والكلمة لموضوع الغلاف «جامع السلطان قابوس» في سلطنة عُمان.

واحتوى باب (من التراث) عن صور لعدد من الآثار الإسلامية البارزة منها: «واجهة لقصر من العصر العباسي - بغداد - العراق»، و«مدرسة شيردور - سمرقند - أوزبكستان» و«مدخل مسجد الجمعة - مدينة هراة - إيران»، وغيرها من المعالم، بالإضافة إلى عدد من الموضوعات الأخرى منها: «الاستثمار في مجال البيئة»، و«جمعية القدس للرفاه والتطوير»، و«مبنى مشيخة الأزهر الشريف، و«التنمية الشاملة لمحافظة الإسكندرية»، و«مجمع دار الأيتام الإسلامية»، و«إعلان المدن والمستوطنات البشرية».

وقد جاءت كل موضوعات المجلة باللغتين العربية والإنجليزية في وقت واحد.

العنوان:
ص.ب: ٢٩١٩ مكة المكرمة
هاتف: ٦٩٨١٩٥٣
ناسوخ: ٦٩٨١٠٥٣



المنطلق الجديد (ع٤، شتاء- ربيع ٢٠٠٢م)

مجلة فكرية فصلية تصدر من لبنان.

ركز هذا العدد من المجلة في موضوع حديث النهايات، إضافة إلى البحوث الفكرية والاقتصادية الأخرى، فكان أول المحاور بعنوان: حديث النهايات، شارك فيه كل من الدكتور وجيه قانصوه ببحث بعنوان «١١ أيلول: عدو الأصولية أم نهايتها؟»، وللدكتور حسن جابر بحث بعنوان «مصير الدولة في زمن العولمة: نهاية أم تبدل دور ووظيفة؟»، وللأستاذ إدريس هاني بحث بعنوان «نهاية التاريخ أم نهاية الغرب السياسي؟».

وضم العدد حوارًا مع المفكر الدكتور حسن حنفي، وندوة «التنمية الاقتصادية في عصر العولمة» شارك فيها كل من الدكتور نجيب عيسى ببحث بعنوان «النموذج التاريخي للتنمية: هل يصلح لعصر العولمة؟»، والدكتور شربل نحاس ببحث بعنوان

«التنمية: إدارة اجتماعية أو بالضد منها؟»، والدكتور غالب أبو صالح ببحث بعنوان «التنمية أكثر من حداثة الثقافة العائق الأصل في التنمية العربية».

وفي باب البحوث: ناقش الدكتور طلال عتريسي موضوع حوار الحضارات في ظل العولمة، وكتب يسري مقدم عن الأديبة زينب فواز، وقدم الدكتور سهيل فرح رؤية توفيقية تصالحية بين العلم المعاصر واللاهوت المسيحي.

وفي باب مراجعات: قدم الدكتور عفيف عثمان عرضاً لكتاب فيليب سناك الذي يدرس العقليات في العصر الوسيط من خلال دراسة الآخر وتصوره والذي يتتبع تطور النظرة الغربية إلى الإسلام من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الميلادي، واختتم العدد بقراءة للدكتورة زينب إبراهيم شوربا في كتاب «حديث النهايات» لعلي حرب.

العنوان:

لبنان - حارة حريك - بناية الغفران - ملك فواز - ط١

هاتف: ٠٣/٨٢١٠٧٧

مجلة التعاون الاقتصادي بين الدول الإسلامية (مج٢٣ - ٢٠٠٢م)

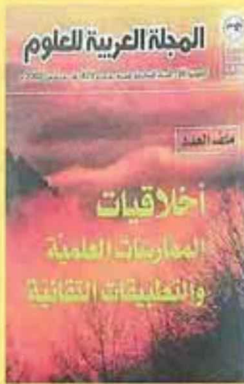


مجلة بحث تطبيقي في مجال اقتصاديات التنمية هدفها تعزيز التعاون بين بلدان منظمة المؤتمر الإسلامي تصدر عن مركز الأبحاث الإحصائية الاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الإسلامية بأنقرة. غطت موضوعات هذا العدد عدة قضايا اقتصادية بدأها الدكتور محمد سعيد عميرة ببحث بعنوان «اقتصاد دولة الإمارات العربية المتحدة: الإنجازات المحققة والتطلعات المستقبلية»، وتناول الدكتور سروار هوبوم الخبير في التنمية الصناعية تجربة منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (اليونيدو) في دعم نمو المشروعات الصغيرة والمتوسطة وتطويرها في البلدان النامية وبلدان التحول الاقتصادي، وحلل إيرول طايماز الدور الذي تضطلع به المشروعات الصغيرة والمتوسطة ضمن قطاع الصناعات التحويلية في تركيا، واختتم العدد ببحث بعنوان «اتفاقية الجوانب المتصلة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية وانعكاساتها على البلدان النامية» لمحمد طوبا أونغون والذي يخلص إلى أن تلك الاتفاقية قد توفر على المدى الطويل حافزاً لشركات البلدان المتقدمة إلى الاستثمار في البلدان النامية، فإنها في صيغتها الحالية تمثل انحرافاً صارخاً عن مبدأ المعاملة الخاصة التمييزية التي يفترض أن تتمتع بها البلدان النامية، وتجسد انحيازاً مطلقاً لترسيخ الحقوق الاحتكارية لأصحاب تلك الملكية.

العنوان:

Majallet Attaun al Iktisadi Dergisi, Islam Ulkeleri, Istatistik, EKonomik ve Sosyal Arastirma ve Egitim Mekezi tarafindan Yilda bir defa yayimlanir.

المجلة العربية للعلوم (س١٧، ع٣٩، المحرم ١٤٢٣هـ/ مارس ٢٠٠٢م)



مجلة علمية نصف سنوية تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. اشتمل هذا العدد على بحوث علمية متنوعة، وجاء ملف العدد بعنوان «أخلاقيات الممارسات العلمية والتطبيقات التقانية» والذي ضم تسعة أبحاث هي «نحو استراتيجية عربية توحّد الرؤى والمواقف تجاه أخلاقيات العلم والتقانة» للأستاذ مروان حمادة، و«الأمانة العلمية في اقتباس المعلومات وموضوع السند العلمي عند العرب» للدكتور محمد السويسي. و«الأمانة العلمية وأنماط التزييف العلمي» للدكتور دحام إسماعيل العاني، و«ممارسات غير أخلاقية في حقل الرياضيات» للدكتور أبو بكر خالد سعد الله، و«أخلاقيات استخدام المياه» للدكتور محمود أبو زيد، و«الأخلاقيات

ومجتمع المعلومات» للدكتور محمد بن أحمد، و«الأخلاقيات في إجراء البحوث حول الحياة والإنسان» للدكتور عبدالعزيز بن محمد السويلم، و«الأخلاقيات في إجراء البحوث حول أسلحة الدمار الشامل» للدكتور عبدالكاظم العبودي، والدكتور كيحل مبروك، و«الاستنساخ البشري بين الرهانات والأخلاقيات» للدكتور علي شيخي، والأستاذة فطومي شيخي.

وفي باب الدراسات ناقش الدكتور مدحت سيف النصر «أسباب تباطؤ العرب عن مواكبة التقدم العلمي الحديث وتحقيق التقدم التكنولوجي في الوطن العربي»، بينما تطرق الدكتور محمد غنايم والدكتور جاد إسحق إلى «التطور العلمي في إسرائيل»، وقدم الدكتور أمين السلطي عرضاً لكتاب «إدارة الموارد المائية في الإسلام»، وكانت شخصية العدد الدكتور محمود أبو زيد وزير الموارد المائية والري في جمهورية مصر العربية ورئيس المجلس العالمي للمياه.

واشتمل العدد أيضاً على تعريف بالمركز الوطني للمعلومات بالجمهورية العربية اليمنية. واختتم العدد بباب عن أخبار المنظمة.

العنوان:
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
ص.ب: ١١٢٠ القابضة الأصلية - تونس.
هاتف: ٧١٠٧٨٤٠٤٦٦ - ناسوخ: ٧١٠٧٨٤٠٩٦٥

العربية ٣٠٠٠
(س٣، ع١، ٢٠٠٢م)



مجلة فصلية محكمة متخصصة في علم المعلومات تصدر عن النادي العربي للمعلومات بدمشق.

تضمن هذا العدد من الدورية مجموعة من الموضوعات المتخصصة في علم المعلومات. ففي باب مكتبات الأطفال تقرأ البحوث الآتية: «واقع المكتبات في مصر.. المكتبات العامة.. مكتبات الأطفال» لـ (أبو السعود إبراهيم)، و«ثقافة الكتاب والطفل العربي - الواقع والتحديات والحلول التطويرية» للدكتور محمد مرعي مرعي، و«المكتبة المدرسية والبلدية.. مقاربة نظرية لأشكال التعاون بينهما» لرياض بن لعلام، و«مكتبات رياض الأطفال في الأردن» لديالا يوسف قنديل، و«مكتبات الأطفال والمكتبات المدرسية» لهنادة سمير.

وفي باب آفاق كتبت الدكتورة هيفاء أيوب ججاوي عن «البحث والاسترجاع في المواقع الإعلامية على شبكة الإنترنت»، واستعرض الأستاذ هاني شحادة الخوري «الأعمال في عصر المعلومات.. أنماط العمل الجديد في عصر الاقتصاد المعرفي (المهن الجديدة - الاستشارات - الخدمات)»، وناقشت الدكتورة ناهد حمدي أحمد «استراتيجية الإدارة العلمية للأرشيف بين الأداء التقليدي وتكنولوجيا المعلومات».

وقدمت الدكتورة عامرة حقي الفرغولي دراسة تجريبية لتطبيق الطرائق الاحصائية في تحليل محتوى النصوص بلغتها العربية آلياً، وتناول أحمد محمد العنزاوي واقع التعليم ومستقبله عن بعد في الوطن العربي.

وفي باب المؤسسات: كتب عمر ميموني عن تجربة الأرشيف الجهوي لولاية قسنطينية بالجزائر، وقدمت رجاء الشلبي تعريفاً بأرشيف المكتبة الملكية في مدينة إيبلا السورية.

وتناولت هناء غانم موضوع التصنيف عند ابن النديم، وفي باب الترجمات: ترجم عصام عبدالمالك مقالة تصف آراء أمناء مكتبات الأطفال في بريطانيا بشأن الكتب الإلكترونية، وترجمت غادة سعيد سمير كتاب «مبادئ أمن الشبكات»، كما ترجمت فاتنة روماني مقالاً عن «أثر افتتاح الأرشيف الصيني في الصين في القرن الحادي والعشرين».

واختتم العدد بتقرير عن مؤتمر «كيف نواصل مشروع حوار الحضارات» الذي أقيم في دمشق في الفترة من ١٩ إلى ٢١/١/٢٠٠٢م.

العنوان:
ص.ب ٣٣٠٩٢ دمشق - هاتف: ٤٤٦٠٣٥٦ - ناسوخ: ٤٤٦٢٠١٨

صناعة التجليد والترميم في الغرب الإسلامي

السعيد بنموسى
الرباط - المغرب

كانت للمسلمين حضارة عظيمة في صناعة تجليد المخطوطات وتذهيبها وترميمها، وقد بلغ هذا الفن أوج عظمته في العصر الوسيط؛ وخاصة في الأندلس الإسلامية والمغرب.

وفي الواقع لم يكن للغرب الإسلامي معرفة بصناعة التجليد، إلا بعد الفتوحات الإسلامية، ولا شك أنها كانت تتم صناعتها في فجر الإسلام بطرائق بدائية، ثم عكف عرب الأندلس والمغرب - فيما بعد - على تطويرها، وجعلوها ذات أسلوب جديد، وطابع خاص، يميزها حتى من التجليد الفارسي والبيزنطي الذي حذق أربابه هذه الصناعة.

ولعل أبلغ ما يصور الرقي الذي وصلت إليه هذه الصناعة في الأندلس والمغرب هو ما ذكره الشيخ بكر بن إبراهيم الإشبيلي في كتابه «التيسير في صناعة التسفير».

وكذلك ما ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد السفياني في كتابه «صناعة تسفير الكتب وحل الذهب».

فمثلاً كان المسلمون قديماً غالباً ما يستخدمون في باطن الجلد الصفائح الخشبية، وكانت هذه الكتب ثقيلة الوزن بطبيعة الحال، فابتكر عرب الأندلس والمغرب الصفائح الورقية الخفيفة الوزن، فكان المجلد يدهن ورقة بالنشا ويتركها، ويدهن ورقة ثانية، ويترك الوجه المدهون من الورقة على الوجه المدهون من ورقة ثانية، ويدلكها بكفيه، ويقلب الوجه الأسفل على الأعلى، وينظر هل فيه شيء من الرخاوة، فيمدده ويبسطه بكفيه حتى يمتد غاية امتداده، ولا يبقى في الوجهين انكماش ولارخاوة، فحينئذ ينزل الورقتين الملتصقتين الواحدة بالأخرى، ويأخذ ورقتين أخريين، ويعمل فيهما عَمَلَهُ بالورقتين اللتين قبلهما حتى تلتقي الأوراق كلها ثنتين ثنتين، فإذا أراد المجلد أن يرقق الغلاف، أنقص ما يريد من عدة الأوراق، وإذا أراد أن يضخمها، زاد ما يريد على قدر نظره.... وقد وصف لنا الفقيه محمد السفياني في باب «كيفية عمل الدفاف» هذه التقنية بدقة متناهية في مؤلفه الذي سبق ذكره، كما وصف هذه التقنية، في باب التبطين، الشيخ الإشبيلي في مؤلفه السابق الذكر كذلك.

أما في الناحية الفنية، فسنحاول باختصار أن نتعرفها، وقبل ذلك لا بد أن نعرِّف أدوات التجليد والغراء التي كانت تستعمل في العصر الوسيط.

الأدوات الكبرى:

ملزم التقفية - ملزم التقصيص - التخت - القالب - الرخامة.

الأدوات الصغرى:

المقراض - المقدة - السكين - حجر المسن - الأشفى - المخط - الإبرة - الخفيف - مدلك - منشار - مملسة - مضلفا - مثقاب - مطرقة - المقلع - أختام وحدائد التذهيب والزخرفة.

الغراء:

الابرجمة - الدرمك - الدقيق الأحمر - النشا.

خياطة المخطوط وتقصيصه ونسجه وتجليده

كان أول ما يبتدئ به المجلد هو صناعة (الدفاف) الورقية كما أشرنا قبل، ثم خياطة المخطوط في قالب الخياطة (المرمة)، وبعد تغريته بالنشا يقصصه بالمقدة أو السكين بعد ضغطه في الملزم، وبعد التقصيص يصقل المخطوط بحجر البركان أو حجر الحك حتى يذهب أثر قطع السكين، ثم ينسج رؤوس الكراريس بالحرير الملون، وبعد ذلك تركب (الدفاف) الورقية، ويفصل رقعة من الجلد ويجلد بها المخطوط بأكمله.

ولم يقتصر التجليد على الغلاف الخارجي للمخطوط، بل يجلد حتى باطنه، وخاصة المصحف الشريف، وهذه العملية سماها الشيخ الإشبيلي بالشدق وجمعها أشداق «وذلك أن تأخذ قد المصحف من الجلد فتلصق عليه ورقتين أو ثلاثًا من الكاغد



تطور فنون التجليد والترميم حفظ درر الحضارة الإسلامية

وفي الواقع كانت الزخرفة بواسطة هذه الصحيفة الحديدية المنقوشة، أسرع بكثير من الطريقة القديمة التي كانت تعتمد على الأختام وحدائد الضرس المتحركة.

ترميم المخطوط ومعالجته

كان للترميم في عصر ازدهار الحضارة الموحدية أهمية كبيرة، وذلك لإنقاذ التراث الديني والأدبي والعلمي، وكانت أوراق المخطوط المخرومة ترمم بكاغد خاص، ألا وهو الكاغد الطلحي، وقد وصف لنا الشيخ الإشبيلي في باب «العمل في الأسفار البوالي ورد الكسا عليها» أسلوب الترميم الذي كان يستعمل في هذا العصر.

وهذا ملخصه:

«وذلك أن تحل - أي تفكك الكراريس من الخياطة - وتنظر أواسطها ويضبر ما فيها للتضبير - أي ترمم الخرم بالكاغد الطلحي - ثم تخيطها على طريقها الأول - أي تخيطها من جديد - وتعمل للمخطوط معلقات من الرق، ثم تعمل له الجناحين من الجلد أو من الكاغد أو من السلفة، وتنسجه بالحبك، ولابد من ترقيع ما نقص من الكسوة وحينئذ تركبها، والوجه الأول أحسن، وذلك أن الرقعة تبشر حتى تكون أطرافها في نهاية الرقة. وتركب على الكسوة...إلخ».

وقد ورث الغربيون فن الترميم في المخطوط فيما ورثوا عن العرب، ورمموه بالأسلوب نفسه الذي استخدمه العرب السابقون، ورقعوا الغلاف الجلدي مثلهم، ثم التجؤوا في وقتنا الحاضر إلى عدة طرائق وأساليب علمية.

حقًا إن المجلِّد والمرمم كان له شأن في الحضارة العربية الإسلامية، فقد احتلت صناعته التي كانت ولاتزال تحفظ المصاحف، والكتب الدينية، والعلمية، والأدبية وغيرها، المكانة الأولى بين سائر الفنون.

ورحم الله ابن الحاج الفاسي صاحب كتاب المدخل الذي قال عنها: «إن هذه الصنعة من أهم الصنائع في الدين؛ إذ بها تصان المصاحف وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية».

وتحمل عليها ورقة من الرق ثم تطوي عليها طرة من الجلد...إلخ».

التذهيب والزخرفة

عني عرب الأندلس والمغرب في العصر الوسيط عناية فائقة بتذهيب المخطوط وتزويقه، وأبدعوا فيه إبداعاً يكاد يكون منعدم النظير، حيث كان المجلد يذهبه ويزخرفه بأختام حديدية شكلها مربع أو مثمن أو دائري أو وردي وغيرها، وكذلك حدائد الضرس، وهي حدائد طويلة متحركة تدور على غلاف المخطوط، زخرفتها بارزة كأنها أضراس، لذلك سماها الشيخ الإشبيلي بحدائد الضرس، وقد تطورت هذه الطريقة مع تطور العصر، وأصبحت الكتب تزخرف بحركة واحدة على كل الجلد، وذلك باستعمال ورقة الذهب وصفيحة حديدية كبيرة منقوشة وساخنة يضغط بها على الجلد بآلة الضغط، لتبرز بعض أجزائه، وينخفض بعضها الآخر. ومن أمثلة ذلك، مصاحف موحدية مزخرفة بالطريقة المذكورة، تتألف من عشرة أجزاء، يحتوي كل جزء منها على ستة أحزاب، وهي بخط عمر بن إسحاق المرتضى آخر الخلفاء الموحدين، وهي الآن متفرقة في المكتبات المغربية، بعضها موجود بالخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط، وبعضها الآخر بمكتبة ابن يوسف بمراكش.

صدر حديثاً عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية



مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

النبي ﷺ ويهود المدينة

أ.د. محمد بن فارس الجميل

الاتصالات السعودية
SAUDI TELECOM

نعمل اليوم لغد واعد

مـــرّة أخـــرى...
نخفّض الأسعـــار

الدولة	السعر القديم	السعر الجديد		
	وقت الذروة	وقت الذروة	التخفيض الأول	التخفيض الثاني
دول مجلس التعاون	٢,٦٠	٢,٢٠	١,٨٠	١,٥٠
بقية الـــدول العـربيـــة	٤,٥٠	٣,٨٠	٣,٢٠	٢,٧٠
بريطانيـا، فرنسـا	٤,٥٠	٣,٨٠	٣,٢٠	٢,٧٠
اليابـــان	٦,٠٠	٣,٨٠	٣,٢٠	٢,٧٠
تركيـــا	٤,٥٠	٤,٠٠	٣,٣٠	٢,٧٠
إندونيسيـا	٥,٥٠	٤,٠٠	٣,٣٠	٢,٧٠
الفلبـــين	٥,٥٠	٤,٠٠	٣,٦٠	٣,٣٠
الهنـــد، باكستـــان، بنغلادش	٥,٥٠	٤,٥٠	٣,٩٠	٣,٣٠
المانيـا، هولنـدا	٥,٥٠	٥,٠٠	٤,١٠	٣,٣٠
سريلانكـا	٥,٥٠	٥,٠٠	٤,١٠	٣,٣٠
الصـين، تايلانـد، هونغ كونـغ	٧,٠٠	٥,٥٠	٤,٨٠	٤,٢٠
نيجيريـا	٧,٠٠	٥,٥٠	٤,٨٠	٤,٢٠
أمريكا، كنـــدا	٤,٠٠	٣,٠٠	٢,٧٠	٢,٤٠

الآن، خفّضنا أسعار المكالمات الدولية عبر الهاتف الثابت والجوال لنيسّر عليك الاتصال بأعمالك وتواصلك مع أحبائك. هكذا نقلّص المسافات ونقرّب البعيد.

لمزيد من المعلومات، يمكنكم الاتصال على الرقم ٩٠٧ أو ٩٠٢ أو زيارة موقعنا www.stc.com.sa